ذكريات عن لينين لاقربائه

يا عمال العالم اتحدوا!

ذكريات عن لينين لاقربائه

دار الطبع و النشر باللغات الاجنبية
موسكو

توطئة

تتضمن المجموعة الحالية ذكريات عن لينين كتبها اقاربه، حنة اوليانوفا ــ ايليزاروفا، وديمترى اوليانوف، وماريا اوليانوفا، وناديجدا كروبسكايا.

والقسم الرئيسي من هذه المجموعة يتألف من كتابات اخذت عن كتابي «ذكريات عن ايليتش» لكاتبته حنة اوليانوفا ــ ايليزاروفا و«حديث عن لينين» لواضعيه ديمترى اوليانوف وماريا اوليانوفا، وقد اصدرهما سنة ١٩٣٤ معهد ماركس ــ انجلس ــ لينين، التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البولشفي) في الاتحاد السوفييتى، وعدا ذلك نشر في المجموعة عدد من الذكريات الاخرى كتبها ديمترى اوليانوف وماريا اوليانوفا، وكذلك ذكريات كتبتها ناديجدا كروبسكايا، كانت قد نشرت قبل ذلك في النشرات الدورية وغيرها.

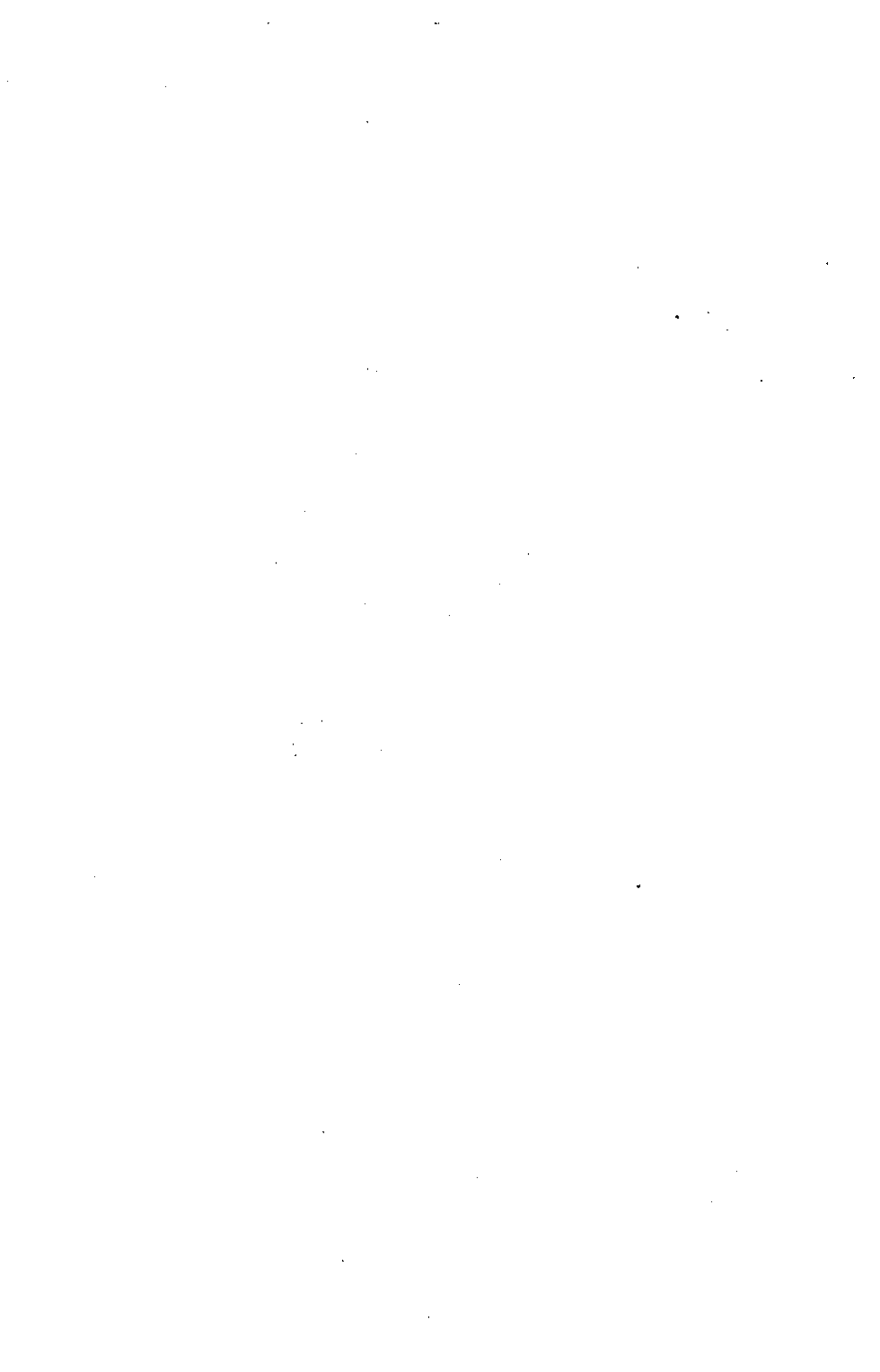
والذكريات التى ضمنت هذه المجموعة تشرح عهودا مختلفة من حياة ونشاط لينين. والقسم الاكبر من الذكريات يتعلق بطفولة ويفاع لينين ونشاطه الثورى قبل ثورة اكتوبر. وهناك في جملة من الذكريات شرح لنشاط لينين بعد ثورة اكتوبر.

والذكريات التى كتبها عن لينين اقاربه ترسم بوضوح سيماءه، وتساعد على دراسة حياة ونشاط مؤسس الحزب الشيوعي وزعيمه، مؤسس الدولة الاشتراكية السوفييتية دراسة اعمق.

معهد الماركسية ـ اللينينية لدى اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي.

حنا اوليانوفا - ايليزاروفا

ذكريات
عن
ايليتش



١ ــ المحيط العائلى

(والدا اوليانوف ـ لينين وعصرهما)

والد فلاديمير ايليتش هو ايليا نيقولاييفيتش اوليانوف، وقد نشأ من بين فقراء الطبقة الوسطى في مدينة استراخان. ولما كان في السابعة من سنيه فقد اباه. اما معلوماته فقد حصل فضلا عن التعليم الثانوى، على التعليم العالي ايضا، والفضل في ذلك يعود باكمله لاخيه الاكبر فاسيلي نيقولاييفيتش. وكان ايليا نيقولاييفيتش اثناء حياته كثيرا ما يذكر يد اخيه عنده، فقد قام له مقام الوالد، كما كان يتحدث الينا، نحن ابناءه، عن مبلغ دينه لاخيه. وكان يقول لنا ان فاسيلي نيقولاييفيتش نفسه كان شديد الرغبة في التعلم، غير ان الوالد توفى، واصبح الاخ الاكبر، وهو في سن باكرة جدا، معيل العائلة الوحيد، وكانت العائلة تتألف من الوالدة واختين واخ صغير. وتوجب عليه ان يذهب للعمل في اى مكتب شخصي، وان يودع احلامه في الدراسة. لكنه ارتاى انه ما دام هو نفسه لم يستطع ان يتعلم، فليتعلم اذن اخوه. وعندما انهى هذا المدرسة الثانوية ارسله اخوه الى الجامعة في قازان واخذ يمده

بالمساعدة. ولما كان ايليا نيقولاييفيتش قد اعتاد على العمل منذ طفولته فقد اخذ يعطى الدروس من اجل سد حاجاته.

لم يكوّن فاسيلي نيقولاييفيتش أسرة لنفسه، ووقف حياته كلها على امه واختيه واخيه.

مضت سنوات دراسة ايليا نيقولاييفيتش الجامعية في عهد سلطنة نيقولاى الاول القاسية، حين كان وطننا يرزح تحت نير نظام القنانة، وقسم كبير من السكان كانوا اقنانا يستطيع مالكو رقابهم من كبار الملاكين ان يجلدوهم بالسياط وينفوهم الى سيبيريا، ويبيعوهم كالماشية، وان يفرقوا بين الزوجين ويزوجوا وفق مشيئتهم. وكانت جماهير الفلاحين المضطهدة الذليلة غارقة في الجهالة والامية. وكانت راية العصيان ترتفع هنا وهناك ضد الملاكين الاشد عتوا، فترميهم بما اصطلح على تسميته انذاك بـ «الديكة الحمراء» (اى بالحرائق)، غير ان ذلك كله، ولم يكن منظما، كان يقمع بضراوة، ثم تطبق العتمة الدامسة من جديد على القرى ويغشاها القنوط، وكانت الفودكا العزاء الوحيد والملاذ الفريد. ولم يكن ليبقى امام اولئك المتمردين الذين لم يمكن اخضاعهم، الا طريق واحد، هو ان يهربوا الى الفيافى والغابات، فيعيشوا على قطع الطرق.

وهذه احدى الاغاني الشعبية التى شاعت آنئذ:

ذلك العهد الفظيع الذى
لم تعرف الحياة فيه البهجة
حين كان المرء يتوارى هربا
من قريته
ويترك بيته
ويهجر زوجته
ويبحث وراء الفولغا
عن العيش الحر وحيدا.

ولكن النير القاسي الذى كانت ترزح تحته اكثرية السكان، ممن اصطلح على تسميتهم انذاك بالطبقة «الدنيا» لم يدع حتى الافراد الشرفاء والمخلصين في حب وطنهم من رجال الطبقة «العليا» ان يعيشوا في طمأنينة وهناء. وقد اسخط هؤلاء حرمان بلادهم من الحقوق، فاخذوا يرددون اصداء الثورات في اوربا الغربية ويتحدثون عن ضرورة حريات الكلام والصحافة والاجتماع، وعن افضلية المبدأ الانتخابي في الادارة، وتحدثوا قبل كل شيء عن ضرورة الغاء نظام القنانة، وصمة العار التى لم تكن موجودة منذ زمن بعيد فى اى بلد اوربي. فاما الذين ناضلوا ببسالة فائقة فقد هلكوا في سجون الاشغال الشاقة وعلى المشانق (محاكمة الديسمبريين سنة ١٨٢٥ واتباع بتراشيفسكى ١٨٤٨ وغيرهم)، واما الباقون فخلدوا الى السكون، او ركنوا الى زاوية، وساد البلاد من جديد وضع وصفه الشاعر بهذه الابيات:

يخيم حولنا ضباب الفجر

. . . .

والاعصار يحمل فى حشاه الغضب والحقد
فوقك، ايتها البلاد الصبورة
ويحصد كل حى وطيب.

وازداد الظلم شدة على شدة بعد ثورة سنة ١٨٤٨ التى اجتاحت اوربا كلها. وغدا نيقولاى الاول، حارس الحكم المطلق انذاك، دركيا لاوربا كلها، يرسل الجنود الروس لاراقة دمائهم واخماد الثورة في المجر. وكان الحكم المطلق فى ذلك العهد قويا بحيث انه كان

يقدم على البطش بالانتفاضات لا فى بلاده وحدها، بل في البلدان المجاورة كذلك.

وفي الداخل كان الحكم المطلق يقمع اية فكرة حرة بمجرد ظهورها. وقد رزح الطلبة ايضا تحت نير باهظ. ولم يكن باستطاعة الشباب ان يتحدثوا عما يخامرهم، او ينشدوا الاغاني الممنوعة التى وضعها الشاعر ريلييف وغيره، الا فى حلقات ضيقة. وفيما بعد كان ولد ايليا نيقولاييفيتش يسمعونه يغنى هذه الاغاني بعيدا عن المدينة، اثناء النزهات فى الغابات والحقول.

ينبغي للمرء ان يعيش ذلك الزمن العصيب، لكي يحس بذلك الفرج العظيم الذى رافق موت نيقولاى الاول وتسنم ابنه الكسندر الثاني عرش القيصرية، وبدء عهد الاصلاح فى روسيا. فقد تقرر قبل كل شيء الغاء نظام القنانة. وكان الحافز على اتخاذ هذا القرار هو، بالطبع، وفي الدرجة الاولى، ضرورة الحصول على الايدى العاملة الحرة من أجل الرأسمالية الصناعية المتنامية، وحافزه كذلك الاستياء المتعاظم وعصيانات الاقنان. ولم يكن اعتباطا ما قاله الكسندر الثاني حين قال: «ينبغي ان نعجل في اعطاء الحرية من اعلى، قبل ان يأخذها الشعب من اسفل». وكان عتق الفلاحين قفزة كبيرة الى الامام بحيث انه تحول الى عيد عام في البلاد. وقد عبر عن ذلك الشاعر نيكراسوف خير تعبير اذ قال:

اعرف انه بدلا من شباك القنانة
يخترع الناس شباكا اخرى
ولكن التحرر من هذه اسهل على الشعب.
فيا ربة الشعر حيّ الحرية بامل.

وسرعان ما بدأ بطبيعة الحال، عهد اليقظة، وكان اول من قرع الجرس متنبؤنا العظيم تشرنيشيفسكي الذى قضى فى سبيل ذلك حياته في سجون سيبيريا الصماء، كما اخذت تظهر منظمات ثورية للشباب. وانفرج على كل حال بعد طغيان نظام نيقولاى ميدان رحب امام العاملين المسالمين فى حقل التعليم، فاخذوا يعملون فيه بحماسة واندفاع. ثم ان المحاكم الجديدة وحرية الصحافة حرية اوسع نسبيا، واخيرا التعليم العام، كل ذلك اجتذب اليه الاشخاص المتقدمين من ذلك العصر. فقد كان التعليم العام، او ما معناه تنوير اذهان اقنان الامس، يستهوى اليه الكثيرين والكثيرين.

وفى عداد هؤلاء كان ايليا نيقولاييفيتش. فقد التحق بغبطة بوظيفة التفتيش التى اعيد تأسيسها في المدارس الشعبية بمحافظة سيمبيرسك. وكان قبل ذلك معلما في مدرسة ثانوية، وكان تلامذته يحبونه حبا جما. فقد كان يشرح لهم الدروس باهتمام وصبر، ويقابل شيطنتهم بالاغماض، بالاغضاء والصفح، وكان يساعد التلامذة الفقراء على الاستعداد للامتحان دون ان يتقاضى شيئا لقاء ذلك. وكان فى قرارته معلما محبا لعمله. الا انه كان يريد مجالا ارحب للعمل، مجالا لا يتسع للتلامذة المستطيعين كل الاستطاعة وحدهم، بل يتسع كذلك لاشدهم حاجة، لاولئك الذين يتعذر عليهم التحصيل اكثر من الجميع، لاطفال اقنان الامس.

وفي الواقع فقد انفرج هذا المجال على رحبه. كان في محافظة سيمبيرسك عدد قليل جدا من المدارس، ولا حاجة للقول انها من الطراز القديم، وتقع في بنايات قذرة ضيقة، وان المعلمين

كانوا قليلي المعرفة، وكانوا يلقنون دروسهم في الغالب بقوة العصا. فكان يلزم اعادة بناء كل شيء من جديد، كان يلزم اقناع الفلاحين فى الاجتماعات بضرورة بناء مدارس جديدة، والحصول على الاموال من سبل اخرى ايضا، وكان يلزم تنظيم دورات تربوية تدريبية للمعلمين الشباب، واتّباع الطرق الجديدة في التعليم والتربية. كان يلزم القيام بجميع الاعمال، ولكن ايليا نيقولاييفيتش كان فردا في المحافظة كلها. وكانت الطرق في ذلك العهد تزيد العمل صعوبة، فهي غير معبدة ويتعذر اجتيازها من الاوحال او العثرات، ووعرة في الشتاء. وكان يتوجب احيانا ترك البيت لمدة اسابيع او ربما لاشهر، وتناول الطعام والمبيت في اكواخ قذرة في عرض الطريق. ولم تكن صحة ايليا نيقولاييفيتش على ما يرام. الا ان شغفه بالعمل وحرصه الكبير على اداء الواجب ومثابرته قد قهر جميع العوائق. ففى بحر سبعة عشر عاما من نشاط ايليا نيقولاييفيتش ارتفع عدد المدارس فى المحافظة الى اربعمئة وخمسين مدرسة، كما افتتحت دورات تدريبية لتمرين معلمين جدد اطلق عليها اسم «الاوليانوفية».

واتسع الامر، فعين لمساعدته عدد من معاونى المفتشين، واصبح هو نفسه مديرا. فكان عليه في الاغلب ان يتولى ادارة الامور، الا انه بقي كما كان شغيلا غيورا، وبقى كما كان انسانا بسيطا في حياته وفي سلوكه. فكان المعلمون يقصدونه لمجرد التشاور معه، كما كان ينوب في التدريس احيانا عن المعلمين المرضى. وكانت الاسرة الكبيرة وتربية الاولاد تزدردان كل راتبه، وكان ينفق على نفسه النزر القليل، كما كان لا يحب المجتمعات

الكبيرة والملاهى، وفي اوقات الراحة كان يحب التكلم مع الناس الذين يهتمون بهذا العمل، ويحب قضاء اوقات الفراغ بين افراد الاسرة، والاهتمام بشؤون تربية الاطفال، كما كان يحب لعب الشطرنج. وكان شديدا على نفسه والاخرين اثناء العمل، الا انه اثناء الراحة كان مصاحبا جذابا مرحا، يمزح مع الاطفال ويقص عليهم الحكايات والنوادر. وكان عند حديثه ولعبه مع الاطفال (فى الشطرنج والكروكيت) يسلك سلوكا رفاقيا وكان ينصرف مثلهم الى اللعب.

لقد اضطلع ايليا نيقولاييفيتش بعمل جسيم، وتوفى على غير انتظار اثر نزيف دموى في الدماغ، وذلك في الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٨٨٦ عن خمسة وخمسين عاما.

اما والدة فلاديمير ايليتش، ماريا الكسندروفنا، فهى ابنة طبيب كان انسانا متقدما جدا بين ابناء عصره. وقد قضت القسم الاكبر من طفولتها وشبابها في القرية. وكان ما يملك ابوها محدودا جدا، وكانت العائلة كبيرة، وقد تولت تربية الفتاة الشابة عمة صارمة، فاعتادت منذ حداثتها على العمل والقناعة. وقد ربى الاب بناته تربية سبارطية شديدة، فكانت الفتيات يلبسن الصيف والشتاء فسطانين من القماش الرخيص باكمام قصيرة، مفتوحين عند الرقبة، فكن يتعاورن لبسهما. وكان الغذاء بسيطا، وحتى انهن عندما كبرن ايضا لم يتناولن الشاى والقهوة، لان الاب يعتبرهما ضارين. وقد قوت هذه التربية صحة ماريا الكسندروفنا وجعلتها شديدة الجلد. ثم انها تميزت بالاتزان والصلابة. الا انها مع ذلك ظلت مرحة بشوشا. وقد وهبت مواهب حسنة، فتعلمت اللغات الاجنبية والموسيقى وقرأت كثيرا.

وكان بها ولع شديد في دراسة اكثرما يمكن. وقد بقيت طوال حياتها تتذكر باسف وتقول ان انعدام المال لم يجعلها تحقق امنية التعلم.

لم تكن ماريا الكسندروفنا تهتم بالملابس الانيقة، وبالنميمة والثرثرة مما كان فى ذلك العهد يشكل فحوى الحياة النسائية، فحصرت نفسها في الاسرة، وانصرفت بكل جد واهتمام الى تربية الاطفال. فكانت كلما لاحظت نقصا عندهم، اكبت بصبر واصرار على ازالته. ثم انها لم ترفع قط صوتها منتهرة، كما لم تلجأ ولا مرة تقريبا الى معاقبتهم، ومع ذلك استطاعت ان تكسب حب الاطفال وان تجد عندهم اذانا صاغية. وكانت الموسيقى تسليتها المحبوبة، فقد اغرمت بها جدا وكانت تعزفها عزف الهائم بها. وكان الاطفال يحبون النوم على الحانها، كما اصبحوا فيما بعد يعملون ويدرسون على نغماتها.

ولم تكن كذلك بين الوالدين، وقد كانا متحابين جدا، نزاعات او خلافات في مسائل التربية، الامر الذى يترك دائما على الاطفال اثره الضار. كانا عادة يبحثان هذه المسائل على انفراد كلما حصل سوء تفاهم، وكان الاطفال يجدون على الدوام امامهم «جبهة موحدة».

وشعر الاطفال بالحب الخالص، ورأوا ان مصالحهم هي المقدمة على الدوام عند والديهم، فكانوا هم ايضا يقابلون الحب بمثله، وكانت أسرتنا متحابة متماسكة، وتعيش عيشة متواضعة جدا، على راتب الاب وحده، ولم تستطع الام ان تدبر الشؤون الا بمنتهى الاقتصاد، ومع ذلك لم يكن الاولاد في عوز الى اى شيء

مما يحتاجون اليه، كما ان رغباتهم النفسية كانت مطمأنة على قدر الامكان.

وهكذا نرى ان المحيط العائلي وظروف التربية كانت ملائمة جدا لتطوير ذهن الاولاد واخلاقهم. لقد امضى فلاديمير ايليتش واخوته واخواته طفولة نيرة سعيدة.

٢ ـ سنوات طفولة فلاديمير ايليتش وحداثته

ولد فلاديمير ايليتش في سيمبيرسك في ٢٢ من نيسان ١٨٧٠، وهو ثالث وليد في العائلة. كان ينبض حيوية ونشاطا ومرحا، وقد احب الالعاب الصاخبة والركض، وحطم من اللعب اكثر مما لعب بها. وفي الخامسة من عمره تعلم القراءة، ثم علمه احد معلمي الكتاتيب بسيمبيرسك اعدادا لدخوله المدرسة الثانوية. وفي خريف سنة ١٨٧٩، وكان عمره تسع سنوات ونصف السنة، دخل الصف الاول من المدرسة الثانوية.

وتعلم بسهولة، وكان منذ الصفوف الاولى احسن تلميذ، فكان عند الانتقال من صف الى اخر ينال الجوائز الاولى، التى كانت تتألف في ذلك العهد من كتب نقش على جلدها باحرف منهبة كلمات «من اجل الاخلاق الحميدة والنجاحات»، وكذلك من شهادات الثناء. وعدا كفاءاته الرائعة، كان احسن تلميذ جدا واهتماما

قبل الاخير من الصفوف النسائية العليا. ومع ذلك فقد ساعدني على سد احدى النواقص. وذلك انه في ربيع سنة ١٨٨٦ ترتب علي ان اؤدي بعض الامتحانات، منها امتحان اللغة اللاتينية لثلاث سنوات كاملة. وكانت اللاتينية انذاك موضوعا الزاميا في فرع التاريخ واللغات. وكانت هذه اللغة في تلك السنين، سنين هيمنة المعلومات الكلاسيكية، تعلم بصورة شكلية جدا، وكنت اهملها كما كانت تفعل اكثرية الطالبات. وكان الشباب عند انهائهم الدراسة الثانوية يميلون، بطبيعة الحال، الى اقتباس علم اكثر حيوية واقرب الى المجتمع، حتى اني كنت قد نويت ان اترك اللاتينية، وانتمي الى كليات موسكو كمستمع حر. وعندما تركت هذه الخطة، توجب علي ان اعكف على اللاتينية بجد، ثم قررت ان اتوفر عليها اثناء العطلة الشتوية، غير اني لم اوفق في ذلك. وبعد وفاة الوالد (في ١٢ كانون الاول ١٨٨٦) صعبت علي الدروس كل الصعوبة، ولم اتقدم في اللاتينية شيئا. عندئذ عرض علي فولوديا ان يساعدني في ذلك، رغم ان الدروس عنده في الصف قبل الاخير من المدرسة الثانوية لم تكن قليلة، وانه كان لا يزال يدرس المعلم التشوفاشي اخوتنيكوف. وهكذا اخذ الفتى، وهو لما يتجاوز السادسة عشرة من عمره، على عاتقه هذا العبء عن رغبة وطيبة خاطر. وليس ذلك وحسب، فهناك كثيرون مستعدون ليأخذوا، في فورة الشباب، اعباء على عواتقهم، اعباء يلقونها عند اول صعوبة تعترضهم. اما فتانا فقد التزم التدريس بجد ودأب، وكان على استعداد للاستمرار فيه لو لم انتقل انا في اذار الى بطرسبورغ. وقد اضطلع بالدروس باهتمام كبير وبحيوية وبشوق بالغين حتى

اني سرعان ما انجذبت انا نفسي الى «اللاتينية الممجوجة». وكان ينبغي ان انجز برنامجا كبيرا، فاقرأ الكثير واترجم كتاب «يوليوس قيصر» و«حول الشيخوخة» (١)، والاهم انه كان علي ان اعرف واشرح جميع قواعد النحو اللاتيني المعقدة. وقد شعرت طبعا بالمرارة لكوني لم استطع التغلب بنفسي على نقصي هذا، فلجأت الى استمداد المعونة من اخي الاصغر سنا، الذى كان باستطاعته ان يدرس دون اى خلل. وفي البدء كان عندى ولا شك ترسبات من الغرور الزائف عندما اصبحت ادرس تحت ارشاد اخي الاصغر، التلميذ الثانوى. ولكن ما ان ساد النشاط درسنا، حتى امحى شعور النقص سريعا. واني لاتذكر كيف اوقفني فولوديا بشكل جذاب على بعض نواحي الجمال في الاسلوب اللاتيني وخصائصه. وبالطبع، كانت معرفتي باللغات قليلة جدا لا تمكنني من تقديرها، اما الدراسة فقد انحصرت اكثرها في شرح مختلف الاشكال النحوية التى تختص بها اللغة اللاتينية، (كالسوبينوم والغيروندى والغيروندیف)، اى المصدر واسماء الافعال والصفات، والمقاطع والامثال الشعرية القصيرة واشطر الشعر منها الرباعية التالية:

Gutta cavat lapidem	تثقب قطرة الماء الصخرة
Non vi sed saepe cadendo;	لا بقوتها، بل بدأبها
Sic homo sit doctus	وهكذا يغدو الانسان عالما
Non vi sed multo studendo.	لا بقوته، بل بمثابرته فى التعلم.

واتذكر اني ابديت مرة لفولوديا شكي في امكان انجاز الدرس في مثل هذه المدة القصيرة، في حين يقتضي ذلك ثمانية

(١) «حول الشيخوخة» مؤلف وضعه شيشرون.

اعوام في المدرسة الثانوية، الا ان فولوديا طمأنني وقال: «هذا في المدرسة، حيث يجرى التعليم دون ترتيب وفي فوضى، وتضيع على هذا الدرس اللاتيني ثماني سنوات، اما الاشخاص الراشدون الواعون فبامكانهم ان يطووا هذه الاعوام الثمانية في عامين»، واظهرلي بالبرهان انه ينجز هذا الدرس ذاته مع المعلم اخوتنيكوف في سنتين، وبالفعل فقد انجز الدرس بالرغم من ان هذا الاخير كان قليل الاستعداد لتعلم اللغات. وهكذا جرى الدرس عندنا بصورة شيقة جدا وشغف كبير. اجل، لم يكن هذا فولوديا التلميذ الاول العاكف على الدروس والمستغرق فيها، بل هو الشاب الذى اصبح بسرعة عالما لغويا يستطيع ان يتلمس خصائص اللغات ومواطن الجمال فيها.

ولما كنت انا ايضا قد اشربت ذوق علم اللغات، اخذت اتقدم بسرعة كبيرة، واخذت معلوماتى هذه تتقدم، تتخللها ضحكات فولوديا المرحة. وفي الربيع قدمت امتحان السنوات الثلاث بنجاح، ثم بعد سنوات من معرفتي باللاتينية، سهلت هذه علي دراسة اللغة الايطالية التى اعطتني امكانية الحصول على العمل والراتب والمتعة فى نفس الوقت.

وفي سنة ١٨٨٦ حين لم يكن فولوديا قد اكمل سن السادسة عشرة، توفى ابوه ايليا نيقولاييفيتش، وبعد سنة نكبت الاسرة بمصيبة اخرى فادحة. فقد اعتقل اخوه الاكبر الحبيب، الكسندر، لاشتراكه في محاولة اغتيال القيصر الكسندر الثالث، وحكم عليه بالاعدام، ثم اعدم في الثامن من ايار سنة ١٨٨٧. وقد احدثت هذه النكبة اثرا عنيفا في نفس فلاديمير ايليتش، وصهرته، وحملته

على التفكير الجدى في الطرق التى يجب على الثورة ان تسلكها.
كان الكسندر ايليتش واقفا في مفترق الطريق بين اعضاء حزب الارادة الشعبية وبين الماركسيين. فقد كان واقفا على كتاب «رأس المال» لماركس، ومعترفا بالطريق المرسوم فيه لسير التطور، وهذا ما يبدو في البرنامج الحزبى الذى وضعه الكسندر ايليتش بنفسه (١). كما قاد حلقات بين العمال. الا ان التربة فى ذلك الحين لما تكن مهيأة لنشاط الاشتراكية-الديموقراطية. فالعمال كانوا قليلين، وكانوا مبعثرين وغير متطورين. وكان من العسير على المثقفين انذاك ان يتقدموا نحوهم. وفوق ذلك كان طغيان القيصرية على درجة من الشدة بحيث ان اقل محاولة للتماس مع الشعب تؤدى الى السجن والنفي الى سيبيريا. ولا يقتصر الامر على التماس مع الشعب، فقد كان الطلبة الرفاق اذا قاموا بتنظيم اية حلقة مهما يكن غرضها بريئا، ولنقل لاجل القراءة، او للتحدث بعضهم مع بعض، فان الحلقة تفرق، وينفى الطلبة الى مواطنهم. وازاء مثل هذا النظام لا يستطيع احد من الشبان ان يقف موقف عدم المبالاة، الا ان يكون شابا وصوليا او يفكر في العيش الناعم. وكان الناس الشرفاء والمخلصون يقبلون اقبالا متزايدا على النضال، يقبلون ورائدهم، قبل كل شيء، ان يزعزعوا، ولو قليلا، جدران الاستبداد العاتية التى كانوا يختنقون بين حناياها. وكان اكثرهم تقدما انذاك معرضين للموت، ولكن الموت لم يستطع ان يخيف

(١) راجع «الكسندر ايليتش اوليانوف وقضية ١ آذار» — معهد تأريخ الحزب، سنة ١٩٢٧. حنة ايليزاروفا.

اصحاب الشهامة والرجولة. وكان الكسندر ايليتش فى عداد هؤلاء. اذ لم يتردد في ترك الجامعة والعلم الذى كان يحبه (وكانوا ينوون تعيينه استاذا)، عندما أحس انه ليس في وسعه ان يصبر اكثر مما صبر على الطغيان الذى تتعرض له البلاد كلها، ولم يكتف بذاك وانما بذل حياته كذلك. وقد اخذ على عاتقه اعمالا تنطوى على المجازفة، الا وهي اعداد القذائف، وقد اعترف بذلك في المحكمة وحافزه فى ذلك امر واحد، وهو تبرئة رفاقه.

ومات الكسندر ايليتش ميتة الابطال، وكان دمه شعلة نار ثورية متاججة اضائت الطريق لخلفه واخيه فلاديمير.

وقد حلت هذه النكبة تماما في السنة الاخيرة التى انهى بها فولوديا المدرسة الثانوية.

وبالرغم من الالم الموجع الذى استطاع ان يتحمله فولوديا بجلد كبير، فقد انهى المدرسة في هذا العام، كاخته اوليا، محرزا المدالية الذهبية.

وكان طبيعيا ان تتلبد السحب الحالكة فوق سماء الاسرة، منذرة بالخطر كل فرد من افرادها، وان تنعطف الانظار نحو الاخ الثانى وتنظر اليه بكل الارتياب، وكان هناك ايضا خطر عدم السماح له بدخول اية جامعة.

وكان مدير مدرسة سيمبيرسك الثانوية فى ذلك العهد، كرنسكي، يقدر فلاديمير ايليتش كل التقدير، وكانت علاقاته طيبة جدا مع ابيه ايليا نيقولاييفيتش الذى توفى قبل عام مضى، وكان يرغب في مساعدة الطالب الموهوب، على اجتياز هذه العقبة. وهذا هو في الدرجة الاولى سبب شهادة «حسن السلوك» التى

يحملها، والتى ارسلها كرنسكي الى جامعة قازان موقعة بتوقيعه وتوقيع الاعضاء الاخرين في مجلس المعلمين. وكان المرحوم ايليا نيقولاييفيتش شخصية مشتهرة ومحبوبة ومحترمة جدا فى سيمبيرسك، وبنتيجة ذلك كانت أسرته تتمتع بعطف كبير. وكان فلاديمير ايليتش مفخرة المدرسة. وكان كرنسكي على كل الحق في شهادة السلوك هذه. وهو محق كذلك اذ يشير الى ان ذلك لم يكن نتيجة مواهب فلاديمير ايليتش وحسب، بل كذلك نتيجة اجتهاده ومواظبته في تنفيذما يطلب اليه عمله، ونتيجة جبلته وروح الانضباط الواعي التى تتخلل اساس التربية البيتية.

واشار كرنسكي، لغرض ما طبعا، الى ان الدين كان من اركان تلك التربية، كما سعى ليؤكد «انكماش» فلاديمير ايليتش و «اعتزاله الناس»(١). ويتجاوز كرنسكي كذلك الحقيقة بعض الشيء حين يقول: «لم يحدث لاوليانوف ولا مرة واحدة ان اثار، سواء بالفعل او بالقول، خاطرة غير حسنة عن نفسه». فقد كان فلاديمير ايليتش جريئا يحب المزاح، ويلاحظ بدقة النواحي المضحكة في الاشخاص، وكان اخي كثيرا ما يضحك من رفاقه ومن بعض المعلمين. وذات مرة جعل فلاديمير ايليتش معلم اللغة الفرنسية، المدعو بور، هدفا لسخريته.

وكان بور هذا رجلا متصنعا محدود الفكر، وقيل انه طباخ بمهنته، وتوصل بالمداهنة الى التزوج من ابنة احد الملاكين في

---

(١) لم يكن عنده في سنوات الدراسة الثانوية اصدقاء قريبون، ولكن لا يمكن، بالطبع، ان نسميه معتزلا للناس. حنة ايليزاروفا.

سيمبيرسك، والتسلل عن هذا الطريق الى «المجتمعات». وكان لتملقه يحوم على الدوام حول المدير او المفتش. وكان المعلمون الشرفاء يقابلونه بالترفع. واخيرا لم يطق صبرا فاعطى التلميذ السليط لسلوكه هذا علامة اربعة في احد فصول السنة.

ولما كان لخي انذاك في الصف السابع، فقد كان لهذا الحادث اثر خطير. وقد حدثني الاب عن ذلك في شتاء سنة ١٨٨٥ عند ذهابي الى هناك لقضاء العطلة، واضاف قائلا ان فولوديا تعهد بان لا يكرر ذلك فيما بعد.

فلو ان امثال هذه الصغائر كانت قد تأصلت، اذن لما استبعد الطرد من المدرسة، مع ما يترتب على ذلك من اضاعة عمر شاب لا يقبل الانصياع؟! ولكن موقف فلاديمير ايليتش ازاء ابيه وازاء الاسرة كلها، وكذلك مواهبه الفذة، انقذه من مثل هذا المصير.

وعلى اساس هذه الاعتبارات، وكذلك شهادة حسن السلوك التى قدمها كرنسكي، قررت والدتي الا تسمح لفلاديمير ايليتش بالذهاب منفردا الى الجامعة، وان تنتقل الاسرة كلها الى قازان.

وفي اواخر آب سنة ١٨٨٧ استؤجرت في قازان شقة في دار روستوفا بشارع بيرفايا غورا، وبعد شهر انتقل منها فلاديمير ايليتش مع الاسرة كلها الى شارع نوفو - كوميساريياتسكايا، في دار سولوفيوفا.

في تلك السنوات، سنوات الخمود والركود، في الوقت الذى كان فيه حزب «ارادة الشعب» قد حطم والحزب الاشتراكي - الديموقراطي لم يولد بعد في روسيا والجماهير لما تنزل الى حلبة النضال، كان الطلبة هم الفئة الوحيدة التى لم تخمد فيها جذوة

الاستياء مثلما خمدت في سائر فئات المجتمع، بل كانت تلتهب هنا وهناك. كان بينهم على الدوام اناس شرفاء متوقدون، يعلنون سخطهم، ويسعون للنضال. ولذلك كانت الحكومة تقمعهم بكل ضراوتها. وكانت التحريات والاعتقالات والابعاد الى المنافي، موجهة كلها باقوى شكل ضد الطلبة. وفي سنة ١٨٨٧ اشتد الاضطهاد عن ذى قبل نتيجة للمحاولة التى جرت في ربيع تلك السنة في بطرسبورغ لاغتيال القيصر، وكان المشتركون فيها جميعهم تقريبا من الطلبة (١).

وكانت الجامعة مرتعا لذوى البزات العسكرية وبزات المستخدمين المكلفين بالمراقبة والعيون والجواسيس يحصون الانفاس والحركات، وكان الاساتذة الاحرار يطردون، والمنظمات ممنوعة مهما تكن صبغتها حتى وان كانت رابطة لابناء صقع معين، وقد طرد ونفي الكثير من الطلاب الذين سجلت عليهم بعض الملاحظات في الماضي. كل هذا اهاج شعور الطلبة منذ الاشهر الاولى من السنة الدراسية.

وفي شهر تشرين الثاني سرت موجة ما يدعى «بالاضطرابات» الى جميع الجامعات، واندلعت كذلك الى قازان.

---

(١) قدمت قضية ١ اذار سنة ١٨٨٧ امام محكمة من ممثلي فئات الاعيان ومن اليهم. فحكم على خمسة من المتهمين الخمسة عشر بالاعدام شنقا، من بينهم اوليانوف شقيق فلاديمير ايليتش الاكبر. وحكم اثنان بالسجن المؤبد في سجن شليسابورغ. والباقي حكم عليهم بالنفي الي سيبيريا او ساخالين لمدد مختلفة. حنة ايليزاروفا.

ففي الرابع من كانون الاول تجمهر طلبة جامعة قازان وطالبوا وسط الضجيج، بحضور المفتش، ورفضوا الانصراف، فلما حضر هذا الاخير قدموا اليه جملة من المطالب لم تكن مجرد مطالب طلابية محض، بل تضمنت مطالب سياسية ايضا. وقد نقل لي اخي في حينه تفاصيل هذه المقابلة، الا انني لم احتفظ بها في ذاكرتي انما اتذكر حديث والدتي التي ذهبت تلتمس من اجله، فقد قالت ان المفتش قد لاحظ فولوديا ورآه واحدا من اشد المشتركين حماسة في الاجتماع، وواقفا في الصفوف الاولى، وكان غاضبا جدا، ويكاد يشد على قبضتيه. وقد اعتقل فلاديمير ايليتش في البيت في منتصف ليلة الخامس من كانون الاول، واوقف في مركز الشرطة بضعة ايام مع سائر المعتقلين (وعددهم جميعا اربعون شخصا). ثم نفي جميعهم من قازان. وقد تحدث ادوراتسكي عن المحاورة التالية التى نقلها اليه فيما بعد فلاديمير ايليتش والتى دارت بين فلاديمير ايليتش وبين مفوض الشرطة عند اقتياده بعد الاعتقال.

— ما هذا التمرد، ايها الشاب. ان امامكم جدارا.

فاجابه فلاديمير ايليتش دون تأمل قائلا:

— جدار، اجل، لكنه متداع. وتكفيه هزة لينهار.

مضى كل ذلك الوقت بسرعة خارقة. لقد نفوا فلاديمير ايليتش الى قرية كوكوشكينو على بعد ٤٠ كيلومترا من قازان، في ضيعة جده لامه، الكسندر ديميتريفيتش بلانك، حيث كانت تعيش تحت الرقابة في ذلك الوقت اخته حنة (كاتبة هذه السطور) التى كان الحكم عليها بالنفي الي سيبيريا لقضاء خمس سنوات

هناك تحت الرقابة، قد ابدل بناء على التماس الوالدة، بالنفي الى هذه القرية. وكان خمس هذه الضيعة يعود لوالدتي. وكان هناك جناح صغير بارد وغير مريح يقع في واحد من بيتي الخالتين هناك، اتخذته أسرتنا مسكنا لها، (وبعد مضي بعض الوقت انتقلت امنا كذلك مع الصغار الى كوكوشكينو) وكان ذلك في شتاء سنة ١٨٨٧ – ١٨٨٨.

لم يكن بجوارنا احد. وقضينا الشتاء في وحدة تامة. وكانت زيارات ابن عمي النادرة وجولات مفوض الشرطة في المنطقة، المكلف بفحص ما اذا كنت موجودة، وما اذا كنت اقوم بدعاية بين الفلاحين ام لا، هي كل ما جد عندنا من جديد هناك. وكان فلاديمير ايليتش يقرأ كثيرا، فقد كانت في الجناح خزانة وفيها كتب المرحوم عمنا، الذى كان مولعا جدا بقراءة الكتب، وفيها كذلك مجلات قديمة تتضمن مقالات قيمة، وعدا ذلك فقد كنا مكتتبين في مكتبة قازان، ومشتركين في الجرائد. واتذكر كيف كنا نستقبل الرزم الواردة من المدينة كحادث كبير، ونفتح بفارغ صبر، السلال وفيها الكتب والجرائد والرسائل. ثم كنا نعيد هذه السلال كما جاءت، مملوءة بالكتب المعادة التى قراناها وبالرسائل. وتعاودني الان هذه الذكرى. فذات مساء جلسنا جميعا لتحضير الرسائل واعداد البريد الذى كان يجب ان يجمعه في الصباح الباكر خادم خالتنا في السلة المرزومة.

ولفت فلاديمير نظرى وكان كالعادة، لا يكاد يكتب رسالة ما، الا انه في هذه المرة كان مكبا يسطر رسالة كبيرة، وكان بادى الانفعال. وكانت السلة قد عبئت، واضطجعت امنا مع الصغار،

وبقينا انا وفلاديمير على عادتنا نتحدث. فسالته لمن كتب رسالته، فظهر انه كتب لرفيق من رفاق المدرسة، دخل جامعة اخرى من الجامعات الجنوبية، فشرح بالطبع، بحرارة كبيرة، اضطرابات الطلبة في قازان، وساله عما حدث في جامعته.

فاخذت اثبت لاخي عدم جدوى توجيه مثل هذه الرسائل، وشراء مجازفة عقيمة تماما تعود بمضايقات جديدة، يجلبها هو على نفسه بمثل هذه الاعمال. لكن اقناعه كان دائما امرا غيريسير. فاخذ يتخطر في الغرفة جذلا، وكان يعيد علي ببهجة بينة تلك المقاطع القارصة من الكلام الذى وجهه الى المفتش وذوى السلطات الاخرين، وكان يضحك من مخاوفي، ولم يشا ان يغير عزمه. عندئذ اشرت له الى الخطر الذى يعرض له رفيقه بارساله رسالة بمثل هذا المضمون وتحمل عنوانه الخاص، كما اشرت الى ان هذا الرفيق قد يكون هو الاخر ايضا بين المطرودين او المنذرين بالطرد، وان مثل هذه الرسالة تزيد حالته سوءا.

اذ ذاك راجع فولوديا افكاره، ثم سرعان ما وافق على هذه الفكرة الاخيرة، وذهب الى المطبخ، واستل، والاسف باد عليه، من السلة تلك الرسالة النكدة الطالع.

وفيما بعد، في الصيف، سمعت منه، بارتياح، اثناء حديث جرى بيننا وبين ابنة خالتي، قولا قاله بين المزاح والجد، يشكرني فيه على نصيحة اسديتها اليه، وكان ذلك بعد قراءته رسالة اظهرها بعد ان احتفظ بها بضعة اشهر في الجارور واتلفها.

وفي كوكوشكينو انصرف فلاديمير ايليتش، عدا القراءة،

الى تعهد اخيه الصغير، كما كان يتنكب بندقية الصيد ويخرج شتاء على المزالج. وكانت هذه المرة الاولى التى جرب فيها، ان صح القول، استعمال البندقية، الا ان التوفيق لم يحالفه في الصيد خلال الشتاء كله (١). وقد حدث ذلك، كما اعتقد، لانه لم يكن قط صيادا بطبعه، كاخوى الاخرين.

وكانت الحياة تمر طبعا بملال في ذلك البيت الريفي الغارق في الثلوج، ولكن تعود فولوديا على تقوية معلوماته قد ساعده هناك. واني لاتذكر على الاخص ذلك الربيع الاول الصاحي المفاجئ المبكر، وقد حل عقب ذياك الشتاء الذى قضيناه في وحدة وعلى وتيرة واحدة في تلك القرية. واتذكر النزهات الطويلة والاحاديث مع اخي في الحقول المجاورة يرافقنا ضجيج لا ينقطع، يترامى من القبرات المحلقة عاليا في السماء بحيث لا ترى، وقد اطلت الخضرة من بين الثلوج في الحفر...

وفي الصيف قدم ابناء خالاتنا، وقصد الرفاق فولوديا للتنزه والصيد ولعب الشطرنج، وكل هؤلاء كانوا اناسا عديمي الميول الاجتماعية، ولم يستطيعوا ان يكونوا مصاحبين لفلاديمير يثيرون

---

(١) اتذكر هذا واتذكر نكتة جرت بيننا: ففي الصيف التالي رجع مرة من نزهة قام بها مع ابن خالتي، وقال: «اليوم هرب منا ارنب في الطريق»، فقلت له: «يا فلاديمير، انه ولا شك نفس الارنب الذى كنت تتصيده طول الشتاء». حنة ايليزاروفا.

اهتمامه. وهم وان كانوا اكبر سنا من فولوديا، الا انهم كانوا يتحاشون بشدة نكاته اللاذعة ودعاباته الساخرة.

وفي خريف سنة ١٨٨٨ سمح لفلاديمير ايليتش بالعودة الى قازان، واليها انتقلت امنا مع الصغار. وبعد مضي بعض الوقت سمح لي انا ايضا ان اعود الى هناك.

٣ ـ فى قازان

استاجرنا شقة في دار اورلوفا في بيرفايا غورا على مقربة من ساحة ارسكي. وكان للشقة شرفة تطل على بستان جميل المنظر في سفح هضبة. وكان في الطابق الاول لسبب ما، مطبخان، اما الغرف الاخرى ففي الطابق العلوى. فاختار فولوديا لنفسه المطبخ الزائد، لانه كان اهدأ واكثر ملائمة للمطالعة من الغرف العلوية، واحاط نفسه بالكتب، وخصص لها معظم يومه. وهنا بدأ مطالعته للمجلد الاول من «رأس المال» لكارل ماركس.

واتذكر اني عندما كنت اذهب اليه في الامسيات للتسلى في الحديث، كان يتحدث الي بحرارة وحماسة كبيرتين عن اسس نظرية ماركس، وعن تلك الافاق الجديدة التى فتحتها. واني لاتذكره، كما لو كان ذلك الان، وكان يجلس عادة على الموقد المغطى ببعض الجرائد، يتحدث باندفاع مستعينا بيديه وحركاته. وكان ينبثق منه ايمان راسخ يسرى الى محدثه. وقد كانت عنده منذ ذلك الحين قوة الاقناع

والجاذبية بحديثه. وعندما كان يتعلم شيئا ما في ذلك العهد او يجد طرقا جديدة كان في غير مقدوره الا يشاطر ذلك الاخرين، والا يحشد حوله الانصار. وهو سرعان ما وجد في قازان مثل هؤلاء الانصار من الشبان المنصرفين كذلك الى دراسة الماركسية ومن ذوى النزعات الثورية.

وبنتيجة الرقابة الشديدة التى كانت تحيط أسرتنا، كان هؤلاء الاصدقاء يتحاشون زيارتنا ما امكن، وكان فولوديا عادة هو الذى يزورهم في شقاتهم. واني لا اتذكر من اسماء هؤلاء سوى اثنين، احدهما تشيتفيرغوفا وكانت عجوزا ومن اعضاء حزب «ارادة الشعب»، وكان فلاديمير يذكرها بعطف كبير، والاخر طالب لا اتذكر هل كان مطرودا ام لا، اسمه تشيريكوف، وقد اصبح فيما بعد كاتبا روائيا، ثم صد عن طريق الثورة، وفوق ذلك فقد مرق الى معسكر الاعداء. وكان فلاديمير ايليتش لفرط عنايته بوالدته، كثير الحيطة والحذر. لقد تحملت هي نكبة فقدان الشقيق الكسندر، برجولة فائقة اثارت الدهشة والاحترام حتى عند الاشخاص الاخرين. وكم بالاحرى ان نشعر بذلك، نحن، ولدها الذين من اجلهم ولخاطرهم صمدت، وصمدت بقوة ارادة هائلة. قالت لي ناديجدا قسطنطينوفنا ان فلاديمير ايليتش تحدث اليها عن تلك البسالة الخارقة التى قابلت بها امنا فقدان اخي، وبعد ذلك بزمن فقدان الشقيقة اولغا.

لقد كان لوالدتنا علينا منذ الصغر نفوذ عظيم. وساتبسط في الحديث عن هذا في مكان اخر، وساقتصر هنا على الاشارة

الى حادث واحد وقع لنا في قازان. فقد اخذ فولوديا ذات مرة يدخن. فاخذت امنا تقنعه بترك التدخين، حرصا منها على صحته التى لم تكن منذ الصغر والحداثة صحة قوية. ولما نفدت الحجج الخاصة باضرار التدخين على الصحة، وهي حجج قلما يعيرها الشبان اذنا صاغية، اشارت الى تبذيره الدراهم وان كانت قليلة، (فقد كنا انئذ نعيش براتب التقاعد الذى كانت تتقاضاه امنا). اما هو فلم يكن يستلم راتبا، فلا يجوز له التبذير. وقد فعلت هذه الحجة فعلها، وترك فولوديا التدخين الى الابد. وقد حدثتني امي عن هذا الحادث بشعور من الغبطة، واضافت قائلة انها لجات طبعا، الى حجة الانفاق كاخر سهم في الكنانة.

تحدث لي فولوديا عن المباحث التى قرأها في الحلقات، وتحدث بحماسة كبيرة عن بعض الاجتماعات. ومع حلول الربيع كان نشاط الحلقات يزداد كالعادة، ويأخذ فولوديا بالتغيب كثيرا في الامسيات.

لقد كانت في قازان في ذلك العهد عدة حلقات، وهذا ما تبين الان من الابحاث التى جرت حول نشاط الحلقات حينذاك. ولم تستطع تلك الحلقات بحكم العمل السرى ان تتحد او حتى ان تتلاقى. وكان هناك بعض الاعضاء لم يعرفوا شيئا عن وجود حلقات اخرى، واذا عرف بعضهم شيئا منها او افترض وجوده، فهو لم يكن يعرف من هم اعضاؤها. كما انهم لم يسجلوا الالقاب في غير ما ضرورة. وكان في الحلقة المركزية انذاك شاب ثوري نشيط جدا، هو نيقولاى يفغرافوفيتش فيدوسييف الاشتراكي - الديموقراطي الراسخ.

قام فيدوسييف بعد طرده من المدرسة الثانوية، وكان في صفها الاخير، بنشاط ثورى كبير. وكان في المكتبة العائدة للحلقة المركزية كتب سرية وممنوعة، وفي الربيع بدأ العمل لايجاد مطبعة لطبع النشرات المحلية ولاعادة طبع الكتب السرية النادرة. وبلغ فلاديمير ايليتش نبأ هذه المشاريع، غير انه لم يكن عضوا في هذه الحلقة. كما لم يكن يعرف فيدوسييف معرفة شخصية، وانما سمع عنه. وعلى كل فقد تحدث لي عنه، عندما اعتقل فيدوسييف في قازان في تموز سنة ١٨٨٩ وحطمت حلقته والقي القبض على عدد من اعضاء الخلية التى كان فلاديمير ايليتش عضوا فيها، وكان ايليتش بطبيعة الحال معرضا كذلك للتوقيف، لولا ان انقذه انتقال أسرتنا كلها في ايار سنة ١٨٨٩ الى محافظة سامارا. وحطها الرحال في عزبة بقرب قرية الاكاييفكا، ابتاعتها والدتي بمساعدة مارك ايليزاروف (١). وفي خريف هذا العام تزوجت انا من ايليزاروف، فقطنت الاسرة كلها في سامارا.

وهكذا نجا فلاديمير ايليتش لحسن الحظ من واقعة قازان التى مكث فيدوسييف بنتيجتها زهاء سنتين ونصف السنة في السجن، قضى قسما منها في الموقف والقسم الآخر في سجن «كريستي» (وهو الاسم الذى كان يطلق على سجن فيبورغ في بطرسبورغ حيث كان يرسل المحكومون): وانتقالنا الى

---

(١) صديق اخي الكسندر ايليتش في سنوات الدراسة الجامعية. حنة ايليزاروفا.

ساماراً الاكثر هدوءاً، قد اعطى فلاديمير ايليتش امكانية الانصراف بطمأنينة اكبر الى توسيع نظراته الماركسية الى العالم، ثم التحضير لاداء امتحانات الجامعة. كما ان انتقالنا في الصيف الى العزبة ذات المناخ السليم الرائع جداً قد قوى صحته دونما شك.

٤ ـ فى سامارا

سعى فلاديمير ايليتش ليدخل الجامعة من جديد، غير انهم مانعوا في ذلك بعناد، واخيراً سمحوا له، بدلا من ذلك، ان يؤدى الامتحان النهائي في الجامعة، فاكب يحضر مختلف العلوم القضائية، وفي سنة ١٨٩١ قدم الامتحان في جامعة بطرسبورغ. وقد دهش الكثيرون انذاك، اذ كيف يستطيع طالب مطرود من الجامعة لم يتلق اية مساعدة من الخارج، ولم يقدم اية فحوص سنوية او فرعية، ان يستعد خلال سنة مثل هذا الاستعداد الحسن وان يؤدى الامتحان مع طلبة صفه الذى كان ينتمي اليه. ان ما ساعد فلاديمير ايليتش على ذلك هو قابليته الكبيرة للدرس الى جانب كفاءاته الرائعة.

واني لاتذكره ذات صيف، ونحن فى محافظة سامارا، وقد اتخذ لنفسه مكتبا منعزلا في عريش بين ظلال الاشجار الوارفة وغرز في الارض مصطبة ومنضدة. وكان يقصد هذا المكان بعد شاى الصباح مثقلا بالكتب، ومواظبا بدقة على موعده هذا حتى ليخيل للمرء ان في انتظاره معلما صارما، وهناك في هذه العزلة التامة،

كان يقضي الوقت كله، حتى يحين موعد الغداء، حتى الساعة الثالثة.

ولم يكن احد منا يذهب اليه في ذلك العريش، حتى لا نشوش عليه.

وكان ينهي دروسه في ساعات الصباح، ثم يعود بعد الغداء الى ذات المكان المنعزل حاملا الكتب في المواضيع الاجتماعية، واني اتذكر انه قرأ بالالمانية كتاب انجلس «حالة الطبقة العاملة في انجلترا». ثم كان يتنزه بعد ذلك ويستحم، وبعد شاى المساء، كان يحمل المصباح الى سقيفة البيت حتى لا يتطاير البعوض نحو الغرفة، ثم نرى فولوديا من جديد وقد اكب على الكتاب. ولئن كانت هذه الدراسات المتواصلة لم تجعل فلاديمير ايليتش فيما بعد، في السنوات التالية رجلا عبوسا وعث (أرضة) كتب، فهي لم تجعله كذلك في سنوات شبابه. كان في اوقات فراغه، وعند الغداء، وفي النزهات، يمزح ويثرثر كالعادة، ويؤنس الآخرين جميعا، ويجعل عدوى ضحكاته تسرى الى المحيطين به.

وكان يعمل ولا كالآخرين، ويستريح ولا كالآخرين.

كان الشبان من ذوى النزعات الثورية في سامارا، طبعا، اقل منهم في قازان، المدينة الجامعية، ولكنهم كانوا فيها على كل حال. وكان فيها، عدا ذلك، اناس متقدمون في السن من المنفيين السابقين العائدين من سيبيريا، ومن هم تحت المراقبة. وكان هؤلاء جميعهم، بطبيعة الحال، من ذوى الميول الشعبية او

اعضاء في حزب «ارادة الشعب»، وكانت الاشتراكية ـ الديموقراطية بالنسبة لهؤلاء تيارا ثوريا جديدا، اذ كان يتراءى لهم انه لا توجد لها في روسيا التربة الصالحة. ولم يستطيعوا في اصقاع سيبيريا الصماء ومجاهلها ان يتابعوا تلك التغيرات الاجتماعية الحادثة في مجرى تطور بلادنا، التغيرات التى حدثت في غيابهم في المراكز الكبرى. كما كان يوجد فى المراكز الكبرى عدد قليل من ممثلي الاتجاه الاشتراكي ـ الديموقراطي، الذى وضعت اساسه جماعة «تحرير العمل» في خارج البلاد منذ سنة ١٨٨٣، وكان معظمهم من الشبان.

وكان هذا الاتجاه يبحث عن طريق له. وكان للشعبيون لا يزالون هم اعمدة الافكار الاجتماعية، منهم فورونتسوف (ف. ف.) ويوجاكوف وكريفينكو، اما العقل المسيطر فكان الناقد والكاتب الاجتماعي ميخايلوفسكي الذى كانت له في السابق روابط وثيقة مع حزب «ارادة الشعب». وقد شن هذا الاخير، في سنة ١٨٩٤، كما هو معروف، نضالا علنيا على الاشتراكيين ـ الديموقراطيين في مجلة «روسكويه بوغاتستفو» («الثروة الروسية») التي كانت انذاك اكثر المجلات تقدما. ولمكافحة هذه النظرات المقامة المعلنة كان يقتضي التسلح، قبل كل شيء، بالمعارف النظرية، بدراسة ماركس، وكذلك بدراسة المواد الخاصة بتطبيق هذه المعارف على الواقع في روسيا، اى دراسة الابحاث الاحصائية عن تطور صناعتنا وزراعتنا وما الى ذلك. ولم يكن يوجد هناك تقريبا مؤلف يجمل مثل هذا الدرس. وكان ينبغي دراسة المصادر الاولية، واستنباط النتائج على اساسها. وفي سامارا

اخذ فلاديمير ايليتش على نفسه انجاز هذا العمل الكبير الواسع.

واكب بجد على دراسة جميع مؤلفات ماركس وانجلس (ولم يكن بعضها انذاك، مثل كتاب «فقر الفلسفة»، موجودا الا باللغات الاجنبية) كما طالع جميع مؤلفات الشعبيين واخذ يمحصها ويبين امكانية نفوذ الاشتراكية-الديموقراطية في روسيا مستندا الى الابحاث الاحصائية. وقد اظهرت لنا المعلومات الجديدة التى جمعها قسم معهد تاريخ الحزب في سامارا، العدد الكبير من الكتب الذى استعاره فلاديمير ايليتش لهذه المسائل من المكتبة العامة. وكان يطالعها ويدرسها ويكتب البحوث فيما يقرأه. واحد هذه البحوث التى ضمنها دفترا ضخما، هو مؤلفه حول كتاب بوستنيكوف، «مزارع الفلاحين في روسيا الجنوبية»، واسم المؤلف «التغيرات الاقتصادية الجديدة في حياة الفلاحين» (١).

فمن المعروف، انه اخذ يتطور في جنوب روسيا الاقتصاد الرأسمالي الضخم فى الزراعة قبل المناطق المركزية والشمالية، وقد ظهرت فيها الاستثمارات الزراعية الضخمة مع عدد كبير من العمال الزراعيين الاجراء الذين لا يملكون ارضا. ولذلك كانت حالة الزراعة في جنوب روسيا تجلب اهتماما خاصا من وجهة نظر الاتجاه الذى سيتطور فيه ويسلكه اقتصادنا. وكان بوستنيكوف بطبيعة الحال، بعيدا عن وجهة النظر الثورية، اما فلاديمير ايليتش

---

(١) وقد نشر في المجلد الاول من مجموعة مؤلفات لينين. حنة ايليزاروفا.

فقد ترك جانبا ارشاداته حول مختلف الاصلاحات، واخذ منه المادة الموضوعية، واستنبط استنتاجاته منها.

وكان فلاديمير ايليتش يتلو في حلقات الشبان المحلية هذا المبحث وكذلك بواكير مباحثه الاخرى في دراسة الماركسية (منها مثلا خلاصة موجزة لكتاب «فقر الفلسفة» وكتاباته ضد الشعبيين: ف. ف. (فورونتسوف) و يوجاكوف. وفي سامارا تعرف فلاديمير ايليتش قبل الآخرين بفاديم اندرييفيتش يونوف صديق زوجي مارك تيموفييفيتش ايليزاروف. وكان يونوف اكبر سنا من فلاديمير ايليتش، وكان يدافع عن وجهة نظر حزب «ارادة الشعب». ومع ذلك، فقد كان في الوقت نفسه ابرز شخص بين شبيبة سامارا وكان يتمتع بنفوذ. وجذبه فلاديمير ايليتش الى جانبه بالتدريج. وسرعان ان اصبح معنا ترب فلاديمير ايليتش، الكسي بافلوفيتش سكلارينكو (بوبوف)، الذى كان قد طرد من ثانوية سامارا وقضى في «كريستي» مدة سجنه التى حكم بها في محاكمته الاولى. والتف حول سكلارينكو الشبان من المدارس الدينية وطالبات مدرسة المضمدين. وكان فلاديمير ايليتش يخطب في هذه الحلقة، وكذلك في حلقات الشعبيين التى كانت تجرى فيها مناقشات حادة. كما كانت تقع منازعات كثيرة كذلك عند المقابلة مع الاعضاء القدماء من حزب «ارادة الشعب» ومحادثتهم. ومن بين هؤلاء كان فلاديمير ايليتش غالبا ما يتقابل مع الكسندر ايفانوفيتش ليفانوف الذى كان فلاديمير ايليتش يقدر جدا حماسته الثورية.

وكان فلاديمير ايليتش ممن يستطيعون ان يأخذوا من كل شيء احسنه، فهو لم يكن يجادل ليفانوف، وغيره من اعضاء حزب «ارادة الشعب»، في ارائهم وحسب، بل كان ايضا يأخذ عنهم خبرتهم الثورية، كان يصغي باهتمام الى احاديثهم عن اساليب النضال الثورى، وطرق العمل السرى، وظروف المكث في السجن، واقامة الصلات هناك، وكان يستوعب في ذاكرته هذه الاحاديث، كما كان يستمع الى احاديثهم عن محاكمات الشعبيين واعضاء حزب «ارادة الشعب». وقد عرف عن الكسندر ايفانوفيتش انه دقيق ومهذب وانه لم تكن فيه شوائب التكبر والرعونة التى كانت من خصائص الكثيرين من الشيوخ. فقد تراءى لمعظم من جادلهم فلاديمير ايليتش ان جراته الكبيرة وعدم مهادنته ليسا الا من نزق الشباب والاعتداد الفائق بالنفس. وفي سنوات الاقامة في ساماراء، وفيما بعد، لم يسمح له بشن هجمات عنيفة على اقطاب الرأى العام المعترف بهم، من نظائر ميخايلوفسكي و ف. ف.، وكاربيف وغيرهم. وفي خلال فصول الشتاء الاربعة التى قضاها فلاديمير ايليتش في ساماراء، كانت الفئات الاكثر وقارا في المجتمع المتقدم تنظر اليه كشخص كفء جدا، غير انه شاب حاد الطبع ومعتمد جد الاعتماد على النفس. اللهم الا في حلقات الشبان الذين اصبحوا في المستقبل اشتراكيين - ديموقراطيين، فقد كان يتمتع باحترامهم غير المحدود. وكانت مباحث فلاديمير ايليتش عن مؤلفات ف. ف.، ويوجاكوف وميخايلوفسكي تؤلف ثلاثة دفاتر، وقد تليت في حلقات ساماراء، ثم نقحت فيما بعد، واصبحت تسمى «ما هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون

الاشتراكيين ـ الديموقراطيين؟» واحد هذه الدفاتر لم يعثر عليه حتى الآن، اما الدفتران الآخران فقد طبعا في مجموعة مؤلفاته، وقد اشير بحق الى انهما يضمان في دفتيهما جميع الاسس الرئيسية للنظرات التى طورها هو فيما بعد، اى اسس اللينينية.

ولكن فلاديمير ايليتش لم يقتصر في سامارا على اجتياز المدرسة النظرية. فالحياة في هذه المنطقة النموذجية للفلاحين الروس قد اغنته بمعرفة وفهم لهذه الفئة من المجتمع جعلتانا فيما بعد في عجب وحيرة. فسواء في صوغ القسم الزراعي من برنامجنا، او في جميع النضال الذى سبق الثورة، او كذلك في بناء حزبنا بعد الانتصار، كان لهذه المعرفة دور عظيم. وقد استطاع فلاديمير ايليتش ان يكمل تطبيق هذه المعرفة مستفيدا من كل شيء.

وكان سكلارينكو كاتبا عند حاكم الناحية ساموبلوف وهو شخص متقدم ذو مبدأ. وكان يتأتى عليه ان يذهب مع رئيسه لشؤون التحقيق في القرى، وان يستقبل الفلاحين القادمين الى المدينة للشكوى، وهكذا كان يقف على انباء قيمة عن احوال الفلاحين في المنطقة. وكان يوقف فلاديمير ايليتش على هذه الانباء. وكان فلاديمير ايليتش يتحدث مع ساموبلوف نفسه ومع سائر المعارف الذين كانت لهم صلات عديدة بالفلاحين. الا انه استقى معظم معلوماته من احاديث مارك تيموفييفيتش ايليزاروف الناشىء بين فلاحي محافظة سامارا والذى كان يحتفظ برابطة وثيقة مع ابناء قريته. كما كان يتحدث مع اخي مارك تيموفييفيتش الاكبر، بافل تيموفييفيتش. فقد كان هذا، حسب اصطلاحهم، فلاحا

«مرفها»، اذ كان يثرى من التزام الاراضي القيصرية المجاورة وايجارها للفلاحين. وكانت له اتم الشهرة في القرية فكان ينتخب على الدوام في مجلس الزمستفو المحلي. وكان كجميع الاشخاص من هذا الطراز، ينزع الى جمع المال والانصراف الى التجارة، وهو ما وفق اليه فيما بعد. واتذكر اني اعترتني الدهشة، اذ رايت باىّ اهتمام استطاع فلاديمير، لمدة طويلة، ان يتحدث مع هذا الكولاك شبه الامي، البعيد كل البعد عن اية مثالية، ولكنني فيما بعد فقط، عرفت انه انتزع منه المعلومات عن حالة الفلاحين، وعن التجزؤ الحادث بينهم، وعن اراء ونزعات هذه الفئة الاقتصادية العليا في القرية. وكان دائما يضحك، بشكل مثير للضحك، من بعض احاديث التاجر، وكان هذا مرتاحا كل الارتياح للاهتمام الذى يبديه نحوه فلاديمير ايليتش، وكان يتملكه احترام كبير لسعة عقله. غير انه لم يستطع ان يفهم ان فلاديمير انما يضحك في الغالب، لا من معاملات التاجر في القرية او كيف انه ينجزها بحذق وشطارة، بل من الشعبيين، ومن ايمانهم الساذج بثبات حياة الفلاحين، اومتانة المشاعية.

وفي هذه المحادثات ظهرت مقدرة ايليتش الخاصة في التحدث مع اى معشر كان، وانتزاع ما هو بحاجة اليه من كل انسان، ومقدرته في عدم الابتعاد عن الواقع، وعدم الانجراف وراء النظريات، بل لقد كان يتبصر بدقة في الحياة المحيطة به، ويصغي بتمعن الى نبضاتها. وفي مقدرته هذه كان يتتبع بثبات نظرية معينة، وكان في ذات الوقت يأخذ بنظر الاعتبار الدقيق كل خصائص الحياة المتموجة والنابضة حواليه على الدوام، وكل

تغيراتها، دون ان يغيب عن انظاره، لحظة، اتجاهه المبدئي العام، ولا ان ينفصل لحظة عن صعيده الروسي الذى بقي راسخا فوقه. وفي ذلك، كما تبين اكثر من مرة، مصدر قوى ايليتش الرئيسية واهميته. غير ان هذا المصدر لم يلاحظ تقريبا في سنوات حداثته عندما كان يندفع في التفكه والتندر، ويطلق الضحك من بال خال. وهو لم يتحدث قط احاديث الكتب، ولم يفرض نظريته على احد، وفي ساعات الفراغ كان رفيقا مرحا لا يعرف المكر، ولكن كان باستطاعته في ساعات الفراغ هذه ان يستفيد، بتمعن، من الحياة المحيطة به وان يستخلص منها كل ما هو قيم، وما هو بحاجة اليه في طريقه وفي المهام التى تواجه حياته.

وقد اهتم فلاديمير ايليتش كثيرا ايضا بتماسه المباشر مع الفلاحين في قرية الاكاييفكا حيث قضى خمسة مواسم صيفية متتالية استغرق كل منها ٣ـ٤ اشهر في العام، وكذلك في قرية بيستوجيفكا التى سافر اليها مع مارك تيموفييفيتش حيث نزلا في ضيافة اقارب الاخير. وكان ايليتش، في احاديثه مع الفلاحين عن حالتهم العامة، يسعى ليأخذ منهم اكثر مما يتحدث هو اليهم، وعلى كل فهو لم يتحدث اليهم عن معتقداته، وليس السبب في ذلك هو انه كان تحت المراقبة فحسب، كلا، فقد عرف ان الفلاحين لا يدركون الثورة والاشتراكية ادراكا مباشرا، وان الحديث عن ذلك ينبغي ان يجرى مع فئة اخرى، هي فئة العمال الصناعيين، فكان يدخر قواه لهؤلاء. وكان ينفر من العبارات. وقد عرف من احاديثه مع الفلاحين في ذلك العهد انها غير ذات جدوى.

وهكذا في تلك المدينة من مدن الاقاليم، وفي سكون القرية

المنعزلة، تطور لينين بصورة غير ملحوظة، ونما الرجل الذى وضع اسس الحزب الشيوعي (البولشفي) في الاتحاد السوفييتي، وقاده نحو الانتصار، وبعد الانتصار نحو الانشاء وفق هذه الاسس.

لم تكن السنوات التى قضاها في سامارا والسنة التى سبقتها في قازان، الا تمهيدا لعمله الذى اتسع فيما بعد ذلك الاتساع. غير ان هذه السنوات كانت عدا ذلك اكثر السنين اهمية في حياة فلاديمير ايليتش، ففي بحر هذا الزمن رسخت سماته الثورية واتخذت شكلها النهائي.

٥ ـ بدء النشاط الثورى لفلاديمير ايليتش اوليانوف (ن. لينين)

١ ــ من سامارا الى بطرسبورغ

في خريف سنة ١٨٩٣ انتقل فلاديمير ايليتش من سامارا الى بطرسبورغ لغرض الانصراف الى النشاط الثورى. وكان قد قدم الامتحانات النهائية في الجامعة منذ سنة ١٨٩١. فقد كانت سامارا اضيق من ان تكون مجالا لنشاطه، كما انها اعطته القليل جدا من الغذاء الفكرى. وقد حصل على ما

استطاع الحصول عليه من دراسة النظريات الماركسية في سامارا.

فلماذا اذن لم يسافر في خريف سنة ١٨٩٢ عندما سبق له وانجز الدراسة الجامعية، ولماذا استقر سنة اخرى فى سامارا؟

بوسعي ان اجيب على هذا السؤال فاقول انه استقر هناك من اجل امه.

لقد قلت قبلا في حديثي عن سنوات طفولته وحداثته انه كان لامنا عليه وكذلك علينا جميعا نفوذ كبير وكانت تتمتع بحبنا الحار. وان رباطة الجاش التى ابدتها في احتمال الفاجعة الاليمة قد ادهشت كل من عرفها، وكان حريا ان يشعر بذلك بنوها. لقد كان المصاب بفقد الاخ الاكبر فادحا كل الفداحة، ومع كل ذلك فانه لم يحطمها، وقد اظهرت قوة ارادة كبيرة لكيما تكتم قدر الامكان دموعها والامها، وكانت تعنى كالسابق، واكثر من السابق ببنيها، فقد توجب عليها بعد وفاة زوجها ان تعنى بهم وحدها.

وقد سعت جهد الامكان كي لا تجعل حياتهم الغضة تتعكر، ولتمكنهم من بناء مستقبلهم وسعادتهم... كما انها فهمت نزعاتهم الثورية.

وكان حدبها هذا الذى اظهرته على ابنائها مدعاة للاعجاب، ومثلا رائعا ضربته لهم، حتى انهم اخذوا يسعون، اكثر من السابق، في تحسين حياتها، وتخفيف همومها. ولكن في السنة التى انهى فيها فلاديمير ايليتش الجامعة داهمت العائلة

مصيبة جديدة. ففي بطرسبورغ توفيت اخته اولغا من جراء حمى التيفوس. وكان فلاديمير ايليتش فى ذلك الوقت بالذات، في الربيع، قد سافر لاداء النصف الاول من امتحاناته. وتوجب عليه ان ينقل شقيقته الى مستشفى (كان لسوء الحظ مستشفى رديئا جدا)، وعندما ساءت حالتها استدعي امه برقيا. وكان فلاديمير ايليتش وحيدا مع امه في تلك الايام الفاجعة الاولى، اشد الايام وقعا. ثم رافقها عائدا الى البيت في سامارا. وقد رأى كيف انها ازاء هذه الضربة الجديدة اظهرت بسالتها ودقة تصرفها ازاء الآخرين قبل كل شيء.

وبطبيعة الحال كانت الام، في محاولتها التغلب على مصابها، تعانى الما مبرحا. فقد كانت اولغا فتاة رائعة ذات كفاءات بينة ونشاط كبير.

فقد انتقلت فى خريف ١٨٩٠ الى بطرسبورغ للتخرج من الصفوف النسائية العليا. ولم تكن في قازان، ولا في سامارا، مدرسة نسائية عليا، وكانت هي تتحرق شوقا الى الدراسة. وقد برزت فى هذه الصفوف منذ السنة الاولى وامتازت بمعارفها وقابليتها للدرس، وقد تحدثت رفيقاتها نيفزوروفا-كرجيجانوفسكايا وتورغونسكايا، والفقيدة ياكوبوفا، عنها انها كانت فتاة بارزة احتلت فى الصفوف مكانا مرموقا. وكانت رفيقاتها يلجأن اليها في المسائل غير الواضحة وغير المفهومة، فكانت رغم مرضها تجهد نفسها وتشرح لهن مسائل الكيمياء وغيرها من المواضيع تمهيدا للامتحانات. وتبحث كذلك عن السبل لاداء الاعمال الاجتماعية،

ولا شك فى انها لو عاشت لغدت ثورية متفانية مشهورة. وبعد فقدها كانت السلوى الوحيدة التى خففت عن امنا بعض آلامها هي وجود سائر ابنائها بقربها، وهكذا بقي فولوديا سنة اخرى في البيت في سامارا.

الا انه عند نهاية هذا الشتاء الاخير اخذ الضجر يتملكه احيانا، وكان يريد الذهاب الى مكان زاخر بالحركة، يكون ميدانا للنشاط الثورى، بينما كانت سامارا في تلك السنين اشبه بمحطة بين سيبيريا، المنفى الحقيقي، وبين مراكز الحياة الفكرية، ونعني العاصمتين والمدن الجامعية.

لقد بقي في ذاكرتي حديث جرى مع فلاديمير عن قصة جديدة لانطون تشيخوف نشرت ذلك الشتاء في احدى المجلات، هي قصة «الردهة رقم ٦». وكان فولوديا يحب تشيخوف، وقد تحدث عن الالمعية التى كتبت بها القصة، وعن الاثر القوى الذى تركته فيه، وقد عبر عن هذا الاثر احسن تعبير بالكلمات التالية: « عندما قرأت مساء امس هذه القصة، تملكني في الحال الفزع، فلم استطع البقاء في غرفتي، فنهضت وخرجت منها. وقد خامرني مثل هذا الاحساس تماما، وهو انني انا ايضا محجوز في الردهة رقم ٦». وقد جرى له هذا الحادث في ساعة متأخرة من تلك الامسية، وكان الجميع قد ذهبوا الى مضاجعهم او ناموا. فلم يبق من يتبادل واياهم الحديث.

لقد كشفت لي كلمات فولوديا هذه الستار عن حالته الروحية، فقد اصبحت سامارا بالنسبة اليه مثل «الردهة رقم ٦»،

وقد ثار عليها، تقريبا، كثورة مريض تشيخوف الشقي. فقرر بحزم ان يرحل عنها في الخريف القادم. ولكنه لم يستقر في موسكو حيث توجهت عائلتنا كلها مع اخي الاصغر ميتيا لدخول جامعة موسكو. وقرر ان يسكن فى بطرسبورغ، اشد المراكز الثورية حركة. فقد كانت موسكو تدعى، على حد تعبير اهالي بطرسبورغ انذاك، قرية كبيرة، وكان لا يزال فيها في تلك السنوات الكثيرمن اثار الريف، اما فلاديمير فقد مل وسئم الريف. اجل، وكان يظهر ان عزمه على ايجاد الروابط مع العمال، والانصراف كليا الى النشاط الثورى، اضطره كذلك الى ان يفضل السكنى منفردا، لا في الاسرة، حتى لا يعرض بقية افرادها للشبهة.

وفي اواخر الخريف، بعد ان اقمنا في موسكو، سافرنا نحن مع امنا الى بطرسبورغ لزيارة فلاديمير. وكان في نية الام من هذه السفرة ان تبتاع له معطفا شتويا. فقد كان فلاديمير دائما مهملا جدا فيما يخص حوائجه، وكان لا يستطيع ولا يحب ان يبتاع شيئا ايا كان، وفيما بعد كانت الام هي التى تتولى عادة هذه المهمة او انا. وبهذه الخصلة كان يشابه تماما اباه الذى كانت امنا هي التي توصى على الدوام بخياطة بدلاته، وتختار قماشها، والذى كان، كفولوديا، عديم الاهتمام جدا بحاجياته، ولم يعتد ابدا ان يبدى مبادرة في هذا الخصوص، او قل انه لم يستطع ذلك. وكان فولوديا في هذا الامر، وكذلك في امور كثيرة اخرى، سر ابيه.

٢ـ معارف جدد وصلات جديدة

اخذ فلاديمير ايليتش عند قدومه الى بطرسبورغ يتعرف بالناس قليلا وبحيطة، فقد عرف ان الحكومة تنظر اليه بحذر نظرتها الى اخيه الكسندر ايليتش، ورأى كيف ان الشبان غالبا ما يلاحقون بسبب كلمات يقولونها بغير تحفظ، دون ان يكونوا قد فعلوا شيئا. وقد كان هو بريئا من اية ثرثرة او القاء عبارات. كان يريد ان ينقل معرفته ويقوم بنشاطه بين تلك الفئة التى عرف هو انها هي التى تقوم بالثورة، بين فئة العمال. وكان يبحث عن افراد يشاطرونه اراءه، ويعتقدون ان الثورة لا يجوز ان نتوقع تحقيقها على يد الفلاحين، الذين يزعم انهم ذوونزعة اشتراكية، او يدعى انهم يعتنقون عقائد وعادات اسلافهم الشيوعية، ولا على يد المثقفين ذوى الايثار، والمستعدين للذهاب لمواجهة الموت فرادى. كان يبحث عن اولئك الاشخاص الذين عرفوا مثله، عن ثقة، ان الثورة في روسيا اما ان تضطلع بها الطبقة العاملة، او انها لن تكون ابدا (كلمات بليخانوف). ومثل هؤلاء الاشخاص، أعنى الاشتراكيين ـ الديموقراطيين كانوا انذاك قلة. وكانت اكثرية الافراد ذوى النزعات الثورية والمتعلمين تؤيد الاراء الشعبية وحزب «ارادة الشعب»، الذى كان قد حطم ولم يبق حزبا يقوم باى نشاط. والنشاط القليل الذى كان يظهره كان في معظمه اقاويل وضوضاء. وقد سعى فلاديمير ايليتش ليقف بعيدا عن ثرثرة المثقفين هذه. وفي ذلك الاوان كانت الشرطة والسلطات تعتبر كذلك اعضاء حزب «ارادة الشعب»

اكثر خطراء اذ كانوا يلجأون الى العنف، حاملين الموت الى الآخرين، مجازفين في ذلك حتى بحياتهم. وازاء هؤلاء وضع الاشتراكيون - الديموقراطيون نصب اعينهم القيام بدعاية سلمية بين العمال، فكان خطرهم يبدو قليلا. فقد قال عنهم مدير الشرطة زفوليانسكي: «انهم فئة ضئيلة العدد، وقد يكون لهم شأن بعد خمسين سنة».

وبمثل هذه النظرة كان ينظر كذلك، في اوساط المجتمع، الى الاشتراكيين - الديموقراطيين. ولم يكن ينتظر غير ذلك من الفئات الواسعة، ما دام الزعيم الفكرى في ذلك العهد، ميخايلوفسكي، لم يفهم اراء ماركس لدرجة انه لم يلتفت الى اهميتها الثورية، او انه كان يطمسها! ولم يكن هناك احد تقريبا قد قرأ ماركس. وكل ما كان يعرف عن الاشتراكيين - الديموقراطيين، هو، قبل كل شيء، نشاطهم البرلماني العلني في المانيا. اما في روسيا فلم يكن انئذ للبرلمان اثر. ولذلك كان يتراءى للشبان عديمي الاناة والنازعين نحو النشاط الثورى، ان الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس انما يختارون لانفسهم سبيلا مطمئنة، اى انهم يقرأون ماركس احيانا، وينتظرون متى يبزغ فجر الحرية على روسيا. وكان يخيل اليهم ان موضوعية ماركس ستار لذلك الخمول لا اكثر، الذى هو في احسن الحالات عبارة عن الذهنية القديمة، و في اسوأ الحالات المصالح الانانية. هكذا كان ينظر الثوريون القدماء، العائدون من المعتقلات والمنافي، ممن لهم نفوذ بين الشبيبة، الى تلامذة ماركس الروسيين. كان شبابهم، جياشا مضطرما باحاسيس التهور في النضال ضد جُبروت الحكم المطلق، فكانوا،

وهم يندسون بين الشعب، يرمون كتبهم ويبصقون على الشهادات... وكانوا ينظرون، بأسف، وعدم فهم، الى الشبان الجدد غير النزقين ذوى الاتزان، الذين رأوا من الممكن ان يحيطوا انفسهم بالمجلدات الضخمة من الكتب العلمية، في ذات الوقت الذى لم يحدث فيه اى تبدل في ظروف الحكم المطلق، واما حالة الشعب فكانت محزنة كالسابق. وكانوا يرون في ذلك بعض الجمود. وكانوا على استعداد كذلك لمخاطبة هؤلاء الشبان بكلمات نكراسوف:

لا يمكن للمواطن ذى الكرامة ان يكون
عديم الاكتراث بوطنه.
فهذه الصفة سبة كبيرة له.

ان لكل عهد متطلباته، ويحدث عادة ان يفهم ممثلو الجيل القديم فهما سيئا مثل ونزعات الشبان الذين يأخذون في التفكير فى ظروف التبدلات الاجتماعية الحاصلة. فلئن كانت الظروف السياسية باقية في روسيا كالسابق، فان الظروف الاقتصادية كانت قد بدأت تتغير بشدة، ذلك ان الرأسمالية كانت تستولي اكثر فاكثر على الميادين، وان سير التطور كان يجرى عندنا، دون اى شك، سيره في الغرب، وان قائد الثورة عندنا، كما هو عندهم، سيكون البروليتاريا. اما انصار النظرات الشعبية القديمة الذين لم يفهموا ان القضية ليست في عدم مبالاة احد او سوء نية آخر وان طبيعة التطور هذا لا يمكن لاى تهور متفان ان يغير فيه شيئا، فقد خيل لهم ان الماركسيين يسيرون

على العمياء في اثر الغرب، وانهم يريدون ان يحولوا كل فلاح روسي الى عامل مصنع. وكانوا يعتقدون ان الفلاحين هم حملة الاراء الشيوعية التى يستطيعون بها ان يتحاشوا طريق الرأسمالية الشاق، الذى يحمل للشعب، خاصة في المرحلة الاولى من الرأسمالية، نكبات والاما لا تحصى. فكان ف. ف. (فورونتسوف) ويوجاكوف وغيرهما من الشعبيين يرددون على السنتهم قائلين: «الافضل بدون رأسمالية»، وكانوا يسعون لايجاد البراهين على ان هذا «الافضل» امر ممكن. وكانوا يحقدون على الماركسيين حقد رجل مريض يحتاج الى عملية جراحية ولكنه لا يفهم ضرورة اجرائها فيحقد على برودة وجفوة الطبيب الذى يكشف بهدوء للمريض جميع ما يرافق العملية من الام، ولا يسعى لتحاشي العملية الذى هو «افضل» عند المريض.

وكان فلاديمير ايليتش يسخر من هذه العبارة الطيبة «الافضل بدون رأسمالية» سخرية لاذعة سواء باحاديثه الشفوية في ذلك العهد، او في اولى مؤلفاته، التى وقفها في الدرجة الاولى على نقد الشعبية، واني اعود بالقارىء الى مؤلفاته التى ذكرناها، ونعني «ما هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين ـ الديموقراطيين؟» المجموعة التى تعرف اراء ايليتش في ذلك العهد احسن تعريف، والتى طبعت انذاك في كراسات على الرونيو وتناولتها ايدى الشبان حتى تهرأت.

وقبل ذلك اى قبل ظهور هذه الكراسات، خطب فلاديمير ايليتش في شتاء سنة ١٨٩٣ في موسكو وحمل على الشعبيين. وكان ذلك في عطلة عيد الميلاد، عندما جاء ليقضيها عندنا.

وكانت حفلات العيد تقام عادة في الامسيات. فتكلم فلاديمير ايليتش ضد الشعبيين في احدى هذه الامسيات في شقة للطلبة. وترتب عليه هنا ان يتجادل مع كاتب الشعبيين المعروف ف. ف. (فورونتسوف). ولم يكن فلاديمير ايليتش قد تعرف قبل ذلك شخصيا به، فلم يعرف مع من يجرى الجدال، وفيما بعد ابدى كدره من صاحبته (١) التى جاءت به الى هذه الحفلة، بسبب انها لم تخبره من هو خصمه. ولقد تكلم معه بجرأته المعهودة، وقارعه بجميع اسلحة معرفته، وبكل ايمانه القوى. وقد بدا لانصار الخصم ان جرأة الشاب المجهول كانت تفوق الحد، اما الشبان ذوو النزعات الماركسية فقد سروا جميعهم سرورا بالغا لهذا المدد غير المنتظر الذى جاءهم، واسفوا لمغادرة الشاب المجهول السريعة لذلك الحفل في اثر النقاش مع ف. ف. اما فلاديمير ايليتش فقد لام نفسه فيما بعد، لان تظاهر ف. ف. كرجل مسموع الكلمة اثناء الادلاء بارائه البالية جعله يتحدث بشكل يتنافى والعمل السرى. ومضت السهرة بخير، ففي ايام العيد كان افراد شرطة موسكو انفسهم منصرفين الى حفلاتهم، ولم يعرف احد انذاك اسم ايليتش، وكانوا يسمونه «البطرسبورغي». وكان لخطابه اهمية كبيرة عند شبيبة موسكو، فقد شرح للشبان الماركسيين الشيء الكثير، وكان سندا لهم يدفعهم للتقدم الى الامام.

---

(١) ياسنيفا - غولوبيفا. حنة ايليزاروفا.

وكان معارف فلاديمير ايليتش قلائل في بطرسبورغ في ذلك الشتاء. فقد اتصل بحلقة للطلاب الصناعيين التفت حول الاخوين كراسين، اتصل بهما عن طريق نيجني نوفغورود، ثم تعرف ببعض العمال الواعين والنشيطين، منهم بابوشكين (وقد اعدم في سيبيريا رميا بالرصاص بعد ثورة سنة ١٩٠٥) وشيلغونوف، وقد فقد بصره منذ زمن، وهو الآن في موسكو يتحدث عن ذكرياته (١). وتعرف كذلك ببعض الادباء الماركسيين العلنيين، منهم ستروفه، وبوتريسوف الذين قارب بينهم النضال ضد الشعبيين. واقول عرضا، ان بوتريسوف كان من اقرب رفاقه، وفيما بعد عمل معه في «الايسكرا» حتى حدوث الانشقاق في المؤتمر الثاني سنة ١٩٠٣. وكان فلاديمير ايليتش، وهو يوجه الضربات مع ستروفه ضد الشعبيين، قد احس قبل الاخرين ان عنده اراء دخيلة لرجل غير ثوري، لا يصل الى جميع النتائج التى تعطيها تعاليم ماركس، ويتشبث بالماركسية العلنية المحض، ماركسية الاساتذة والبرجوازيين. وشم فيه رائحة الكاديت العتيد، وفي ذلك الحين ايضا هاجم بشدة هذا الانحراف الضار، في مقالة وقعها بالاسم المستعار تولين، طبعت في منتخبات عنوانها «مواد حول وصف تطورنا الاقتصادى» نشرها بوتريسوف سنة ١٨٩٥. وهذه المنتخبات لم تسمح الرقابة بنشرها كما سمحت لكتاب بليخانوف الصادر قبل ذلك «حول مسئلة تطور المذهب التوحيدى في التأريخ»، وقد نشره

---

(١) توفي شيلغونوف سنة ١٩٣٩ — هيئة التحرير.

بليخانوف بالاسم المستعار بيلتوف. والاسم البارع الذى وضعه بليخانوف للكتاب انقذ الكتاب الذى تضمن حملات شعواء على الشعبيين، وشرحا واضحا لوجهة نظر الماركسيين الثوريين. واما منتخبات «مواد حول وصف تطورنا الاقتصادى» فعلى الرغم من بعض التعابير الجافة والارقام الجامدة في المقالات فقد منعت من اجل مقالة تولين واحرقت. ولم يمكن الا انقاذ بعض النسخ، وهكذا تسنى لعدد قليل في ذلك العهد ان يقرأوا مقالة فلاديمير ايليتش.

وهكذا ميزت الرقابة، بسرعة، الفرق بين الماركسية الثورية، الاشتراكية ـ الديموقراطية، وبين الماركسية العلنية. واخذ بعض الشعبيين الثوريين ايضا يفهمون هذا الفرق، واخذوا يلاحظون ان خصومهم الاشتراكيين ـ الديموقراطيين هم ايضا ثوريون، وانه لا يجوز وضعهم في صعيد واحد مع «الماركسيين العلنيين» الذين مع اقرارهم هذا الواقع، وهو ان روسيا «تذهب للتتلمذ عند الرأسمالية» (من عبارة نقشت على كتاب ستروفه «ملاحظات انتقادية حول مسئلة تطور روسيا الاقتصادى») الا انهم لا يصلون في ذلك الى اى استنتاج بصدد ضرورة النضال ضد النظام القائم. وكان هناك بعض الشبان من اعضاء حزب «ارادة الشعب» ممن لم يعترفوا باهمية مشاعيتنا (وقد رأينا في احد الفصول المتقدمة انه حتى الكسندر ايليتش ورفاقه في سنة ١٨٨٧ لم يعترفوا بها) اخذوا يتقربون نحو الاشتراكيين ـ الديموقراطيين، مقتنعين ان هؤلاء فضلا عن كونهم ليسوا ضد النضال السياسي، فهم قد جعلوه راية لهم. ففي بطرسبورغ عرض اعضاء حزب «ارادة الشعب»

بانفسهم مطبعتهم (مطبعة لاختا) على الاشتراكيين - الديموقراطيين ليطبعوا فيها مناشيرهم وكراريسهم، معتبرين ان الفرق بين الاتجاهين ليس الا في كون الاشتراكيين- الديموقراطيين يولون وجهتهم شطر العمال، لا شطر طبقات المجتمع الاخرى، لكن اتجاههم هو كذلك، اتجاه ثوري. وفي مطبعة لاختا طبعت مناشير عديدة لفلاديمير ايليتش، وطبع كراسه «حول الغرامات»، اما كراسه الثاني «حول الاضرابات»، فقد احتجز هناك عند كبس المطبعة وابيد.

وبعد الشتاء الاول في بطرسبورغ، قضى فلاديمير ايليتش صيف سنة ١٨٩٤ معنا في ضواحي موسكو، في كوزمينكي، على مقربة من محطة لوبلينو على سكة حديد كورسك. وقضى معظم الوقت وحيدا وطالع كثيرا. وكان عند الراحة يتنزه في الاماكن المجاورة برفقة اخيه الاصغر واخته، وغرس فيهما مبادئ التعاليم الاشتراكية - الديموقراطية. والتقى هناك بالاشتراكي- الديموقراطي في موسكو ميتسكيفيتش، وكان قد تعرف به من قبل في نيجني نوفغورود، والتقى بهانشين والاخوان ماسلينيكوف. واخذ هؤلاء الرفاق على عاتقهم طبع كراسته «ما هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين - الديموقراطيين؟» التى ظهرت خريف سنة ١٨٩٤ في موسكو وبطرسبورغ مطبوعة على الرونيو.

واتذكر اني لم اوفق في قراءة كراسه الخطي عن ميخايلوفسكي وبحثت عنه فيما بعد في موسكو.

ولم يكن هذا امرا هينا، ذلك لان خطاب ميخايلوفسكي ضد الاشتراكيين ـ الديموقراطيين قد اسخط الكثيرين، وقد وصل الى موسكو عدد من النسخ الخطية او من اجوبته المطبوعة على الخطاب. ولم يكن ممكنا طبع هذه الاجوبة بصورة علنية، وهذا ما اثار السخط على ميخايلوفسكي، اذ انه يهاجم اناسا ويفترى عليهم فلا يستطيعون الرد. وقد تحدثوا الي عن اثنين او ثلاثة من الاجوبة، وشرحوها لي قائلين: «منها واحد رئيسى اكثر من غيره، الا ان تعابيره غير جائزة ابدا». فسالت انا باهتمام ورغبة «ايها، مثلا؟» فاجابوا «منها مثلا: ميخايلوفسكي في الوحل»، فقلت «اجل، هذا ما ارجوك ان تحصل لي عليه ايضا» وجزمت كل الجزم بان هذا الجواب لا بد ان يكون قد كتبته ريشة فلاديمير ايليتش. وقد ضحكنا معه فيما بعد بخصوص هذه الشارة، التى ميزت بموجبها كتابته دون ان اخطىء.

٣ ــ النضال ضد «الاقتصاديين»

كان على فلاديمير ايليتش ان يشن الحرب على من يدعون «بالاقتصاديين»، فضلا عن الشعبيين و«الماركسيين العلنيين». وكان الاقتصاديون يمثلون اتجاها ينفي ضرورة النضال السياسي يشنه العمال والدعوة الى ذلك بين جماهير العمال. وهذا الاتجاه ناشيء من النزوع الصحيح والطبيعي نحو التقرب الى العمال غير المتطورين ابدا من الناحية السياسية،

والذين لا يزال يحتفظ جمهورهم بالايمان بالقيصر، وذلك من وجهة نظر حاجاتهم ومطاليبهم اليومية. وهذا ما يخص الخطوات الاولى من العمل بين هذه الجماهير التى كان يلزم ايقاظها، وكان ينبغي تطوير نزوعها نحو صيانة كرامتها، وتطوير وعيها بان تدرك ان الخلاص لا يمكن بلوغه الا بالاتحاد والتراص وتقوية هذا التراص. والاتحاد لا يمكن الا على اساس الحاجات المباشرة البينة، وقبل كل شيء على الاحتجاج على ضغط الاسياد اصحاب العمل. وهكذا فان الدعوة الى النهوض ضد اطالة يوم العمل لدرجة تفوق الحد، وضد حسم الاجور بمختلف الاحابيل، والدعوة الى تزويد العمال بالماء المغلى اثناء الغداء، وانهاء يوم العمل في ايام السبت قبل موعده ليتمكن العمال من الاستفادة من الحمامات، والغاء الغرامات الجائرة، واقصاء رؤساء العمل الشرسين والمتغطرسين وهلم جرا، كل ذلك كان مفهوما عند العمال المتخلفين غير المتطورين.

وقد تعلم العمال بتراصهم من اجل هذه الحاجات العادية ان يناضلوا معا بوئام وصمود، وان يذودوا عن مصالحهم المشتركة، والنجاح الذى يحرزونه يجعلهم يشعرون بقوتهم، ويوحدهم اكثر من السابق. واما انتصار الاضرابات الاولى، مهما تكن مطاليبهم التى قدموها صغيرة وعادلة، وكان الحصول عليها سهلا، فانه يشجعهم ويدفعهم الى الامام باقوى من اية دعوة. والتوصل الى تحسين حالهم يعطيهم فرصة وامكانيات اكبر للقراءة واضطراد تطورهم. ولذلك فقد بدأ الاشتراكيون-الديموقراطيون جميعا دعوتهم بين جماهير العمال من الحاجات

الاقتصادية. وقد احدثت مناشير فلاديمير ايليتش التى كانت تشير الى امسّ مطاليب العمال فى هذا المصنع او ذاك انطباعا كبيرا عندهم. وفي حالة عدم موافقة صاحب العمل على تلبية مطاليب العمال بطريق سلمي، كان يشار الى اللجوء الى الاضراب. وكان نجاح الاضراب في مشروع ما ينبه عمال المشاريع الاخرى الى هذا الاسلوب في النضال.

وكان ذلك الحين عهد الانتقال من الدراسة في الحلقات الصغيرة، اي من الدعاية، الى العمل بين الجماهير، اى الى بث الدعوة. وكان فلاديمير ايليتش واحدا من اولئك الذين طالبوا بهذا الانتقال. وكان بليخانوف خير من اجمل الفرق بين الدعاية والدعوة بقوله: «الدعاية تعطى افكارا كثيرة الى جماعة صغيرة من الناس، اما الدعوة فتعطى فكرة واحدة الى الجماهير».

ولكن اذا كان ضروريا ان يجرى التماس الاول مع العامل غير المتطور ابدا بالحديث عن امسّ حاجاته الاقتصادية، فان احدا لم يحدد هذه الفكرة ادق من فلاديمير ايليتش، اذ قال ان ذلك يجب الا يكون الا في المرحلة البدائية وان الوعي السياسي يجب ان يتطور من اولى الاحاديث ذاتها ومن اولى المناشير. واني اتذكر حديثا جرى معه حول ذلك في اواخر خريف سنة ١٨٩٥، قبل اعتقاله بوقت غير طويل، عندما قصدته ثانية الى بطرسبورغ.

قلت له: «كيف تبدا الاحاديث عن السياسة مع عمال متأخرين، يرون في القيصر الها ثانيا، ويمسكون بالمناشير المتضمنة مطاليبهم الاقتصادية بفزع ووجل؟ افلا ينفرهم

ذلك»، وكنت اعني بقولى عمال موسكو الذين كانوا انذاك اكثر تأخرا.

فاشار فلاديمير ايليتش انذاك الى ان القضية كلها هي في كيفية تناول الحديث.

«فاذا تكلمت رأسا ضد القيصر والنظام القائم، فذلك ينفر العمال طبعا. ولكن «السياسة» قد تخللت الحياة اليومية باسرها. وفظاظة الخفراء، ومدراء الشرط، والدرك، وتصرفاتهم وتدخلهم في كل خلاف مع صاحب العمل تدخلا يجرى لصالح هذا الاخير دون شك، ثم موقف جميع ذوى السلطة من الاضرابات، ان كل ذلك يظهر بسرعة الى اى فريق هم ينتمون. ينبغي فقط ان يذكر ذلك في كل مرة في المناشير والمقالات، وان يشار الى دور الخفراء المحليين او الدرك، ثم بعد ذلك تتطور الفكرة بالتدريج الى ما هو ابعد من ذلك. والمهم منذ البدء، الا يعطى العامل فكرة تقول بان النضال ضد صاحب المعمل وحده يمكن ان يعود بشيء». وقال فلاديمير ايليتش: «وهاك مثلا، فقد صدر قانون جديد للعمال (لا اتذكر الآن بالدقة ما تطرق اليه ـ حنة ايليزاروفا)، ينبغي ايضاحه، وان نظهر مقدار ما يؤديه من خدمة، ايا كانت، للعمال، ومقدار ما يعطيه لاصحاب المعامل. واليك هذه المقالة الافتتاحية «فيم يفكر وزراؤنا؟» المعدة للطبع في الجريدة التى نصدرها، والمقالة تظهر للعمال ما هو تشريعنا، وعن مصالح من يذود هذا التشريع. وقد عزمنا ان نتحدث عن الوزراء لا عن القيصر. وهذه ستكون مقالة سياسية، وهكذا يجب ان تكون بالتأكيد افتتاحية كل عدد، لكي تربى الجريدة الوعي السياسي عند العمال». وهذه المقالة التى

خطتها يراعة فلاديمير ايليتش، قد طبعت فعلا في العدد الاول من جريدة «رابوتشييه ديلو» («قضية العمال»)، التى لم تنتشر انذاك بسبب ضبطها، كما هو معروف، عند اعتقال فولوديا ورفاقه في ٩ كانون الاول سنة ١٨٩٥. وقد قرأتها، كما قرأت بقية مواد العدد الاول من «رابوتشييه ديلو» التى اعدت انذاك. وكان اصدار العدد على الة الطباعة عملا جسيما اعد في مدة طويلة. واتذكر كيف ان هذه المقالة قد سلقت الوزير بلسان حاد، وانها اشتهرت كمقالة كفاحية.

تحدثت هنا بالتفصيل لاظهركم كان الكثيرون من الناس على غير حق، اذ كانوا يجنحون نحو «الاقتصادية»، وفيما بعد، كانوا يزكون انفسهم بقولهم ان فلاديمير ايليتش ايضا كتب في ذلك العهد المناشير في المواضيع الاقتصادية. وكان ضبط عدد الجريدة والنسخة الخطية للافتتاحية، واعتقال فلاديمير ايليتش من جراء ذلك اكثر من اربع سنوات ونيف، قد اعطى البعض مجالا لتزكية انفسهم، رغم ان فلاديمير ايليتش، سواء اثناء الوقت القصير الذى قضاه مطلق السراح او في السجن والمنفى، قد اظهر في هذا الصدد ما يكفي لدفع تهمه «الاقتصادية» التى كان يمكن ان يتهم بها. ويكفي بهذا الصدد ان نذكر ولو احتجاجه من المنفى على «برنامج» كوسكوفا (١).

وهذا الاتجاه السياسي البين كان الارث الذى ورثه لينين منذ البدء، وقد انبثق عن الفهم الصحيح لتعاليم ماركس، وكان

---

(١) خلاصة معتقداته. ـ حنة ايليزاروفا.

يتفق كذلك واراء اسلاف الاشتراكية ـ الديموقراطية الروسية، اى جماعة «تحرير العمل»، ومؤسسها بليخانوف الذي عرف فلاديمير ايليتش اراءه معرفة حسنة من مؤلفاته، وعدا ذلك عرفها منه شخصيا في صيف سنة ١٨٩٥ عندما سافر الى الخارج وتعرف به. وكان هدفه الظاهرى من هذه السفرة الاستجمام والمعالجة اثر التهاب رئتيه، اما هدفه الاصلي فهو ايجاد الروابط مع جماعة «تحرير العمل».

كان فلاديمير ايليتش راضيا جدا من سفرته، لانها كانت ذات مغزى كبير فى نظره. وكانت لبليخانوف عنده دائما منزلة كبيرة. وتصادق مع اكسلرود انذاك، وقد حدثنا عند عودته، ان العلاقات التى اقرت مع بليخانوف وان كانت حسنة، الا انها لا تزال علاقات بعيدة، اما مع اكسلرود فالعلاقات قريبة جدا وودية. وكان فلاديمير ايليتش يقدر رأيهما كل التقدير. وفيما بعد، ارسل اليهما من المنفى كراسه «مهام الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الروس» ليطبعاه. وعندما ارسلت اليه تقريظ الشيخين لكتابه، كتب الي يقول: «ان تقريظهما (الشيخين) الايجابي لمؤلفاتي، لهو اثمن ما استطيع الحصول عليه». وبعد اللقاء معهما اخذ يعمل بحزم اكبر وحماسة اشد في سبيل تنظيم حزب سياسي للاشتراكيين ـ الديموقراطيين في روسيا.

وعند عودته مكث فلاديمير ايليتش عندنا في موسكو وتحدث كثيرا عن رحلته ومحادثاته، وكان في منتهى الارتياح والجذل، بل وكان مشرقا. وكان ذلك ناجما في الدرجة الاولى من توفيقه في اجتياز الحدود ومعه ارسالية الكتب الممنوعة.

لقد عرف فلاديمير ايليتش انه بحكم وضعه العائلي مراقب مراقبة صارمة، فعزم الا ينقل معه اى شيء غير مسموح به، لكنه لم يستطع في الخارج ان يكبح نفسه، لقد كانت رغبته رغبة كاسحة، فأخذ معه حقيبة ذات قعرين. وكانت هذه من الوسائل العادية في ذلك العهد لنقل الكتب الممنوعة التى كانت توضع بين القعرين. وقد صنعت هذه الحقيبة فى الخارج باحكام ودقة. لكن هذه الوسيلة كانت معروفة لدى الشرطة، فكان كل الامل معلقا على ان التفتيش لا يتناول كل الحقائب. ولكن ها هي حقيبة فلاديمير ايليتش تقلب عند التفتيش الجمركي رأسا على عقب حتى القعر، واخذوا، عدا ذلك، يجسونه. وكان فلاديمير ايليتش يعرف ان موظفي الحدود المجربين يلجأون الى هذه الطريقة لتحسس القعر الثاني، فعرف، كما قال لنا، انه قد اسقط في يده. ولكن الامور مضت بخير وسمحوا له بالذهاب، وسلم الحقيبة في بطرسبورغ، وهناك ايضا سارت الامور على ما يرام، وهذا ما نفحه بروح عالية لمسناها عنده لدى مجيئه الينا في موسكو.

٤ــ ملاحقته واعتقاله

كان ممكنا كل الامكان، بالطبع، ان يكون فلاديمير ايليتش غير خاطئ، وان تكون المواد المخفية قد عثر عليها بالفعل، الا انهم لم يلجأوا الى اعتقال صاحبها رأسا كى يستطيعوا ان يعقبوا عددا كبيرا من الاشخاص، ممن يستلمون المطبوعات، ويوزعونها، وان يثيروا قضية اتهام كبيرة.

عند حلول خريف سنة ١٨٩٥ كان فلاديمير ايليتش يلاحق بشدة. وقد اخبرني بذلك اثناء زيارتي المذكورة له في اواخر خريف هذا العام. وقال انه في حالة توقيفه لا تسمحى للام بالمجيء الى بطرسبورغ، لان مراجعاتها الى مختلف الدوائر من اجل الاهتمام به مرهق جدا لها، وان ذلك يذكرها بمراجعاتها من اجل ولدها الاكبر. وفي ذلك العهد تعرفت اذا عند اخي بشيلغونوف، وكان انئذ لا يزال عاملا شابا صحيح البنية.

وتحدث الي فلاديمير ايليتش عن بعض حوادث فراره من الجواسيس. فقد كان جيد البصر، خفيف الخطى، واتذكر ان احاديثه التى كان يدلي بها بحيوية كبيرة، مع قهقهة مرحة، كانت ممتعة جدا. وانى لاتذكر حاذثا من تلك الحوادث. كان الجاسوس يلاحق بعناد فلاديمير ايليتش الذى لم يكن يريد ابدا ان يجعله يهتدى الى الشقة التى كان يؤمها، ولكن لم يكن يجد مفرا من يده. وعند بوابة بيت من بيوت بطرسبورغ لمح ايليتش مرافقه الثقيل الظل، فانعطف بسرعة وولج ركضا مدخل البناية نفسها، حيث اخذ من هناك يراقب بارتياح معقبه الذى فقد طريده.

وقال لي: «لقد جلست على كرسي البواب، حيث لم يكن احد يراني، وكنت ارقب كل شيء في الزجاج امامي، وضحكت وانا انظر الى وضعه الحرج، وكان رجل يهبط من السلالم فنظر مندهشا الى شخص جالس علي كرسي البواب يضحك طربا».

ولكن لئن امكن احيانا ان يتخلص المرء بالحيلة من التعقيب، فان رجال الشرطة، والبوابين (الذين كانوا انئذ

شرطة البيوت) والعدد الكبير من الجواسيس كانوا اقوى على كل حال. ففي نهاية الامر قبضت الشرطة على فلاديمير ايليتش ورفاقه الذين كان عليهم، وهم نفر قليل، ان يقوموا بكثير من الاعمال المحظورة، كأن يلتقوا في اجتماعات سرية، ويزوروا بيوت العمال التى كانت تحت الشبهة والمراقبة، ويستلموا ويسلموا المطبوعات السرية، ويكتبوا ويطبعوا ويوزعوا المناشير وغير ذلك. وكان تقسيم العمل ضئيلا، لان العاملين كانوا قلائل، ولذلك فقد جلب كل منهم انتباه الشرطة بسرعة. ثم انه عدا المعقبين السائبين في الشوارع، كان هناك الدساسون، ممن كانوا يندسون في الخلايا بقناع «الاصدقاء»، وكان من هؤلاء في ذلك الوقت، طبيب الاسنان ميخائيلوف، الذى وان لم يكن عضوا في الخلية التى كان يعمل فيها فلاديمير ايليتش، فقد كانت عنده معلومات عن خلايا اخرى. واندس الدساسون كذلك في خلايا العمال، وعدا ذلك فقد كان العمال انئذ سذجا، يقعون بسهولة في الحبائل. وكان الاشخاص «يمضون» اثناء العمل السرى في ذلك العهد مدة قصيرة، فمن خريف سنة ١٨٩٥ اخذ النشاط يتسع، ولكن في ٩ كانون الاول «اوقف» فلاديمير ايليتش وقسم كبير من رفاقه.

وهكذا انتهى الدور الاول من نشاط فلاديمير ايليتش الى بوابات السجن. الا انه في غضون هاتين السنتين ونصف السنة قطع شوط كبير، سواء في حياة لينين شخصيا او في حركتنا الاشتراكية ـ الديموقراطية. اما فلاديمير ايليتش فقد شن خلال هذه المدة معركة فاصلة على الشعبيين، واظهر بصورة محددة

تماما جوهره الماركسي الثورى، البعيد عن مختلف الانحرافات، واقام الروابط مع فريق الماركسيين الروس في الخارج، الذين وضعوا الاساس لنشر الماركسية في روسيا. الا ان الاهم، هو انه بدأ النشاط العملي فاقام الروابط مع العمال، وانبرى كزعيم ومنظم للحزب في تلك السنوات التى كان لا يزال يشك في امكانية ايجاده في ظروف روسيا ذلك العهد. ورغم ان الحزب قد تاسس (المؤتمر الاول للحزب) بدونه، عند ما كان هو في المنفى، الا انه تأسس بضغط منه، وبعد ان كان قد وضع هو اسس اول منظمة سياسية للاشتراكية ـ الديموقراطية في بطرسبورغ وتعين شكل اول جريدة سياسية، وبعد ان اعلنت في بطرسبورغ كلها وفي موسكو اول الاضرابات الضخمة.

٦ ـ فلاديمير ايليتش فى السجن

عندما اعتقل فلاديمير ايليتش كانت صحته على غير ما يرام نظرا لانهاك اعصابه من جراء النشاط المرهق الذى اضطلع به. واستمارة «التوقيف» في سنة ١٨٩٦ تعطى صورة عن حالته الصحية.

بعد الاستنطاق الاول الذى اجري معه، اوفد الينا في موسكو، ناديجدا قسطنطينوفنا كروبسكايا مع توصيات. فقد طلب اليها في رسالة رمز ان تبادر في الحال الينا، وتنبئنا انه قال

فى جوابه على سؤال عن مكان الحقيبة التى جاء بها من الخارج، انه ابقاها عندنا فى موسكو.

«ليشتروا حقيبة تشابهها، ويحلوها محلها... دجلوا قبل ان يعتقلوا». هكذا رن بلاغه الذى اتذكره جيدا، وقد تأتى ان نشترى بحيطة وننقل الى البيت حقيبة، قالت نا ديجدا قسطنطينوفنا شيئا غير محدد عن منظرها الخارجى، وظهر، بالطبع، انها لا تشابه فى شىء الحقيبة ذات القعرين التى جلبها من الخارج. ثم لكيلا يظهر ان الحقيبة جديدة خيطت حديثا، فقد اخذتها معى الى بطرسبورغ التى ذهبت اليها لغرض زيارة اخى والاطلاع على قضيته.

وفى الوهلة الاولى من قدومى الى بطرسبورغ وفى جميع المذاكرات مع الرفاق، وفى رسائل الرمز المتبادلة مع اخى وفى محادثاتى الشخصية معه فى المواجهات، لعبت هذه الحقيبة دورا واى دور، حتى انى كنت اعزف فى الشوارع عن النظر فى واجهات المخازن التى عرضت فيها هذه البضاعة الممقوتة، التى لم استطع التطلع اليها براحة بال. ولكن بالرغم من انهم تحروا عنها فى الاستنطاق الاول، الا انهم اهملوها فى النهاية، وضاع هذا الاتهام، كما يحدث عادة، بين الاتهامات الاخرى التى وجدوا ضدها دلائل اقوى نسبيا.

فقد اثبت وجود روابط وصلات مع عدد كبير من الموقوفين ومعه هو فى ذات الوقت، ووجد عند احدهم، فانييف، نسخة خطية من الجريدة السرية «قضية العامل»، كما اثبت وجود صلات مع العمال فى خلايا فى حى نيفسكى، كان لفلاديمير

ايليتش نشاط فيها. وبكلمة، فان الدلائل لبدء تحقيق يقوم به الدرك كانت متوفرة تماما.

والشخص الثانى الذى قدم الينا فى موسكو بعد توقيف اخى، كان عضو خليته الذى نجا، ميخائيل الكسندروفيتش سيلفين، فحدثنا عن رسالة تلقاها من فلاديمير ايليتش من السجن، وردت باسم احدى معارفه التى كان يتغذى عندها. وقد شرح فلاديمير ايليتش فى رسالته الاولى الكبيرة هذه من السجن ذلك البرنامج الذى اراد العكوف عليه، الا وهو اعداد المواد لكتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» الذى رسم خطة وضعه. وكانت اللهجة الوقورة فى الرسالة المطولة، المرفقة بها قائمة طويلة جدا من الكتب العلمية والمنتخبات الاحصائية، مثارا لدفع الشبهات عن اغراضه الباطنية، وقد نفذت الرسالة دون عائق او شطب كلمات. والى جانب ذلك سأل فلاديمير ايليتش الرفاق عمن اوقف معه، وقد سأل ذلك دون سابق اتفاق، لكنه سأل بشكل فهمه الرفاق واجابوا عليه فى الحال، اما الحراس «اليقظون» فلم يرتابوا فى شىء من ذلك.

قال لى سيلفين معجبا: «لقد سألنا فلاديمير ايليتش فى رسالته الاولى عن الموقوفين، ونحن اجبناه على ذلك».

ومع الاسف لم يبق الا القسم الاول من الرسالة، اما قائمة الكتب التى ارفقت بها فغير موجودة، والظاهر انه اضاعها او فقدها اثناء البحث عن الكتب. وكان فلاديمير ايليتش بحاجة فى الواقع الى القسم الاكبر من الكتب المذكورة من اجل عمله، وهكذا فقد ادى برسالته غرضين، او، كما يقول المثل،

صاد بحجر عصفورين. وانى استطيع فقط ان استعيد فى ذاكرتى بعض تلك الاسماء التى دسها فلاديمير ايليتش بمهارة فى قائمته، سائلا عن مصائر الرفاق. هذه الاسماء مرفقة بعلامة الاستفهام التى يتظاهر بها كاتب الرسالة انه لا يحتفظ فى ذاكرته بالدقة باسماء الكتب، والتى يشير بها فى الواقع لا الى الكتب، بل يتسائل. وكان يتسائل مستعينا بالاسماء المستعارة للرفاق. وكانت اسماء بعضهم تنطبق على صفات الكتاب الذى يحتاجه، فكان السؤال عنهم لا يثير اية شبهة. وهكذا فقد سأل عن فاسيلى فاسيلييفيتش ستاركوف بالشكل التالى: «ف. ف. مصائر الرأسمالية فى روسيا». وكان ستاركوف يدعى «فيفه». وكان فانييف وسيلفين، وهما من مدينة نيجني نوفغورود، يحملان الاسمين المستعارين، «مينين» و«بوجارسكى»، وكان ممكنا ان يستدعى طلب هذا الكتاب اهتماما من مراقب رسائل السجناء لو كان هذا منتبها، ما دام الكتاب لا يتصل بموضوع المؤلف الذى يراد وضعه، ونعنى كتاب «بطلا عصر الانتفاض» لمؤلفه كوستوماروف. ومع كل ذلك فهو كتاب علمى تأريخى، ومن المفهوم ان النظر فى رزم الرسائل العديدة التى تتضمن مثل هذه المطاليب غير المنسجمة، يقتضى المراقبين ان يقضوا وقتا طويلا جدا فى فحصها. ثم ان الاسماء المستعارة لم تكن كلها تتلاءم تماما واسماء الكتب العلمية. وكان احد هذه الكتب التى وضعت، بطبيعة الحال، بجانب الكتب الضرورية حقا للمؤلف، كتاب «القوارض الصغيرة» لبريم. وعلامة السؤال هنا تسائل الرفاق، دون ان يعتريهم الشك، عن مصير كرجيجانوفسكى الذى كان يحمل اسم

«سوسليك» (اسم بعض القوارض) كما ان اسم الكتاب الانجليزى «The Mynoga» لماينريد كان يشير الى اسم ناديجدا قسطنطينوفنا كروبسكايا، فقد كان اسمها المستعار «سمكة» او «مينوغا». وكان ممكنا ان تلفت هذه الاسماء نظر الرقابة، الا ان اللهجة الوقورة فى الرسالة، وطول قائمة الكتب، وعدا ذلك، الجملة المحتاطة الواردة فى الصفحة الثانية (المفقودة) قد اعمت بصيرتهم، فقد نصت بما يلى: «ان تنوع الكتب يجب ان يؤدي الى تخفيف وطأة الحياة على وتيرة واحدة».

ولم يبق فى ذاكرتى، مع الاسف، الا هذه الاسماء القليلة، التى كنا كثيرا ما نضحك فيما بعد عند تذكرها. وايضا اتذكر فقط كلمة «Goutchoul» او «Goutchioule»، وقد تعمد كتابة هذا الاسم الفرنسى الصعب التلفظ وجعله اسم مؤلف موهوم لكتاب تأريخى مزعوم (ولا اتذكر اسم الكتاب). وكان لا بد لهذه الكلمة ان تعنى «غوتسول» اى الرفيق زابوروجيتس. واتذكر ايضا ان سيلفين تحدث الينا بمناسبة كتاب «بطلا عصر الانتفاض» وقال انهم اجابوه انه: «لا يوجد فى المكتبة الا المجلد الاول من المجموعة» ومعنى ذلك ان الموقوف هو فانييف لا سيلفين.

زج فلاديمير ايليتش فى الموقف. وكانت ظروف الاعتقال انئذ ملائمة لحدما، ولا باس بها. فقد كان يسمح عادة بالمواجهة مع الموقوفين بعد شهر من توقيفهم، وبعد ذلك يسمح بها مرتين فى الاسبوع. احداها مواجهة شخصية والاخرى عامة، من وراء القضبان. المواجهة الاولى تجرى بحضور الحارس وتدوم نصف ساعة، والثانية ساعة كاملة، يتخطر اثناءها حارسان من الجهتين،

احدهما خلف القضبان الحديدية حيث يساق الموقوفون، والاخر من وراء الزائرين. ونظرا لشدة اللغط الذى يسود فى هذه الايام والانهاك الذى لا بد ان يحدثه فى الحراس، ثم لانحطاط مستواهم الفكرى، يكون بالامكان، مع بعض المراوغات، التحدث اثناء هذه المواجهات عن كل شئ تقريبا. وكانوا يستلمون الطعام ثلاث مرات فى الاسبوع، والكتب مرتين. وهذه الكتب لا يفحصها الدرك، بل يفحصها موظفو دائرة الادعاء العام، التى تشغل بيتا مجاورا. وبالنظر لكثرة من يأتون بالكتب فقد كان هذا الفحص يجرى، عادة، بصورة سطحية فى اغلب الحالات. وكانت جوازات تسليم الكتب تعطى بصورة واسعة نسبيا، دون حذف كبير، وقد اجيزت حتى المجلات الشهرية، وفيما بعد، المجلات الاسبوعية. وهكذا لم يكن هناك انعزال عن الحياة، الانعزال الذى يعد واحدا من اشق نواحى حياة السجين المنفرد. وكانت مكتبة «الموقوفين» غنية لحد وأف، ومؤلفة من مختلف التبرعات والهدايا حتى ان كثيرا من الرفاق، وخاصة من العمال استطاعوا بصورة جدية ان يكملوا بواسطتها معارفهم.

كان فلاديمير ايليتش قد استعد لسجن طويل الامد، وتوقع ان ينفى بعد السجن الى مكان بعيد، فقرر ان يستفيد فى هذا الوقت من مكتبات بطرسبورغ، لكى يجمع المواد اللازمة لكتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» الذى ازمع على تأليفه. فكان يرسل فى رسائله قوائم طويلة باسماء الكتب العلمية، والادلة الاحصائية، التى كان يحصل عليها من مكتبات اكاديمية العلوم والجامعة وغيرهما. وقد قضينا انا ووالدتى فى بطرسبورغ معظم الوقت الذى قضاه فلاديمير

ايليتش في السجن، وترتب على ان احمل له رزما كاملة من الكتب التي كانت متكدسة في زاوية من زنزانته. وفيما بعد اخذوا يضيقون في هذه الناحية، اذ حددوا عدد الكتب التي تسلم الى السجين في الزنزانة وجعلوها قليلة. اذ ذاك اخذ ايليتش، دونما استعجال، ينقل ويسجل في دفاتره فقرات من الادلة الاحصائية، وكانت عنده، عدا ذلك، كتب علمية اخرى وادبية باللغات الروسية والاجنبية.

وقد سهلت وفرة الكتب المرسلة اليه روابطنا معه بواسطتها. اذ كان فلاديمير ايليتش قد علمني، عندما كان طليقا، اسس الكتابة بالشفرة، فكنا نتكاتب معه بسرعة، فنضع نقطا غير ملحوظة تماما، وفواصل في الاحرف ونشير بعلامات متفق عليها الى الكتاب والى الصحيفة التي تتضمن الرسالة.

ولم يكن ضرر هذه الرسائل على اعيننا قليلا. الا انها مكنتنا من ان ننقل ونبلغ كل ما كان لازما وسريا، وهي لذلك كانت لا تقدر بثمن. اذ بواسطتها لم تستطع حتى اكثر الجدران سمكا، واشد الرقابات صرامة ان تمنع محادثاتنا. الا اننا، بالطبع، لم نقتصر على الحاجات الضرورية جدا. فلقد كنت اطلعه، وانا طليقة، على كل ما لم يكن من المناسب التحدث عنه اثناء المواجهات. فكان يكلفني بمهام مختلفة، كان يطلب الى ان ابلغ الرفاق شيئا ما، وان اقيم الروابط معهم، واخبرهم ان يطلبوا من مكتبة السجن الكتب المؤشر فيها بالشفرة، وان ينتزعوا عند التجول الانفرادي في الساحة الرسائل المرسلة اليهم والملصقة بالخبز الاسود على اللوحة. وكان يعنى كل العناية بالرفاق. فكان يكتب رسالة تشجيع

لمن يبلغه ان اعصابه وهنت، ويطلب الحصول على الكتاب الفلانى لاحدهم، ومواجهة من لم تكن عنده مواجهة. وقد اخذت هذه العناية منه ومنا وقتا كثيرا. وقد شدت روحه القوية الفائقة هذه وعطفه هذا من عزائم الرفاق.

ومن حسن حظ ايليتش ان ظروف اقامته فى السجن كانت مساعدة له، ان صح القول. لقد ضعف بطبيعة الحال، وكان لونه قد اصفر عند نهاية اقامته فى السجن، الا ان معدته، التى راجع من اجلها احد الاخصائيين السويسريين المعروفين، عندما كان فى الخارج، كانت خلال سنة اقامته فى السجن فى حال احسن منها عندما كان حرا فى السنة السابقة. كانت الام تذهب اليه بالطعام ثلاث مرات فى الاسبوع، وكانت تحضره وفق تعليمات الطبيب الاخصائى. وعدا ذلك كان يتناول طعاما مدفوع الثمن ولبنا. وواضح ان هذه كانت حياة مناسبة ومنظمة فى هذا «المصح» الروسى، لا يمكن طبعا تصورها ابدا فى عهد الحرية والنشاط السرى الذى تحفه المطاردات المثيرة للاعصاب.

وكانت المواجهات معه ذات مغزى وممتعة. لقد كان من الممكن اللغط كثيرا جدا اثناء المواجهات من وراء القضبان. وكنا نتكلم بالتلميح، وندس كلمات اجنبية مكان تلك الكلمات غير المناسبة مثل «الاضراب» و«المنشور». وكانت عندنا انباء، فكنا نعمل الفكر فى كيفية ايصالها، وكان احيانا اخى يفكر كيف يبلغنا ما عنده، وكنا نضحك كلانا مرحا عندما نوفق فى ابلاغ او فهم ما كان محرجا لنا. وكانت مواجهتنا على العموم تأخذ شكل ضوضاء صاخبة لا كلفة فيها، اما فى الواقع فقد كانت الافكار

متوترة كل الوقت، فقد كان علينا ان نفهم ونفهم، والا ننسى اية توصية. واتذكر مرة اننا انغمرنا جدا فى استعمال المصطلحات الاجنبية، واذا بالحارس من خلف فلاديمير ايليتش ينتهرنا بقوله:

ـ لا يجوز التكلم باللغات الاجنبية، تكلموا بالروسية فقط.

فاستدار اخى نحوه وقال بحيوية:

ـ افلا يجوز؟، اذن ساتكلم بالروسية.

وتابع حديثه معى قائلا: اذن قولى لهذا الرجل الذهبى...

فهززت برأسى وانا ابتسم، اذ فهمت انه لا بد ان يعنى «بالرجل الذهبى» رفيقنا غولدمان (١)، فقد ترجم فلاديمير ايليتش هذا الاسم من الالمانية الى الروسية، لكى لا يفهم احد عمن يدور الحديث.

وبكلمة، فقد اظهر فلاديمير ايليتش فى السجن ذات الحيوية التى اظهرها على الدوام. وقد استطاع ان ينظم حياته بشكل جعله منشغلا طوال اليوم، وانصرف بالدرجة الاولى، طبعا، الى النشاط العلمى. ففى السجن جمع مواد كثيرة لكتابه «تطور الرأسمالية فى روسيا»، وقد كان فلاديمير ايليتش يستعجل فى هذا الامر. وعندما اخبرته ذات مرة، عند نهاية اقامته فى السجن، ان قضيته، كما يشاع، قد قاربت نهايتها، صاح قائلا: «انه قبل الاوان، انى لم اوفق بعد فى تهيئة جميع المواد».

وهذا العمل الجسيم كان فى نظره صغيرا. لقد كان يريد الاشتراك فى النشاط السرى الثورى الذى تفجرت ينابيعه انذاك. ففى هذا الصيف (من سنة ١٨٩٦) حدثت اضرابات كبيرة لعمال

---

(١) اذ تعنى غولدمان بالالمانية ـ الرجل الذهبى.

النسيج فى بطرسبورغ، امتدت بعدها الى موسكو، الاضرابات التى كانت ذات اهمية فى الحركة الثورية للبروليتاريا. وقد اثارت هذه الاضرابات، كما هو معروف، فزعا واى فزع عند الاوساط الحكومية، وخشى القيصر خشية كبيرة، وخاف العودة من الجنوب الى بطرسبورغ. وكان كل ما فى المدينة يجيش ويغلى. وكانت تسود روح الجرأة والنهوض الخارقة. وتميزت سنة تتويج نيقولاى الثانى، وحفلات تتويجه المعروفة (١)، بأول نضال تجريبى يقوم به العمال فى المركزين الرئيسيين، وكان وقع خطوات العمال فى زحفهم هذا شارة شؤم للقيصرية. الحق ان زحفهم لم يكن بعد زحفا سياسيا، الا انه كان مرصوصا بقوة وكان جماهيريا. يصعب الان على الرفاق الحديثين الاصغر سنا ان يقدروا او يتصوروا كل ذلك. الا ان هذا الاضراب كان لنا نحن، حدثا جسيما، بعد سنوات الظلم الشداد، سنوات العقد التاسع، التى كان الناس يعيشون فيها فى الظلام ويتكلمون همسا. فكأن «ابواب السجن الاصم قد انفرجت، واشرق يوم نير» امامنا، وكأن وجه حركة العمال قد طلع من خلال جهام المستقبل، تلك الحركة التى كان يمكن ويجب ان تظفر بفضلها قضية الثورة.

وبرزت الاشتراكية-الديموقراطية من نظرية فى الكتب، من طوبى بعيدة المنال كما صورها بعض الماركسيين النصيين، برزت الى الوجود، كقوة حيوية للبروليتاريا ولغيرها من فئات المجتمع. لقد انفتحت كوة فى قبو الحكم المطلق الروسى الخانق الجاف،

---

(١) وهى الحفلات الدامية التى هلك اثناءها جمع غفير (المترجم).

واستطعنا جميعا ان نستنشق بولع مفرط هواء نقيا، وشعرنا بانفسنا جريئين ومتحمسين اكثر من اى وقت مضى.

اصبح «اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة»، الذى اسسه فلاديمير ايليتش، والذى سمى كذلك بعد توقيفه، يزداد اشتهارا يوما بعد اخر. واخذت المعامل، الواحد بعد الاخر، تتقدم اليه بطلب اصدار مناشير لها. كما وردت عليه شكاوى تتساءل «لماذا نسينا الاتحاد؟» كما قدمت طلبات باصدار مناشير ذات صفة عامة، وقبل كل شئ حول اول ايار. وكان الرفاق الاحرار يأسفون لعدم استطاعة فلاديمير ايليتش كتابتها بينما كان هو نفسه يرغب فى كتابتها. وعدا ذلك كان هو نفسه قد اعد المواضيع لكراسات، منها كراس «حول الاضرابات».

وكان منصرفا الى مسائل المنهاج. وقد اخذ يجرب فى السجن الكتابة فى الشؤون السرية. كان ارسال المناشير السرية بالرموز غير ممكن بطبيعة الحال. وكان ينبغى استعمال طريقة الكتابة غير الملحوظة التى كان يجرى اظهارها خارج السجن. وتذكر هو احدى الالاعيب الصبيانية، فقد اخذ فلاديمير ايليتش يكتب بالحليب فيما بين سطور الكتب، وكان اظهارها يقتضى تدفئتها على شعلة المصباح. وكان قد اعد لذلك محبرة صغيرة جدا صنعها من الخبز الاسود، حتى يستطيع ان يبتلعها اذا سمع حفيفا عند الباب، او تلصصا عند كوتها. وقد قال لنا ذات مرة وهو يضحك، ان الحظ لم يؤاته فى احد الايام، فاضطر ان يبتلع ست محابر بكاملها.

اتذكر ان فلاديمير ايليتش كان فى تلك السنوات، سواء

قبل السجن او بعده، يجب ترديد هذه الجملة: «لا توجد حيلة الا وهناك حيلة تفوقها». وقد طبق ذلك فى السجن بما عرف عنه من حضور البديهة. ففى السجن كتب المناشير، وكتب كراس «حول الاضرابات» الذى ضبط اثناء كبس مطبعة لاختا (وقد اظهرته واستنسختة ناديجدا كروبسكايا). ثم كتب منهاج الحزب مع «مقدمة تفسيرية» مسهبة له، استنسخت انا قسما منها بعد توقيف ناديجدا قسطنطينوفنا. ولم ينشر هذا المنهاج. فلقد سلمته انا بعد اكماله الى بوتريسوف، وبعد اعتقال هذا اتلفه الشخص الذى اودع اياه لحفظه (١). وعدا هذا العمل كان علي ان اخلف ناديجدا قسطنطينوفنا فى المحافظة على مخزن الرسائل السرية، وهو عبارة عن طاولة مستديرة صغيرة صنعها، حسب اقتراح ايليتش، نجار من رفاقه. وكان للطاولة ساق واحدة سميكة فى وسطها، وكانت مفرغة وتدور كاللولب فتنفتح وتوضع فى جوفها الاوراق الملفوفة. هناك كنت عند الامسيات اخفى القسم الذى استنسخته من المؤلف، اما النسخة الاصلية التى ادفئها على لهب المصباح فكنت اتلفها بدقة. وقد استفدنا من هذه الطاولة فوائد جمة، اذ لم تفتح سواء اثناء تحرى فلاديمير ايليتش او ناديجدا قسطنطينوفنا، وقد سلم القسم الاخير الذى استنسخ من

---

(١) وقد ضبطت كذلك نسخة خطية من هذه المقدمة التفسيرية وكانت تعتبر مفقودة منذ زمن طويل. وقد وجدت نسخة غير كاملة منها بعد وفاة فلاديمير ايليتش، ونشرت فى العدد ٣ (٢٦) من مجلة «الثورة البروليتارية»، سنة ١٩٢٤. حنة ايليزاروفا.

المنهاج، واستلمته انا مع الطاولة من والدة ناديجدا قسطنطينوفنا. وكان شكل الطاولة لا يثير الشبهة، وفيما بعد تأكلت اسنان اللولب من كثرة الدوران فكانت الطاولة تهتز.

وكان فلاديمير ايليتش فى بادئ الامر يتلف مسودات المناشير وغيرها من كتاباته السرية بدقة بعد استنساخها بالحليب، وفيما بعد استغل وضعه كباحث علمى، فاخذ يكتبها بخط يده الرقيق بين سطور الكتابات الاحصائية وغيرها، وفى تضاعيف دفاتره. وكان لا يمكن اتلاف مثل تلك المقدمة التفسيرية للمنهاج وهى فى مسودتها، اذ لم يكن ممكنا استنساخها فى يوم واحد، وعدا ذلك كان ايليتش يعمل الفكر فيها، ويدخل عليها اصلاحات واضافات مستمرة. وذات مرة تحدث معى فى احدى المواجهات، بحيويته المعهودة، ووصف لى كيف انه فى احد التحريات العادية التى جرت فى زنزانته اخذ ضابط الدرك يقلب صفحات بعض الكتب المكومة فى الزاوية، والجداول والدفاتر، فقال مازحا: «الطقس حار جدا اليوم، ولا استطيع الانشغال بالاحصائيات». وقال لى اخى حينئذ انه لم يقلق ابدا: «غير ممكن للمرء ان يجد شيئا فى هذه الكومة» واضاف ضاحكا «انى اسعد حالا من سائر مواطنى الامبراطورية الروسية، فليس بوسع احد ان يقبض على». قال لى ذلك وضحك، الا انى كنت طبعا قلقة عليه، فطلبت اليه ان يكون اكثر حذرا، واشرت اليه انه اذا لم يكن بامكانهم القبض عليه، فان العقوبة، بالطبع، ستضاعف جدا اذا هم عرفوا ذلك، وانهم يستطيعون ارساله الى سجن الاعمال الشاقة من اجل هذه الكتابات السرية، او من اجل كتابة اشياء ممنوعة فى السجن.

ولذلك فاني كنت انتظر على الدوام بقلق ارجاع الكتب من قبله مكتوبة بالمادة الكيمياوية. وكنت انتظر باعصاب متهيجة عودة كتاب واحد كنت اعرف انه يكتب فيه بين الاسطر مقدمته التفسيرية للمنهاج، وقد كتبها بالحليب. وكنت اخشى من ان ادارة السجن ترتاب اثناء التفتيش فى امر الكتاب، او ان استبقاء الكتاب لمدة طويلة يجعل الحروف تظهر من تلقائها كما حدث احيانا، عندما يكون الحليب غليظا جدا. وفى الموعد لم يسلمونى الكتاب صدفة. واستلم جميع اقارب السجناء فى يوم الخميس الكتب التى اعيدت فى ذات اليوم، اما انا فقد قال لى الرقيب باختصار «لا شئ باسمك»، بينما كان اخى قد قال لى فى المواجهة التى جرت لتوها معه، انه قد اعاد الكتب. وهذا الذى سمعته لاول مرة، اى حجز الكتاب قد جعلنى اعتقد ان ايليتش قد انكشف امره، وقد بدا لى وجه المراقب المتجهم الذى يسلم الكتب، اكثر تجهما مما هو على الدوام. ولم يكن بوسعى، طبعا، ان الحف عليه، وقضيت يومى اعانى ما اعانى حتى اليوم التالى، عندما اعيدت الي الكتب وبضمنها الكتاب الذى يحتوي على المنهاج.

كما كان يحدث احيانا ان يقلق اخى عبثا. ففى شتاء سنة ١٨٩٦، بعد اعتقال بعضهم، (وربما اثر اعتقال بوتريسوف) حدث انى تأخرت صدفة عن موعد المواجهة، ووصلت فى النوبة الاخيرة خلافا لعادتى كل مرة، فجزم فلاديمير ايليتش بانى قد اعتقلت، فاتلف بعض المسودات التى كان قد حضرها.

الا ان مثل هذا الاضطراب كان نادرا، ففى مثل هذه المناسبات الشاذة، كالاعتقالات الجديدة، كان ايليتش على العموم متزنا وذا جلد ومرحا وكان بضحكاته المعدية يبدد قلقنا.

ولم نكن نحن، جميع اقارب المعتقلين، لنعرف اية عقوبة تنتظرهم. وقد كانوا يعاقبون الاشتراكيين ـ الديموقراطيين عقابا اخف بكثير من اعضاء حزب «ارادة الشعب». وكانت اخر محاكمة في بطرسبورغ هي محاكمة بروسنيف التي انتهت بالحكم الشديد التالي على المتهم الرئيسي: ٤ سنوات بالسجن المنفرد، و ١٠ سنوات بالنفي الى سيبيريا الشرقية.

وكنا نخشى عليه كل الخشية من الاقامة الطويلة في الموقف، اذ انها قد تعود باضرار كبيرة، وعلى كل فانها قد تقوض صحة اخي بشدة. ففي خلال سنة من بقاء زابوروجيتس في الموقف اصيب هنا باختلال عصبي شديد، استحال فيما بعد الى مرض روحي مستعص، وهزل فانييف واخذ يسعل، (ومات في المنفى بمرض السل بعد سنة من اطلاق سراحه)، واما كرجيجانوفسكي والاخرون فهم ايضا اصبحوا عصبيين قليلا او كثيرا.

ولذلك استقبل جميعنا الحكم بالنفي ثلاث سنوات الى سيبيريا الشرقية بارتياح.

وقد اعلن الحكم في شباط سنة ١٨٩٧. وبناء على التماس والدة فلاديمير ايليتش فقد سمح له ان يسافر الى سيبيريا على نفقته الخاصة، لا مع قوافل السجناء. وكانت هذه مساعدة محسوسة، ذلك لان التنقل بين السجون في عرض الطريق كان يستنفد الكثير من القوى والاعصاب.

واتذكر انه في يوم اطلاق سراح اخي هرعت الينا في غرفتنا التي كنا فيها مع امنا، الرفيقة ياكوبوفا وقبلته، وكانت تضحك وتبكي في ان.

واتذكر بصورة واضحة جدا وجهه الشاحب النحيل اللامع القوى التقاطيع، عندما سافر لاول مرة على سطح عربة الترام التى تجرها الخيل وكان ينود لى برأسه من هناك.

استطاع ايليتش ان يجتاز، وهو فى العربة، شوارع بطرسبورغ، وان يلتقى بالرفاق، ذلك ان جميع «الديسمبريين» الذين اطلق سراحهم، اذن لهم ان يقضوا قبل السفر ثلاثة ايام فى بطرسبورغ عند اسرهم. وقد حصلت على هذه المساعدة الفذة، لاول مرة، والدة تسيديرباوم (مارتوف) من اجل ابنها، وذلك بواسطة احد معارف مدير الشرطة زفوليانسكى، وفيما بعد، رأى مدير الشرطة ان من غير الممكن، وقد انشئ هذا العرف، ان يمنعه عن الاخرين. وبنتيجة ذلك تقابل ايليتش مع الجميع، والتقطت (الصورة المعروفة الجماعية)، واقيمت سهرتان، طال فيهما السمر والحديث، احداهما عند ستيبان ايفانوفيتش رادتشينكو، والاخرى عند تسيديرباوم. وقد تحدثوا وقالوا ان الشرطة قد احست بعد فوات الوقت انها ارتكبت خطأ جسيما اذ سمحت لهؤلاء الاشتراكيين - الديموقراطيين بالتجول فى بطرسبورغ، فهؤلاء ليسوا ابدا من الناس المسالمين، وقالوا ايضا ان زفوليانسكى قد وبخ من جراء ذلك. ومهما يكن من الامر فان مثل هذه التسهيلات «بالجملة» لم تعط بعد هذه الحادثة. واذا كان لا بد احيانا من استبقاء احد قبل نفيه، فذلك اما لاناس مرضى، او بناء على توصية خاصة. وقد التقى فى الاجتماعين «الشيوخ» مع «الشبان». وجرت مناقشات حول الخطة. وكان الاجتماع الذى عقد عند رادتشينكو على وجه الخصوص اجتماعا سياسيا صرفا. وكان الاجتماع الثانى عند تسيديرباوم

اكثر غليانا وصخبا. وقد حمي فى الاجتماع الاول وطيس الجدال بين «الديسمبريين» وبين من اصبحوا فيما بعد من انصار جريدة «افكار العامل».

وكان قد سمح لفلاديمير ايليتش ان يبقى كذلك ثلاثة ايام فى موسكو عند الاسرة. وبعد ان تقابل مع الرفاق قرر ان يتقدم للتوقيف فى موسكو، وان يسافر بقية الطريق معهم. وكان طريق السكة الحديدية الرئيسى الى كراسنويارسك انذاك قد افتتح لتوه، واصبح السفر مع قافلة المنفيين اقل مشقة من السابق، ولم يكن هناك سوى موقفين، احدهما فى موسكو والاخر موقف كراسنويارسك. ولم يشا فلاديمير ايليتش ان يستفيد من التسهيلات ويتميز عن الرفاق. واتذكر ان هذا الامر قد امض الام التى كان السماح لولدها بالسفر على حسابه الخاص اكبر مسكّن بالنسبة اليها. فبعد ان اثبتوا لها مبلغ اهمية السفر على حسابه الخاص، وبعد ان نقلوا اليها كلمة احد المنفيين القدماء اذ قال «ان النفى يمكن ان يتكرر، اما السفر مع القافلة فلا»، اذ ذاك قرر فلاديمير ايليتش ان يصرف النظر عن التسهيلات التى اخذت بجهد، وان يذهب مرة اخرى من تلقاء نفسه الى الموقف.

وحدث ان «الديسمبريين» الموقوفين فى بطرسبورغ لم يصلوا عند نهاية ايام التوقف الثلاثة فى موسكو، وفوق ذلك فان شرطة موسكو استدعت فلاديمير ايليتش وانذرته انذارا نهائيا، فاما ان يسافر غدا او يوقف فى الحال. وكانت رغبته فى السفر الى المنفى بمصاحبة الرفاق، تعنى، فى الواقع، قضاء وقت غير

معين فى سجن موسكو المرهق، منتظرا قدوم الرفاق. ولكن العقل السليم لا يرضى بطبيعة الحال ان تضيع القوى بهذا الشكل دون جدوى، بحجة عدم التميز عن الرفاق، وكان يعى على الدوام ضرورة ادخار القوى من اجل النضال الحقيقى، لا من اجل اظهار عواطف خيالية، وهكذا تغلب العقل السليم، وقرر فلاديمير ايليتش ان يسافر فى اليوم التالى. وكنا اربعة، امنا وشقيقتى ماريا ايلينيشنا وانا وزوجى مارك تيموفييفيتش، وقد رافقناه فى السفر الى تولا لتوديعه.

وصل فلاديمير ايليتش الى المنفى زعيما يعترف به الكثيرون. وقد عينه المؤتمر الحزبى الاول سنة ١٨٩٨ محررا لجريدة الحزب، وكلفه ان يدون منهاج الحزب. وفى هذه السنوات خطت الحركة الاشتراكية-الديموقراطية اول خطواتها واصعبها نحو الحياة الحزبية، نحو النضال الجماهيرى الواسع. كان جميع القادة تقريبا قد اعتقلوا، واعضاء المؤتمر الاول باجمعهم تقريبا قد اختطفوا، الا ان الاسس كانت قد وضعت. والمرحلة الابتدائية الاولى للحركة قد انتهت.

٧ - فى المنفى

قضى فلاديمير ايليتش مدة نفيه كذلك فى ظروف ملائمة نسبيا. فبناء على التماس الام سمح له، بسبب ضعف صحته، ان يسكن فى اكثر مناطق سيبيريا ملائمة للصحة، فى قضاء مينوسينسك. وقد عينت قرية شوشينسكويه مقرا لمنفاه، وكانوا يسمونها

اختصارا شوشا. وكان معه هناك اثنان او ثلاثة من العمال البولونيين. واما رفاقه فى العمل فقد ارسلوا الى قرى اخرى. ووقع تسيديرباوم (مارتوف فيما بعد) فى ظروف سيئة، ولعل ذلك لكونه يهوديا. فقد نفى الى اقصى نقطة فى الشمال، الى طوروخانسك، فى مستنقعات وغدران منعزلة منقطعة، وكان طوال مدة نفيه مقطوع الصلة بالرفاق. وكانت للاخرين امكانية التلاقى والذهاب بعضهم الى بعض فى الحفلات، كالاعراس او الاحتفال بعيد رأس السنة وما الى ذلك، والحصول على اجازة للسفر الى كراسنويارسك للمعالجة، كما سافر اخى الى هناك لمعالجة اسنانه. اما الروابط مع مارتوف فقد اقتصرت على الرسائل، ولذلك فقد نشط فلاديمير ايليتش فى كتابتها.

مضى الوقت عند فلاديمير ايليتش على وتيرة واحدة تماما بسبب العمل المجهد الواسع الذى اضطلع به. ففى مدة النفى الف كتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» (وقد صدر فى نيسان سنة ١٨٩٩)، وكتب جملة من المقالات نشر قسم منها فى مجلة «الماركسيين العلنيين» المنتشرة انذاك والمسماة «الكلمة الجديدة» ثم جمعت فى كتيب سمى «مباحث ومقالات اقتصادية».

وكان قد عود نفسه على العمل المنظم، فلم يسمح بفواصل كبيرة فى اوقات دراسته حتى عندما تعد هذه الفواصل امرا لا مناص منه، مثلا، فى عرض الطريق، او عندما يكون فى احوال غير مستقرة او فى حالة الانتظار. ففى غضون الشهر الذى قضاه فى كراسنويارسك فى انتظار تعيين محل اقامته، كان ينصرف يوميا الى المطالعة فى مكتبة التاجر يودين، على بعد ثلاثة

فرستات (١) من المدينة، وليس ذلك فحسب، بل انه استفاد من الايام الثلاثة التى سمح له فيها بالمكوث فى موسكو عند الاسرة، وتحايل للاستفادة بعض الوقت من مكتبة روميانتسيف لمطالعاته. و بذلك اوقع فى حيرة تامة، طالبا شابا اسمه ياكوفليف من معارف اسرتنا منذ الصغر، وقد هرع هذا للقاء فلاديمير ايليتش قبل ذهاب فلاديمير ايليتش الى المنفى لقضاء السنوات الثلاث. وكانت راحته، فى التنزه فى الغابات القريبة، وصيد الارانب والطيور التى كانت وفيرة فى تلك السنوات.

وقد وصف فلاديمير ايليتش فى احدى رسائله القرية التى عينت لاقامته، والتى كان يسميها، مازحا «شو ــ شو ــ شو» بما يلي:

«القرية كبيرة، وفيها بعض الشوارع القذرة التربة لحد كاف، وكل ما فيها على اتم ما ينبغى ان يكون. واذا وقفت فى السهل فلا بساتين ولا نباتات بصورة عامة. القرية مطوقة... بالقمامة، التى لا ينقلونها الى الحقول، بل يرمونها مباشرة فى اطراف القرية، ولكى تخرج من القرية، ينبغى دائما ان تمر على قسم من القمامة. ويمر نهير شوش بجانب القرية تماما، وهو الآن ضحل جدا. وعلى بعد فرست او فرست ونصف من القرية (او بالاصح، منى: فالقرية ممتدة طولا) يصب شوش فى نهر الينيسى الذى يكون هنا مجموعة من الجزر والقنوات، بحيث لا يبقى ممر الى المجرى الرئيسى للينيسى. وانا استحم فى القناة الكبرى

---

(١) الفرست يزيد قليلا عن الكيلومتر. (المترجم).

التى نضبت هى الاخرى الآن. ومن الجهة الاخرى (المقابلة لنهر شوش) على بعد فرست ونصف، تقع «غابة الصنوبر»، كما يسميها الفلاحون بابّهة، فى حين انها فى الواقع تعيسة جدا، فقد اجتثت اشجارها اجتثاثا، فلم يبق فيها ظل وارف (وعوضا عنه توجد كثرة من التوت الافرنجى) ولم تعد تشبه بشئ ادغال تايغا السيبيرية التى سمعت عنها فقط حتى الآن، الا اني لم اكن فيها (وهى تبعد عنا ما لا يقل عن ٣٠ - ٤٠ فرستا). اما الجبال... ووصفى لها بالجبال غير دقيق تماما، لان الجبال تبعد عنا خمسين فرستا، فليس بامكاننا الا ان ننظر اليها عندما لا تكون السحب قد حجبتها... ويمكن مشاهدتها كما يشاهد الجبل الابيض من جنيف. ولذلك فان اول (واخر) قصيدة من أشعارى (١) تتضمن بعض المبالغة الشعرية حول «السفح» (و مثل هذه التخيلات توجد عند الشعراء)... ولذلك فانى لا يسعنى ان اجيب على سوالك: «اى الجبال تتسلق؟» الا بقولى: اتسلق الكثبان الرملية الموجودة فيما اصطلح على تسميته بـ«غابة الصنوبر» - وعلى كل فالرمال وافرة هنا».

كانت الاسعار انئذ بخسة جدا فى سيبيريا. ففى السنة الاولى من المنفى، كان فلاديمير ايليتش ينفق على حاجاته شهريا

---

(١) فى رسالة من كراسنويارسك، حين اخبرنا فلاديمير ايليتش عن تعيين قرية بشوشينسكويه مقرا له، كتب مازحا انه بدأ ينظم قصيدة مطلعها: «فى شوش، عند سفح ألطاى». - حنة ايليزاروفا.

ثمانية روبلات، وهى جراية المنفيين، وكان يعيش فى غرفة عند اسرة من اسر الفلاحين تتولى سد جميع حاجاته.

وبعد سنة ذهبت اليه خطيبته ناديجدا قسطنطينوفنا كروبسكايا مع والدتها. فانتقل فلاديمير ايليتش الى شقة اكبر، واخذ يحيا حياة عائلية. وكانوا قد عينوا مدينة اوفا منفى لناديجدا قسطنطينوفنا، ثم سمح لها، حسب طلبها، ان تستبدلها بقرية شوشينسكويه التى عينت لاقامة فلاديمير ايليتش. وقد ترجم فلاديمير ايليتش سوية مع ناديجدا قسطنطينوفنا من اللغة الانجليزية كتاب الزوجين وب عن النقابات البريطانية (التريديونيون) وذلك بقصد الحصول على مدد مالى.

وكانت رسائل ايليتش الىّ فى تلك الاعوام كثيرة جدا. كان يطلب فى رسائله العادية الكتب،وبعض الحوائج، ويكتب عن المؤلفات التى يضعها، وعن حياته، ورفاقه. وكنت اكتب اليه بالمواد الكيماوية التى لا تقرأ، عن سير النشاط والعمل الثوريين فى روسيا، كما كان هو يبعث بمقالاته لارسالها الى «اتحاد النضال» فى بطرسبورغ او الى الخارج الى جماعة «تحرير العمل» لطبعها. وهكذا ارسل كراسه «مهام الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس» الذى طبع فى الخارج مع مقدمة بقلم اكسلرود، وجوابه على مذكرة «الاقتصاديين» فى ذلك العهد، التى وضعها كوسكوفا وبروكوبوفيتش والتى عرفت باسم «البرنامج». وبنتيجة ذلك اصبح هذا الجواب يعرف باسم «الرد على البرنامج». وفيه كتب فلاديمير ايليتش بحماسة كبيرة مفندا هذه الخلاصة الصريحة كل الصراحة، عهدئذ، لتلك النظرات القائلة بان على العمال

ان يكتفوا بالنضال الاقتصادى، وان يتخلوا عن النضال السياسى للاحراريين. الحق، ان هذه الخلاصة لم يضعها اشتراكيون ـ ديموقراطيون مناضلون، بل اناس كانت لهم عهدئذ مكانة بين الشبيبة. وعدا ذلك، فان النظرات البارزة جدا من تلك النظرات، قد اعطت الامكانية للتشديد بحزم اكبر على الانحرافات فى «المذهب الاقتصادى». وكان هذا الاحتجاج قد تلى فى احد الاجتماعات المذكورة بين الاشتراكيين ـ الديموقراطيين الذين يجيئون من مختلف القرى للاجتماع، وقد اقر حينئذ وارسل باعتباره «رد سبعة عشر اشتراكيا ـ ديموقراطيا»، وقد اصبح معروفا بهذا الاسم فى المطبوعات الحزبية.

وخلافا لاكثرية المنفيين، لم يتهالك فلاديمير ايليتش من اجل الذهاب الى مكان ازخر بالحركة، ولم يجهد لتغيير محله. فقد كتب مجيبا على اقتراح امه بالالتماس من اجل نقله الى المدينة (وذلك بعد عام او عام ونصف) ان الامر لا يستحق ذلك، وان الجولات الموقتة التى يقوم بها الى مينوسينسك او كراسنويارسك هى افضل، حسب رأيه، من الاقامة الدائمة فيها. وواضح ان الحياة فى قرية هادئة وفى مكان بعينه اعطته مجالا افسح ووضعا ملائما للمطالعة ولم تصرفه عنها، كما يحدث فى مراكز النفى الاكثر ازدحاما بالناس، حيث تولد البطالة الاجبارية، فيما تولد المنازعات التى هى اشد واقسى مظاهر الحياة فى المنفى وطأة. وقد كتب الي فلاديمير ايليتش، بمناسبة احدى هذه المنازعات التى ادت الى انتحار فيدوسييف فى فيرخولينسك،

يقول: «كلا، الاحسن ان لا تتمني لي رفاقا فى شوشا من المثقفين!» «ان اسوأ كل ما يحدث فى المنفى هى «منازعات المنفيين» هذه».

غير ان فلاديمير ايليتش كان احيانا يسافر عن طيب خاطر للاجتماع بالرفاق فى قرية اخرى تبعد ٥٠ او ١٠٠ فرستا، او يلتقى بهم فى شوشا. وكانوا يسمحون فى ذلك العهد بمثل هذه الجولات للاحتفال بعيد رأس السنة، او بحفلات الزفاف او ايام الميلاد. وكان الوقت يمضى، خلال هذه الجولات التى تدوم ٣ – ٤ ايام «بهيجا جدا»، كما كتب ايليتش: فقد كانوا يتنزهون، ويتوغلون فى طلب الصيد، ويستحمون فى الصيف، ويتزلجون على المزالج فى الشتاء ويلعبون الشطرنج. وكانوا يخوضون مختلف الاحاديث، او يتلون فصولا من كتاب فلاديمير ايليتش، او يتباحثون فى مختلف الاتجاهات الجديدة فى الادب او السياسة. وعلى هذه الصورة اجتمع الرفاق، بحجة الاحتفال بمولد ابنة ليبيشينسكى، لبحث «البرنامج» المذكور اعلاه. كما ان فلاديمير ايليتش سافر عن رغبة الى مينوسينسك وكراسنويارسك مرتين او ثلاث مرات اثناء مدة نفيه، وذلك باسم المعالجة.

وفيما عدا جماعة المنفيين التى نشر فلاديمير ايليتش بينها بصراحة اراءه والتى ساعد هو، عن طيبة خاطر، على تطويرها، مشيرا الى الكتب المفيدة، فقد اهتم بحياة الفلاحين الذين لا يزال عدد منهم يتذكره الى الان، والذين ارسلوا خاطراتهم عنه. الا ان احاديثه معهم كانت، بالطبع، تنم عن الحيطة. فقد كان

الفلاحون انئذ حتى فى روسيا، ولا اقول فى سيبيريا النائية، متأخرين جدا من الناحية السياسية. وعدا ذلك فقد كان القيام ببث الدعاية من قبل منفى فى مثل حاله عملا لا يتنافى مع العقل السليم فحسب، بل ويعد عملا جنونيا صرفا.

الا ان فلاديمير ايليتش كان يتحدث عن طواعية مع الفلاحين، الامر الذى مكنه من دراسة احوالهم، والاطلاع على نظراتهم الى الحياة، وكان يسدى اليهم المشورة فى كل ما يتعلق بشؤونهم المحلية، وفى الدرجة الاولى الشؤون القضائية، التى اخذ الفلاحون من اجلها يقبلون عليه من النواحى المجاورة، وكانت اسئلتهم وقضاياهم كثيرة جدا. وقد تحدث الفلاحون عن ذلك فى ذكرياتهم، كما تحدثت ايضا ناديجدا قسطنطينوفنا. وعلى اساس هذه الاحاديث والمحاورات التى اجراها فلاديمير ايليتش مع الفلاحين اثناء الصيد، حصل، بالتدريج من اقامته هذه فى القرية، وقبل ذلك من اقامته فى قرى حوض الفولغا، على تلك المعرفة التى احرزها عن الفلاحين وعن نفسيتهم، المعرفة التى اسدت اليه خدمة جلى سواء اثناء نشاطه الثورى، او فيما بعد، عندما امسك بدفة الحكم.

وقد كان يستطيع فى اثناء الاحاديث العامة ان يحل عقدة لسان محدثه حتى ينطلق على سجيته ويفضى بكل ما فى دخيلته.

وهكذا لم يعد فلاديمير ايليتش من المنفى ثوريا وحسب، ثوريا ذا تجارب وذا شخصية متبلورة محددة المعالم، غدت حتى ذلك الوقت مسموعة الكلمة فى الحركة السرية، وكذلك لم يعد شخصا اصدر مؤلفات علمية وحسب، بل انه عزز معرفته

بالفلاحين، وهم الفئة الاساسية من سكان روسيا، نتيجة لاقامته ثلاث سنوات فى ابعد القرى ايغالا.

وبهذا ينتهى القسم الاول من تاريخ حياة فلاديمير ايليتش حتى عودته من المنفى، حتى ذلك الوقت الذى انصرف فيه كليا، وقد بلغ الثلاثين من عمره، الى النشاط الثورى، ولكن فى مقاييس اوسع بكثير مما سبق، الى ذلك النشاط الذى رص صفوف بروليتاريا روسيا الثورية وقادها نحو الانتصار.

عودة ايليتش من المنفى
وفكرة اصدار «الايسكرا»

كان ذلك فى شباط سنة ١٩٠٠. وكنا جميعا، وخاصة الوالدة الفقيدة ننتظر هذا الشهر انتظارنا للعيد، فقد انتهت مدة نفى اخى فلاديمير ايليتش، وكان يجب ان يعود من سيبيريا. اننا لم نره منذ ثلاث سنوات، وكنا بطبيعة الحال ننتظر ايابه بفارغ الصبر. ولقد انتهت المدة فى احد ايام كانون الثانى الاخيرة، اى فى يوم توقيع الحكم بالنفى. وبقى هذا الطريق الطويل، الذى كان ينبغى قطعه على الخيل من قرية شوشينسكويه، عبر مينوسينسك، الى كراسنويارسك، مسافة ٣٥٠ فرستا، ثم فى السكة الحديدية. وعدا ذلك لم تكن قلوبنا مطمئنة بعد فيما اذا كانت مدة النفى قد استنفدت تماما، وانهم لم يلجأوا الى اية ذريعة اخرى لتمديدها. كنا نعيش فى ظل الحكم المطلق، وكان هذا النفى نفيا اداريا، او ما معناه تعسف السلطات دونما لجام. فاى اصطدام مع الرئاسة، واية ترة مهما ضؤلت من جانب الطواغيت المحليين، يمكن ان تتخذ حجة لتمديد اجل النفى.

ورغم ان امثال هذه الذرائع تقام عادة فى اماكن النفى ذاتها ازاء تهمة من التهم، الا انه قد حدث ايضا ان جاءت الاوامر بذلك من المركز ذاته، الذى كان يرى مثلا ان من غير المرغوب فيه مع اشتداد الحركة الثورية عودة الثوريين ذوى النفوذ من المجاهل الصماء.

ولذلك فان فلاديمير ايليتش وان كان قد عاش بتواضع وبصورة علنية لا غبار عليها، وراعى حدود الممنوعات لاقصى حد، الا انه كان غير مطمئن على مصيره، فكلما قاربت مدة نفيه نهايتها، ازداد قلقا.

فقد كتب الينا: «سآتيكم فى اليوم الفلانى، اذا لم يضيفوا الى المدة».

وقد زال هذا القلق، واستطاع فلاديمير ايليتش ان يسافر كما كان يتوقع، وقد عرفنا من رسالته او برقيته (ولا اتذكر ذلك الآن) يوم وساعة سفره وانتظرناه.

وكان الاخ الاصغر ديميترى ايليتش انذاك يعيش تحت المراقبة فى بودولسك، بمحافظة موسكو. فاستقبل قطار سيبيريا عند توقفه فى بودولسك وقدم سوية مع فلاديمير ايليتش الى موسكو.

وكنا نعيش حينئذ فى ضاحية موسكو عند زقاق كامركوليجسكى بشارع باخميتييفسكايا. وعند مشاهدتنا العربة قادمة، هرعنا جميعا الى السلم للقاء فلاديمير ايليتش.

وكان اول ما سمع صوت امنا تقول بحسرة مريرة:

ـ كيف كتبت لنا انك تعافيت، كم انت هزيل.

ـ الحق انى تعافيت. لكنى فى الاونة الاخيرة فقط، اى قبيل السفر انتكست.

وفيما بعد حدثتنا ناديجدا قسطنطينوفنا وقالت ان الهياج العصبى الذى انتابه قبيل انتهاء مدة النفى وعدم ثقته فى حلول ذلك الاجل حقا، قد اذاب تقريبا كل العافية التى اصابها اخى فى سيبيريا.

وفى تلك اللحظة، بعد التحية الاولى، ولما يكد يدخل معنا غرفة الطعام، اخذ فلاديمير يمطرنا بالاسئلة:

ـ وهل جاء يولي؟ اهناك رسالة؟ ام برقية؟

ويولي تسيدرباوم الذى عرف فيما بعد بالاسم المستعار مارتوف، كان قد نفى الى طوروخانسك فى قضية واحدة مع فلاديمير ايليتش، وانهى معه مدة نفيه فى وقت واحد. ولما كان يهوديا فقد قرروا نفيه الى ابعد منقطع واردأ منعزل فى محافظة الييني‍سى.

وقد اقلق جوابنا فلاديمير ايليتش، وقولنا اننا لم نتلق اى نبا عن يولي ولا نعرف عنه شيئا.

فاخذ يقول وهو يقطع الغرفة جيئة وذهوبا:

ـ كيف ذلك؟ لقد اتفقنا بهذا الصدد. ماذا يمكن ان يعنى ذلك؟ ينبغى ان نرسل اليه برقية. يا ديميترى ارجوك ان تأتى بورقة.

وانشغل فى تلك اللحظة فى انشاء البرقية والاستعداد لارسال اخيه، الذى استشعر، كما استشعرنا جميعنا، شيئا من الخيبة، فقد كنا نرغب رغبة طبيعية فى هذه اللحظات الاولى لقدومه ان ينصرف فلاديمير ايليتش بكليته الينا.

وقد ادهشنى ذلك، لانى كنت اعرف، عدا ذلك، ان فلاديمير ايليتش كان، قبل نفيه، اقرب الى سائر اعضاء الخلية، مثل كرجيجانوفسكى وستاركوف، منه الى مارتوف الذى انتمى الى الخلية مؤخرا: وكنت اعرف انه عاش فى المنفى على مقربة

من ذينك الرجلين (على بعد ٥٠ فرستا)، وانه تقابل معهما مرارا وتكرارا. وفى مثل هذه الظروف يزداد التقارب عادة.

هذا بينما كان فلاديمير ايليتش يتحدث عنهما قليلا وبلهجة عادية هادئة، اما الانباء المتعلقة بمارتوف فكان فى انتظارها على احر من الجمر.

وقد اوضحت ذلك لي الاحاديث التى جرت فيما بعد. فقد كان يعتبر تسيديرباوم من اقرب رفاقه فى النشاط المقبل، وفى الدرجة الاولى فى الجريدة التى ينبغى اصدارها لعامة الروسيا. وكان يطرى روحية يولي الثورية، ولم يقر له قرار قبل وصول الاخبار منبئة بانه سافر من طوروخانسك سالما. وكان ينشد لنا الاغنية التالية التى وضعها تسيديرباوم فى المنفى:

ليس هذا عواء وحش جائع
انها عاصفة ثلجية تدوى.
ومن خلال الريح تطرق السمع
قهقهة العدو الغالب.
تشجعوا يا اخوة، تشجعوا، فرغم
مصيرنا المرهق،
ننشد اغنيتنا بقوة.
فى روسيا رجال فى منتهى الحماسة،
وهم جديرون بازياء البطولة،
لكن سنوات النفي المديد
تطمس نضرتهم بسرعة.
واما الخمرة والدخان فيمسخان سجاياهم
الخ...

وكان ايليتش يغنى بينما اخته تعزف على البيانو، وقد انشد كذلك اغاني ثورية بولونية كان قد تعلمها من العمال البولونيين المنفيين، وكان ينشد قسما منها بالبولونية وقسما مترجما الى الروسية، ترجمة كرجيجانوفسكى.

وهذه هى الاغانى: «تعسفوا يا طغاة!» «اعاصير البغضاء» «العلم الاحمر». وانى لاتذكر جيدا كيف كان فلاديمير ايليتش يتخطر فى غرفة الطعام الصغيرة ذهابا وايابا وهو ينشد بحماس:

لون العلم الاحمر،

من لون دماء المناضلين.

وكان معجبا باغانى العمال البولونيين الثورية، وكان يقول بضرورة انشاء نظائرها لروسيا.

وفى تلك السنوات كان حوالى ستين نقطة فى روسيا ممنوعة على الاشخاص العائدين من المنفى، وهى العاصمتان، والمدن الجامعية، والمراكز الصناعية التى كانت حركة العمال قد شملتها، بينما فى سنة ١٩٠٠ كانت اكثرية المدن قد شملتها حركة العمال ولم يبق لاولئك الاشخاص الا ان يختاروا احدى المدن الباقية القليلة جدا. واختار فلاديمير ايليتش مدينة بسكوف وهو لما يزل فى سيبيريا، لانها اقرب الى بطرسبورغ، واتفق بشأن اتخاذها مقرا للاقامة، مع تسيدرباوم وبوتريسوف

(الذى ارسل الى محافظة فياتكا). وعرض على كليهما مشروع اصدار جريدة روسية عامة. وسافر تسيديرباوم الى بسكوف من بطرسبورغ حيث رأى اقاربه، اما بوتريسوف فقد قدم الينا فى موسكو، ولكن بعد رحيل فلاديمير ايليتش.

ولا اتذكر عدد الايام التى قضاها اخى عندنا. وخلال هذه المدة جاء لمقابلته من يكاترينوسلاف صاحبه القديم من سامارا لالايانتس، ــ الذى كان فى ذلك الحين عضوا فى لجنة الحزب الاشتراكى ـ الديموقراطى وفى هيئة تحرير جريدة «العامل الجنوبى». وقد بقى عندنا ثلاثة ايام. وكانت له محادثات مع اخى حول شؤون العمل.

وفيما بعد تحدث الي فلاديمير ايليتش قائلا انهما تناولا فى الدرجة الاولى مسألة دعوة المؤتمر الثانى للحزب، وكانا يريدان انذاك عقده فى روسيا. ولما حدثت الاعتقالات العامة فى الجنوب فى نيسان سنة ١٩٠٠، وكان لالايانتس من جملة المعتقلين، اقتنع فلاديمير ايليتش نهائيا بعدم امكانية عقد المؤتمر فى روسيا. وقد حدثنى عن ذلك فى شهر حزيران قبل سفره الى الخارج، عندما كان قد وضع خطة مسهبة لاصدار جريدة روسية عامة، تمتد فروعها التنظيمية الى جميع ارجاء روسيا، وتجمع حول المبادئ الاساسية جميع اللجان والخلايا المبعثرة فى انحاء بلادنا الشاسعة.

وقد قال: «انه اذا كان مجرد الاستعداد للمؤتمر وحده يستتبع مثل هذه الاخفاقات، ويكاد يطيح بالمنظمة من الاساس، و يؤدى الى اعتقال اكثر العاملين وزنا، لنتج من ذلك ان المؤتمرات

فى روسيا الاستبدادية امركمالى غير جائز. يجب البحث عن وسائل اخرى لتوحيد الحزب. وهكذا فان العلاج هو فى اصدار جريدة روسية عامة فى خارج البلاد، يشاد حولها الحزب، كما تشاد العمارة وترفع حول الدعائم».

ومن هذه الفكرة انبثقت «الايسكرا» مع شعارها القائل: «من الشرارة يندلع اللهيب». ولقد اضطلعت «الايسكرا»، والحق يقال، بمهمة توحيد الحزب، واشعلت حريق الثورة.

اعتقال ايليتش للمرة الثالثة. سفره الى اوفا ورحيله الى الخارج

كانت فرحتنا بعودة ايليتش من سيبيريا قصيرة. فبعد قضاء بضعة ايام عندنا فى موسكو غادرنا على عجل الى بسكوف. واذا بنا فى شهر ايار نسمع من جديد النبأ المزعج، فقد اعتقل ايليتش فى بطرسبورغ. واتذكر كيف صدمنا هذا النبأ بشدة، وكان وقعه بطبيعة الحال اشد على امنا، التى اصابها الجزع، رغم صلابتها التى اظهرتها غير مرة. فقد هدت منها هذه الاعتقالات، فاثناء نفى فلاديمير ايليتش اعتقل الاخ الاصغر ديميتري، الطالب فى الصف الخامس، فمكث تسعة اشهر فى الموقف، متهما فى قضية باطلة. وكانت الدلائل معدومة، ولم يكن فى اشتراكه فى حلقة تثقيفية ما يعد جرما، اما نشاطه فى معمل غوجون فلم ينكشف امره. كان اخى يشعر بنفسه فى سجن موسكو فى حالة سيئة، وعند نهاية توقيفه كانت قوى الام قد خارت.

وقبيل عودة فلاديمير ايليتش من المنفى بوقت قصير اعتقلت الشقيقة ماريا ايلينيشنا، بدون اى ذنب بين، فانقطعت دراستها فى جامعة بروكسل، ونفيت الى مدينة نيجنى نوفغورود، فكانت أمنا تسافرتارة الى تولا عند ديميترى، واخرى الى نيجني نوفغورود عند ماريا، وما كادت تتوصل الى ارجاع ماريا الى البيت واسكان ديميتري فى بودولسك، فى محافظة موسكو، حيث كنا مزمعين على قضاء اشهر الصيف، حتى داهمتنا نكبة جديدة، تنذر بشر اكبر. فقد قبض من جديد فى بطرسبورغ على فلاديمير ايليتش، الذى كان قد اظهر نفسه حتى ذلك الحين ثوريا خطيرا، بينما لم يكن يملك حق الذهاب الى بطرسبورغ، وفوق ذلك فقد قبض عليه ومعه جواز السفر.

ويعنى ذلك، طبعا، انه حرم من السفر الى الخارج. فما داموا قد اخذوا من ماريا ذاتها جواز السفر، ولم يسمحوا لها بالرحيل، لاتمام دراستها، فاحرى بهم الا يسمحوا له هو بالسفر.

لقد كنا نرغب له اشد الرغبة بالسفر الى الخارج، وكنا نرى ان البقاء فى روسيا لم يعد خيرا، مع هذه الروح الثورية. وليس ذلك وحسب؟ اذ من يدرى اية محاكمة كبيرة جديدة فى انتظاره. وقد كنا على اتم الجهل بظروف توقيفه هذه المرة. ولم يكن باستطاعتنا طبعا ان نتلقى رسالته المهدئة التى ارسلها بواسطة الدرك كامر جدى. واتذكر انه ارسل لنا رسالة كهذه. وقد عرفنا من التجارب المرة ان رسالته بعد كل اعتقال وقوله ان قضيته ستنتهى بعد اسبوعين او بعد

شهر ليست الا تهدئة، فى حين ان المدة ما تفتأ تطول. غير ان القضية فى هذه المرة سارت، بالعكس، سيرا غير متوقع بالمرة. فبعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع اطلق سراح فلاديمير ايليتش فقدم الينا فى بودولسك. ومعه، فوق ذلك، جواز سفره. ولم يجدوا بينة ضده، واعتبر فلاديمير ايليتش وتسيديرباوم اللذان اعتقلا معا بريئين الا من قدومهما الى بطرسبورغ بغير اذن.

وقد حدثنا اخى كيف جرت القضية كلها. لقد ذهبا سوية الى بطرسبورغ ومعهما سلة من المطبوعات، وكاد كل شئ ان يجرى على ما يرام، لو لا الافراط فى التستر. ذلك انهما قررا من اجل طمس اثرهما ان يغيرا فى عرض الطريق واسطة سفرهما، فينتقلا الى خط اخر من خطوط السكك الحديدية يمر عبر تسارسكويه سيلو، حيث كان يقيم القيصر، ولذلك كانت المراقبة اشد. ولقد ضحكوا منهما فى الشرطة من اجل هذا التكتم والتنقل. ومع كل ذلك لم يقبض عليهما فى الحال. وقد وفقا فى ايداع السلة بعد الوصول، والاجتماع بمن ارادا، دون ان يتعقبهما احد. وباتا ليلتهما فى مكان ما بزقاق كازانتشى. ولكن ما كادا يخرجان فى الصباح الى الشارع حتى القى الشرطة السريون القبض عليهما. وقد تحدث فلاديمير ايليتش قائلا: لقد امسك شرطيان بمرفقى من الخلف، بشكل لم يعطنى اية امكانية لارمى شيئا مما فى الجيوب. وكان الشرطيان فى العربة كذلك ممسكين بمرفقي طوال الطريق. وهكذا ايضا قبض على تسيديرباوم واقتيد مثلي فى عربة اخرى.

وكان فلاديمير ايليتش قلقا فى الدرجة الاولى من اجل رسالة معه الى بليخانوف كتبها بالمواد الكيماوية على ورقة

بريدية وتتضمن بعض الحسابات. وكان يخبره فى هذه الرسالة عن خطة اصدار الجريدة الروسية العامة، وكان ممكنا ان تنم هذه الرسالة عليه. ولم يعرف خلال الاسابيع الثلاثة كلها، هل شفت الرسالة عن شىء؟ فقد اقلقه اكثر من اى شىء، كون الحبر الكيماوى يظهر مع مرور الزمن احيانا من تلقاء نفسه. ولكن مرت الحادثة بخير، ولم يعيروا انتباها للورقة، فاعادوها الى اخى بالشكل الذى كانت عليه. وقد قدم فلاديمير ايليتش الينا فى بودولسك تشع منه البهجة. لقد اصبح بامكانهما السفر الى الخارج، وتحقيق خطة اصدار الجريدة الروسية العامة.

وكنا قد ذهبنا فى اوائل الربيع الى بودولسك حيث استاجرنا، عوضا عن البيت الريفى، شقة فى دار تملكها كيدروفا تقع فى نهاية المدينة، على ضفة نهر باخرا. وقد اقام فلاديمير ايليتش عندنا اسبوعا او اكثر، واشترك فى جولاتنا على الاقدام وفى الزوارق متنزهين فى الضواحى الجميلة المنظر من بودولسك، وكان يلعب فى الفناء لعبة الكريكت برغبة. وقد جاء لزيارته هناك ليبيشينسكى وجاءه كذلك شيسترنين وزوجته صوفيا بافلوفنا، وقد بات الاخيران ليلة عندنا، وانى لاتذكر كيف انتقد فلاديمير ايليتش بحرارة الموقف الذى تقفه جماعة جريدة «قضية العمال» فى الخارج، بينما كان الزوجان يدافعان عن ذلك الموقف. وجاء اليه اخرون، وقد اتفق فلاديمير ايليتش معهم جميعا على حروف الشفرة، واقنعهم بضرورة تنظيم المراسلات الصحيحة للجريدة الروسية العامة المرسومة التى لم يتكلم عنها الا مع الاقربين جدا اليه.

وكانت عند فلاديمير ايليتش امنية اخرى قبل سفره الى الخارج. كان يريد السفر الى اوفا واللقاء مع زوجته ناديجدا قسطنطينوفنا التى كان يجب ان تنتهى، قبل اذار سنة ١٩٠١، مدة وضعها تحت المراقبة.

وسافرت امنا الى بطرسبورغ لتلتمس الحصول على هذه المساعدة، وقد وفقت فى ذلك، مما اثار دهشتنا. وقد قالت هى فى دائرة الشرطة انها ستسافر سوية مع ابنها. وهكذا سافرنا ثلاثتنا بالقطار الى نيجنى نوفغورود لنستأنف السفر من هناك بالباخرة.

واني لاتذكر هذه الرحلة جيدا. وكان الوقت حزيران، والنهر زاخر العباب، والسفر فى الفولغا، ثم فى الكاما واخير فى نهر بيلايا، كان سفرا ممتعا لاقصى حد. فكنا نقضى سحابة النهار على ظهر السفينة. وكان فلاديمير ايليتش على ابهج حال. كان يستنشق بانتعاش عبق نسائم النهر وشذى الغابات المطلة عليه. واتذكر اننا كنا فى الليل نستغرق معه فى الاحاديث وقتا طويلا، فى حين يكون ظهر السفينة الماخرة فى الكاما وبيلايا قد خلا من الركاب. وكانت امنا تذهب تعبة الى المقصورة. اما الركاب القلائل فيكونون قد ذهبوا الى ماواهم قبل ذلك الوقت. فلا يبقى على سطح السفينة سوانا، هو وانا، فتحلو عندئذ الاحاديث عن النشاط السرى نزجيها فى هدأة النهر الوسنان وغفوة شطآنه الهاجعة. وقد حدثنى فلاديمير ايليتش حديثا شيقا مسهبا وشرح لي مشروعه لاصدار جريدة روسية عامة، عليها ان تقوم مقام الدعامات عند بناء الحزب. واشار قائلا ان الاخفاقات المتواصلة تجعل عقد المؤتمرات فى روسيا امرا غير ممكن.

وبالفعل فقد حدثت فى نيسان من تلك السنة ذاتها اخفاقات جسيمة كادت تجتث من الاساس جملة من المنظمات فى الجنوب باسره، ومنها ادارة تحرير جريدة «العامل الجنوبى» فى يكاترينوسلاف. وقد اعتقل هناك ايضا صديق فلاديمير ايليتش من سامارا، لالايانتس، الذى كان قبل ذلك، اى فى شهر شباط قد ذهب اليه للتفاوض معه حول عقد المؤتمر الثانى للحزب، وذلك عندما توقف اخى عندنا فى موسكو بضعة ايام وهو فى طريقه الى بسكوف.

«فلئن كان مجرد التحضير للمؤتمر يجر وراءه مثل هذه الهزائم، ومثل هذه الضحايا، يكون من الجنون اذن عقده فى روسيا. لا يمكن جمع شمل الحزب حول افكار الاشتراكية ـ الديموقراطية المفهومة فهما صحيحا، الا عن طريق جريدة تصدر فى الخارج، وتستطيع ان تشن نضالا مديدا ضد اتجاهات منها تجاه «الاقتصاديين». وبغير ذلك، وحتى اذا التأم المؤتمر، فسيشتت كله مرة اخرى بعد انفضاضه، كما جرى بعد المؤتمر الاول».

انا لا استطيع، بالطبع، ان اتذكر احاديثنا بالضبط بعد كل هذه السنوات المنصرمة، الا ان فحواها بصورة عامة قد رسخ فى اغوار ذاكرتى. لقد تحدثنا عن مواقف جماعتي «تحرير العمل» و «قضية العامل» وعن النزاعات بينهما. وكان فلاديمير ايليتش من فرسان الجماعة الاولى المتحمسين وكان يدافع عن بليخانوف ضد كل ما كان يوجه اليه من اتهام بالعجرفة وعدم الوداد، واتهام جماعته كلها بالجمود. وقد كنت اقول له، كما كان شيسترنين وغيره من رجال العمل يقولون له، انه لا يجوز لنا صرم الصلة

مع جماعة «قضية العامل»، ذلك لانها وحدها التى تصدر لنا المطبوعات الشعبية، وتنشر رسائلنا، وتنفذ طلباتنا، فلجنة موسكو مثلا قد ارسلت اليها منشور اول ايار لسنة ١٩٠٠، لطبعه، فى حين لم يكن يرتجى الخير من جماعة «تحرير العمل»، ولم يتوقع منها حتى الرد على الرسائل. وكان فلاديمير ايليتش يقول عنها انهم على كل حال شيوخ ومرضى لا يستطيعون القيام بالنشاط العملى الذى يجب ان يضطلع به الشبان فيساعدوا اولئك، واما نحن فبدون ان ننعزل فى جماعة بعينها، نعترف كليا بقيادتهم النظرية الحازمة والصحيحة كل الصحة. هكذا كان فلاديمير ايليتش يفكر فى العمل مع رفاقه فى الخارج.

وتحدثنا معه عن «البرنامج» و«الرد على البرنامج» وعن برنشتاين وكاوتسكى، وتحدثنا عن جميع القضايا الملحة فى ذلك العهد. وكان فلاديمير ايليتش فى ذروة من الحيوية، وكانت هذه الجولة التى قمنا بها معا ممتعة لاقصى حد، وقد بقيت كواحدة من احسن ذكرياتي.

وفى اوفا اجتمع فلاديمير ايليتش بالرفاق المحليين، واتذكر من بينهم كروخمال الذى اتفق معه على حروف الرمز، واعرف انه قد قدم انذاك من بعض الاقضية المنفيون السياسيون وتقابلوا معه. وقد قفلنا انا وامى عائدتين بعد ٣ ايام، اما هو فمكث وقتا اخر، ثم عاد بالقطار وتوقف بعض الوقت فى ساماراء. وفى كل مكان زاره اتفق بشأن تنظيم المراسلة وحروف الرمز. وعندما عاد الى بودولسك شد بسرعة رحال سفره الى الخارج. وبعد مضى اسبوعين سافرت انا ايضا الى هناك.

ديمتري اوليانوف وماريا اوليانوفا

مقتطفات من ذكريات عن لينين



فى المدرسة الثانوية

ديمترى اوليانوف

١

درس فلاديمير ايليتش فى المدرسة الثانوية دراسة ممتازة، وكان ينتقل من صف الى صف نائلا اعلى العلامات فى جميع الدروس والجائزة الاولى، وانهى المدرسة الثانوية فى سن السابعة عشرة محرزا المدالية الذهبية.

وعندما كان يكلف بكتابة موضوع فى الانشاء، لم يكن يكتبه قط فى عشية تسليمه، ولم يستعجل او يسهر الليل لذلك، كما كانت تفعل اغلبية رفاقه فى المدرسة. بالعكس، فقد كان فلاديمير ايليتش يعكف على العمل حالما يعلن الموضوع، وتعين مدة كتابته التى تستغرق فى المعتاد اسبوعين. وكان يكتب على ورقة صغيرة مشروع الانشاء مع مقدمته وخاتمته. ثم يتناول ورقة فيطويها من منتصفها طولا، فيكتب مسودة الانشاء على الشطر الايسر منها، ويدرج فيها الحروف والارقام وفق المشروع الذى وضعه. اما الشطر الايمن فيكتب فيه المبيضة. وفى الايام التالية يدخل الاضافات والشروح والاصلاحات، ويدرج كذلك الاسانيد، مع ذكر الصفحات.

ويتحول الشطر الايمن من الاوراق بالتدريج، يوما بعد اخر، الى مسودة هو الاخر وتختلط فيه سلسلة كاملة من النبذ والاصلاحات والمقتبسات وغيرها. ثم قبل حلول الموعد المحدد لتسليم الانشاء بوقت قصير، كان يأخذ اوراقا بيضاء وينسخ فيها الموضوع كله متضمنا بحوثه التى كان قد اعدها سلفا من مختلف الكتب. ولا يبقى بعد ذلك الا ان يأخذ دفترا ويعيد فيه كتابة الموضوع كله بالحبر كاملا جاهزا.

واقول عرضا ان فلاديمير ايليتش لم يكتب قط (فى المدرسة الثانوية) المسودات بالحبر، بل بقلم الرصاص فقط. وكان يشحذ قلم الرصاص شحذا دقيقا للغاية وبولع خاص، بحيث ان الحروف كانت تظهر عند الكتابة كخيط دقيق. وحالما ينثلم القلم او ينكسر كان يعيد شحذه بحماس جديد، حتى يعيده الى تلك الصورة المثالية.

كنت صبيا فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة، وكان يعجبنى جدا ان اتتبع كيف يكتب فلاديمير ايليتش انشاءه، فكنت فى غيابه القى النظر على الصفحة الاولى وادهش للسرعة التى كان يملا بها النصف الاول من الورقة باسطر جديدة وجديدة.

كان معلم فلاديمير ايليتش فى اللغة الروسية، الذى كان يعطيه العلامات فى الانشاء، هو مدير مدرسة سيمبيرسك الثانوية انذاك فيودور ميخايلوفيتش كرنسكى، والد الاشتراكى ــ الثورى المعروف. وكان ذاك يثنى على انشاء فلاديمير ايليتش، فكان فى اكثر الاحيان لا يقتصر على اعطائه علامة خمسة، وهى اعلى العلامات، بل كان يسجل له «خمسة وزيادة». وقد قال لامنا اكثر من

مرة انه معجب جدا بانشاء فلاديمير ايليتش لنسقه المتمعن فيه، ولغزارة الافكار فيه مع اختزاله، ولوضوحه وبساطته.

لقد احتفظت امنا لزمن طويل ببعض المواضيع الانشائية التى كتبها فلاديمير ايليتش فى المدرسة الثانوية، غير انه، ويا للاسف، بنتيجة التنقلات العديدة من مدينة الى اخرى، وتحريات الدرك وغير ذلك، فقدت جميعها.

لقد جعل فلاديمير ايليتش نبراسه فى كتاباته الانشائية المدرسية القاعدة الحسنة القديمة: خير الكلام ما قل ودل.

ماريا اوليانوفا

٢

كان فلاديمير ايليتش فى الصفوف الاخيرة من المدرسة الثانوية يقضى الامسيات كلها جليس الكتب، يتهيأ لذلك النشاط الثورى الذى ملأ وشغل كل حياته فيما بعد. واتذكر بوجه خاص العهد الذى قضاه بعد اكماله المدرسة الثانوية، اى السنوات التى كان يعيش فيها معنا فى قازان وسامارا، قبل رحيله الى بطرسبورغ.

فى ربيع سنة ١٨٨٧ (سنة انهاء فلاديمير ايليتش المدرسة الثانوية) بلغنا نبأ اعدام الاخ الاكبر. وقد انقضت منذ ذلك الحين عشرات السنين، غير اني الآن ايضا اتمثل امام عيني سحنة فلاديمير ايليتش، ويرن فى اذنى صوته حين قال: «كلا، لن

نسالك هذا السبيل، ولا ينبغي سلوك مثل هذا السبيل». واخذ يعد نفسه لولوج ذلك الطريق الذى كان يجب، حسب رأيه، ان يؤدى الى الانتصار، وهو قد ادى اليه فعلا.

وعندما كنا نعيش فى احدى القرى من محافظة سامارا، كان فلاديمير ايليتش يتوجه كل صباح بعد تناول الشاى، مثقلا بالكتب والقواميس والدفاتر، وينتحى زاوية من جنينة الدار، نصبت فيها منضدة ومصطبة. وفى هذا المكان كان فلاديمير ايليتش يقضى معظم النهار فى المطالعات العلمية. وهو لم يقتصر على قراءة الكتب، بل كان يدرس المؤلفين، ويتمعن فيهم، وكان يدون الملاحظات، وينقل المقتبسات. وكنت انا افد عليه فى هذه الزاوية ادرس معه اللغات، وكنت انا لا ازال عهدئذ صغيرة السن تماما، وكانت تهزني من فلاديمير ايليتش تلك المثابرة والدقة اللتان كان يبديهما فى انجاز العمل الذى يتعهده. وقد اوحى الى الناس هذا الشعور، وهو ان يفعلوا كل شيء، دونما الحاح عليهم، ليكون راضيا عنهم، ولينال عملهم رضاه.

كان فلاديمير ايليتش يقضى الايام بكاملها مع الكتب، لا يريم عنها الا حين التنزه او من اجل اجراء محادثات او مناقشات مع ذلك العدد القليل من الرفاق، ممن كانوا يهيئون انفسهم على غراره للنشاط الثورى. وهذه المقدرة على العمل، وهذه المثابرة قد رافقتاه طيلة حياته كلها. فكان فى المنفى، او فى الخارج يغتنم كل ساعة فراغ ليتوجه الى المكتبة. وقد احتفظ بالكثير من دفاتره وكتاباته، ومنها يمكن الحكم على جسامة عدد المؤلفات التى قرأها فلاديمير ايليتش فى جميع فروع المعرفة.

كان طيلة حياته يتعلم. لقد درس كتب المفكرين العظام، ودرس الحياة الواقعية، درس النظرية والتطبيق والوقائع والشواهد. وما كانت المدرسة الثانوية سوى بداية.

لم يكن فلاديمير ايليتش ليصير الى ما صار اليه، لو انه لم يعمل بجميع مواهبه الطبيعية ذلك العمل الدائب، فى اعداد نفسه خلال حياته كلها، ابتداء من سنوات الدراسة الثانوية.

فى سامارا وفى قرية الاكاييفكا (سنوات ١٨٨٩ - ١٨٩٣)

فى القرية وفى المدينة

ماريا اوليانوفا

١

فى ايار سنة ١٨٨٩ انتقلنا من قازان الى سامارا. وقد خامرت امنا فكرة شراء قطعة صغيرة من الارض، وذلك من الدراهم التى جاءتنا من بيع بيتنا فى سيمبيرسك. وبمساعدة من ايليزاروف، الذى اصبح فيما بعد زوجا لشقيقتي الكبرى، اشترينا من المدعو سيبيرياكوف قطعة ارض تقع على بعد ٥٠ فرستا من سامارا. وكان هذا الرجل سيبيريا ثريا من اصحاب مناجم الذهب، فاشترى فى اواسط العقد الثامن، من اصحاب الاراضى فى سامارا، ممن افتقروا، مساحة كبيرة من الاراضى، ليجعل منها استثمارا منظما ضخما مجهزا بالتكنيك. ويظهر ان هذا الرجل، سيبيرياكوف، كان يعتنق افكار الاحراريين اليساريين، او ربما كان اكثر يسارية منهم، وانه كان يميل، على ما يبدو، للقيام بدعاية ثورية بين الجمهور. وعلى كل حال فقد كانت عنده روابط مع النشطاء السياسيين.

وكان يقدم مساعدة واسعة للشعبيين، الذين قاموا بنشاط ثورى متواصل منذ نهاية سنوات العقد الثامن، فى منطقة الاكاييفكا (وهو الاسم الذى اطلق على قطعة ارضنا المجاورة للقرية التى تحمل هذا الاسم). وفى قرية سكولكوفو، مقر اقامة سيبيرياكوف، كان يعيش فى النصف الثانى من العقد الثامن الكاتب غليب اوسبينسكي مع زوجته التى كانت تشتغل معلمة فى المدرسة الابتدائية التى شيدها سيبيرياكوف. وفى هذه القرية كتب اوسبينسكى قصته المعروفة «القرى الثلاث»، وفيها وصف قرى سكولكوفو وزاغلادينو وغوارديتسي، وسكانها الحقيقيين. وفى هذه الناحية ذاتها، قام الشعبيون ببعض المحاولات المتتابعة لتنظيم استثمارات زراعية. (كالقفقاسيين (١)، زمرة اورلوف الذى غدا فيما بعد اشتراكيا-ثوريا، وقد نظم هذا استثمارا فى القفقاس، اقامه على اراضى سيبيرياكوف ذاته، واستثمار بريوبراجينسكى، وقد اقيم هذا الاستثمار فى اراضى قرية شارنيل، على بعد ثلاثة فرستات من الاكاييفكا، وكان قائما هناك فى عهد اقامتنا في ذلك المكان).

لم يستقم عند سيبيرياكوف ولم ينجح هذا المشروع الزراعى المخطط الواسع النطاق، رغم ما انفق على تنظيمه من مبلغ كبير. فقد اشترى من خارج البلاد ادوات فلاحة متقنة، وابتاع فيما ابتاع محراثين بخاريين، وشاد بقرب الاستثمار بنايات من الاجر والكلس من اجل الدواب والالات الزراعية وغير ذلك. غير ان الاستثمار لم يعد الا بالخسارة، واضطر سيبيرياكوف

---

(١) وصف هذا الاستثمار الكاتب كارونين (بتروبافلوفسكى) فى قصته «استثمار بور».

ان يتخلى عن مغامراته. وبيعت ادواته الزراعية بثمن بخس الى الماني كان يملك فى سامارا متجرا لادوات الخراطة والالات الزراعية. واخذ سيبيرياكوف يبيع اراضيه كذلك، ولم يستبق الا مقدارا من الارض تقوم عليها المدرسة الزراعية التى عزم على تنظيمها. وكانت قد بنيت فى ضيعة قسطنطينوفسكى، على بعد فرستين من الاكاييفكا، بناية لهذه المدرسة، كما اخذ فى اعداد ملاكات من المعلمين، كان فى عدادهم الكسييف احد اتباع تولستوى، وكان يعيش قبل ذلك فى ياسنايا بوليانا عند ليون تولستوى، وزوبريلين وهو متخرج من اكاديمية بتروفسكو — رازوموفسكايا، وغيرهما. غير انه لم يسمح بافتتاح المدرسة. ولا شك فى ان روابط سيبيرياكوف مع السياسيين قد لعبت دورا معينا فى هذا المنع، ذلك فضلا عن ان سفيربييف الذى كان حاكما فى سامارا انذاك لم يكن يحبذ مثل هذه المبادرات التثقيفية. وبعد ذلك بدأ سيبيرياكوف يصفّى كل اعماله ثم سافر الى بطرسبورغ، (ونقول عرضا انه لم يكن يقيم قبل ذلك فى محافظة سامارا الا فى فترات مترددا عليها).

ورمى بنا القدر الى هذه الناحية.

وابتاعت امنا هذه الارض املة من فلاديمير ايليتش ان ينصرف الى الزراعة. الا ان فلاديمير ايليتش لم يكن يميل الى الزراعة. وفيما بعد حدثتني ناديجدا قسطنطينوفنا انه قال لها ما نصه: «ارادت امي ان انصرف فى القرية الى الشؤون الزراعية. فلما بدأت ذلك، رأيته مستحيلا علي، فالعلاقات مع الفلاحين كانت تسير سيرا غير طبيعى».

ولكن لئن لم ينجح فى اعمال التثمير واضطر لتركها سريعا، فان البيت الريفى كان حسنا جدا، وقد قضينا فيه كل فصول الصيف. فقد كان هواء السهول هناك نقيا للغاية والسكينة مخيمة فى كل جانب.

فهناك على بعد بضع عشرات الامتار من البيت القديم ذى الطابق الواحد يقوم بستان يطل على منحدر ينتهى الى نهير. وكان لكل منا فى ذلك البستان زاويته المحببة اليه. فهناك ما كنا نسميه «سنديانة اوليا». وبالفعل فان شقيقتى الثانية كانت غالبا ما تجلس للمطالعة بقرب سنديانة قديمة سامقة. وكانت حنة ايلينيشنا تفضل ممر اشجار البتولا. وفى ممر قديم من اشجار الزيزفون، كان يحاط اكثر من غيره بالعناية، كان الظل الوارف ضاربا اطنابه، اذ كانت رؤوس الاشجار متدلية نحو بعضها مشكلة ما يشبه الرواق تماما. وكنا فى اغلب الامسيات نجلس او نتنزه فى هذا الممر. وكانت هناك بركة على مسافة عشرة دقائق، وكنا نذهب اليها للاستحمام. وحوالينا فى منسرح البصر ترى الوهاد والتلاع والغابات. فعلى مسافة غير بعيدة كانت تقوم غابة تسمى غابة مورافيلني، وفيها الكثير من التوت الشوكي، وكنا نذهب اليها فى غير ندرة. وكان فلاديمير ايليتش يذهب معنا اليها. فقد كان يحب الطبيعة حبا جما، وكانت احسن مباهجه واستراحاته على الدوام هى تجواله فى الاماكن الهادئة الخالية من الناس، و«ذات المناظر الطبيعية الاصيلة»، على حد تعبيره عندما وصف نزهاته فى الخارج.

لم تكن فى البيت الريفى مقصورة زجاجية، وكان يقوم مقامها ايوان مسقف يكفى تماما لتشغله أسرتنا عند الجلوس

حول السماور. وفى المساء كان الشباب جميعا يجلسون خلف المنضدة ومعهم كتبهم، بينا يوقد المصباح فى هذا الايوان ليمنع البعوض من الدخول الى الغرف.

وقد وصفت شقيقتنا الكبرى حنة ايلينيشنا هذا المنظر فى احدى محاولاتها نظم الشعر فقالت:

مضى هزيع من الليل، وغرق الجميع فى السبات
وغط كل شىء فى النوم.
العتمة جاثمة على الحقول،
والقرية هاجعة.
والقمر قد اطل من بين السحب
وغابت النجوم،
الا واحدة هنا او هناك.
وفى ايوان بيت ريفى،
تضىء ذبالة المصباح
وقد اكب على القراءة بجد،
لفيف من الناس.
كلهم جالس ينظر فى الكتاب
والسكون الشامل مخيم عليهم.
اما عينا ماشا فقد فترهما النعاس،
والفراشات والهوام تطوف حول المصباح
وقد اوحى اليها الدفء ان الصيف قد عاد
وعادت معه الحرارة.

وكنا فى هذا الايوان ايضا نتناول العشاء خبزا ولبناء كان يؤتى به فى اناء يوضع فى قبو لحفظ الاغذية.

وعلى اليمين من المدخل الصغير المؤدى الى الايوان كانت تقع غرفة فلاديمير ايليتش، التى كان يقضى فيها الليل فقط. اما فى الصباح فانه بعد شرب الشاى، كان يأخذ معه الكتب والدفاتر والقواميس، ويتوجه الى البستان للدرس. اما غرفته فتكون فى هذه اللحظة قد اسدلت فيها الستائر الزرقاء الداكنة او علقت فيها البطانيات «ضد الذباب» الذى كان فلاديمير ايليتش يكافحه على الدوام.

وكانت لفلاديمير ايليتش زاويته فى البستان، وكان قد نصب فيها لنفسه تحت ظلال الزيزفون منضدة خشبية ومصطبة، وعلى مقربة منهما اقام ارجوحة للرياضة. وكان فلاديمير ايليتش يقضى فى هذا المنعزل الوقت كله حتى موعد الغداء عاكفا بجد على عمله. وكانت عنده المقدرة على العمل، وكان يعمل بانتظام ودأب. ولم يكن يكتفي بقراءة الكتب وانما كان يدرسها ويعلق عليها. وكان يقرأ وفق برنامج معين. واتذكر انه فى السنوات التالية، كان يقول ان مجرد قراءة مختلف الكتب لا يغنى كثيرا. وفى احدى رسائله من سيبيريا تساءل هل يجتهد الاخ ديميتري، الذى كان انئذ فى السجن، وكتب فلاديمير ايليتش يقول: «ينبغى لهِ ان ينصرف الى دراسة موضوع ما دراسة منتظمة. اما ان «يقرأ» بوجه عام، فامر قليل الجدوى».

وكان فلاديمير ايليتش يرى انه ينبغى للمرء ان ينتخب موضوعا ما واحدا وان يجد فيه بانتظام. وقد عمل هو على

الدوام بصورة منتظمة. فكان فى الصباح، وهو على اتم نشاطه، يكب على دراسة ما هو اكثر جدا. فلا تراه يقرأ وحسب، بل يسجل الملاحظات ويدون الهوامش. وكان احيانا يترك الكتب ويذهب متخطرا جيئة وذهابا فى ذلك الممر بقرب المنضدة، مفكرا فيما قرأ. ثم يعود للجلوس ويستغرق فى المطالعة من جديد.

وكنت فى الصباح اهرع الى فلاديمير ايليتش فى هذه الزاوية لدرس اللغات. كنت اقرأ واترجم له كتابا بالفرنسية او الالمانية. واقول فى معرض الحديث ان فلاديمير ايليتش كان على الدوام يصر على ان ادرس جهد الامكان دراسة مستقلة لوحدي، اما انا فكنت لا التجىء اليه الا لمساعدتى فى الاماكن الصعبة جدا. ولم اكنَ اكتب الكلمات التى اجهلها، فى دفتر خاص، كما يفعلون ذلك عادة، وكان اخي يسألنى عن معانيها فى يوم اخر، ملفتا نظري اليها اثناء القراءة التالية، عندما نصادفها فى النصوص.

وكان فلاديمير ايليتش يذهب احيانا بعد الغداء كذلك الى زاويته المولع بها، ليقرأ كتبا اسهل. وكانت شقيقتي اولغا احيانا تذهب اليه فيقرآن الكتب معا (واتذكر من بين الكتب التى قرآها سوية، كتابا لغليب اوسبينسكى). وكانت اولغا من حيث سنها اقرب الجميع الى فلاديمير ايليتش، وكانا قريبين احدهما من الاخر فى المشاغل.

وفى الامسيات كانت تترامى الاغانى احيانا من دارنا فى الاكاييفكا، انه فلاديمير ايليتش يغنى بصحبة اولغا ايليينيشنا. فقد كان يحب الموسيقى والغناء الحب كله، وكان هو نفسه

يغنى عن طبع، ويصغى الى انشاد الاخرين، الى صوت ايليزاروف او الى الغناء الجماعى. واتذكر خاتمة احدى اغانيه، عندما كان ينشد اغنية «يا لعينيك النجلاوين». فكان يغنى فى انغام ممطوطة، المقطع الاخير «هلكت من اجلهما»، ثم يبتسم ويهز يده ويردد قائلا: «هلكت، هلكت».

ومن سيبيريا طلب فلاديمير ايليتش ارسال نوطات لغناء كرجيجانوفسكى، وكتب يقول: «اما سوآل ماريا اى صوت عند كرجيجانوفسكى؟ فاقول: ربما كان صوته من نوع الباريتون، اليس كذلك. ثم انه يغنى نفس تلك الاغانى التى كنا نحن ايضا مع مارك «نرفع عقيرتنا» بها، (على حد تعبير المربية)».

لم تقض اولغا ايلينيشنا معنا فى الاكاييفكا سوى صيفين. وكانت هذه فتاة ذات كفاءات ممتازة ومقدرة جسيمة على العمل. ولقد انهت المدرسة الثانوية محرزة المدالية الذهبية، وقد بذلت جهدا كبيرا دائبا فى تهذيب نفسها، وتعلمت اللغة الانجليزية، ودرست الموسيقى بجد، وقرأت كثيرا. كانت تميل لدراسة الطب، ولذلك قررت السفر الى هلسينغفورس، ذلك لان كلية الطب النسائية فى بطرسبورغ كانت مغلقة عهدئذ، فأخذت تتعلم اللغة السويدية، فتمكنت منها وترجمت عن السويدية. الا انها مع ذلك لم تقبل فى جامعة هلسينغفورس، اذ اتضح انه ما عدا اللغة السويدية، تلزم معرفة اللغة الفنلندية ايضا. وتلافيا لاضاعة الوقت فى تعلمها دخلت فرع الفيزياء والرياضيات فى الصفوف العليا ببطرسبورغ. وقد امضت شتاء سنة ١٨٩٠-١٨٩١،

فى دراسة مجهدة، وفى الربيع اصيبت اولغا ايلينيشنا بمرض التيفوس، ثم اصيبت بمرض الحُمرة فاشتدت عليها وطأة المرض، وفى الثامن من ايار قضت نحبها.

وكان فلاديمير ايليتش كجميع افراد أسرتنا حييا، فعندما كان يفد علينا ضيف لا نكاد نعرفه، وهذا ما كان يحدث نادرا جدا، كان يمكث فى غرفته او كان يخرج منها الى الحديقة عبر النافذة. كان هذا سلوكه عندما يزورنا اناس لا يرى فيهم ما يثير اهتمامه. وكنا نعيش فى الاكاييفكا حياة عزلة، وكان معارفنا قلائل. ومع ذلك فقد اقام فلاديمير ايليتش مع بعض السكان المحليين صلات التعارف.

لقد اشرت فيما مضى الى انه كان يوجد على بعد ثلاثة فرستات من الاكاييفكا استثمار «القبقاسيين»، على حد تعبير فلاحى القرية. وكان هناك بعض الشعبيين شغلوا الارض واشتروها بشروط متهاودة من سيبيرياكوف لغرض انشاء مشاعية زراعية نموذجية. ولكن الامور لم تجر معهم على ما يرام، فلم يلبثوا جميعا حتى نزحوا، ما عدا بريوبراجينسكى. وكان فلاديمير ايليتش يلتقى مع بريوبراجينسكي ويتناقشان كثيرا، وكانا يتنزهان احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل متجولين فى الطريق بين ضيعتنا وضيعة شارنيل.

وقد عرف بريوبراجينسكي هذا فلاديمير ايليتش ببعض الفلاحين ذوى الكفاءة الذاتية.

وكان فلاديمير ايليتش يجتمع كذلك بغونتشاروف، وهو طالب فى الطب، طرد سنة ١٨٨٧ من جامعة قازان لاشتراكه فى مظاهرة.

وكان يشتغل مساعد طبيب فى تروستانكا على بعد ٨ - ١٠ فرستات من الاكاييفكا. ولم يكن غونتشاروف ينتمى حينئذ الى اى حزب سياسى، الا ان ميوله كانت اصلاحية متطرفة. وكان يبدى نحو فلاديمير ايليتش احتراما فائقا.

وفى الشتاء عدنا الى سامارا حيث عشنا مع شقيقتنا المتزوجة وزوجها ايليزاروف. وكنت انا ادرس انذاك فى المدرسة الثانوية، وكان فلاديمير ايليتش كثيرا ما يساعدني فى دروسى. فاذا كان يلزمه الذهاب مساء الى مكان ما، فانه كان ينبهني عادة لذلك، ويطلب حضوري عنده قبل الموعد، ما دام لم يبرح البيت. وقد انطبع عندي فى ذاكرتي إثناء هذه الدروس اخلاصه الفائق فى كل مسألة يأخذها على عاتقه، كما كان يسعى ليغرس فى خصلته هذه. اتذكر انى كلفت فى درس الجغرافيا ان ارسم فى البيت خارطة اوربا. ففعلت وجئت برسمي اعرضه على فلاديمير ايليتش، الا انه انتقص عملي وطلب ان اعيد رسم الخارطة. وحدثني اثناء ذلك باسهاب كيف ينبغى ان امسك بالبرجال، وافتحه على القرطاس بالشكل اللازم، لا ان ارسم «بمجرد النظر» كما فعلت فى الرسم الاول. فعكفت بحماسة على العمل، وكنت مغتبطة عندما حاز عملي رضا فلاديمير ايليتش. ولكن ما كسبته خلال هذا العمل المشترك، مما هو اهم جدا من مسألة تعلم رسم الخارطة، هو ذلك المثال الذى ضربه فلاديمير ايليتش، وكيف يجب ان يكون بوجه عام موقف المرء من اى عمل يتصدى لانجازه. فلا يجوز انجازه كيفما اتفق، ولمجرد التخلص منه بسرعة،

بل يجب ان ينجز وفق خطة مدروسة موزونة، وبدقة ومثابرة، لكي يتم بصورة حسنة حقا، ويحوز الرضا فعلا.

وكانت المواظبة والدقة عند فلاديمير ايليتش تظهران احيانا حتى فى التوافه. فمن ذلك اني اردت مرة ان اهيئ لنفسى دفترا للدروس فتناولت اول بكرة وجدتها، واخذت اخيط دفترى بخيط اسود. وكان ايليتش حاضرا، فاستوقفني، وابدى ملاحظته قائلا: هذا لا يصلح، بل ينبغى ان تجدى خيطا ابيض.

وكان يزورنا فى شقتنا بسامارا، كما اسلفت، سكلارينكو ولالايانتس وفودوفوزوف الذى كان يأتى فى الغالب ليدرس مع شقيقتى الكبرى اللغة الايطالية، وما عداهم كانت تزورنا ليبيديفا وغولوبيفا، واتذكر ايضا يونوف وييراماسوف. وكان هذا الاخير من معارف ايليزاروف ويونوف فى سيزران، فكانا يأتيان به الينا. وهذا ما وصف به ييراماسوف اولى زياراته لعائلتنا:

«لقد خالجني شعور خاص عند زيارتي الاولى أسرة اوليانوف، التى كانت تكابد ذلك المصاب الفادح... وكانت اسرة ايليزاروف تقطن انئذ حى بوجتوفايا وسوكولنيتشيا، على مقربة من حى «المبعدين» على حد تعبير احد الحكام، وربما كان بريانتشانينوف، اى على مقربة من الحى الذى كان يقطنه عادة المثقفون الثوريون. واتذكر اننا ذهبنا اليهم مساء فى موعد شرب الشاى تماما. وكانت الاسرة كلها قد اجتمعت فى غرفة المائدة. وهنا تعرفت بماريا الكسندروفنا وحنة

ايليزيشنا وماريا ايلينيشنا وفلاديمير ايليتش. وعدا ذلك كان يجلس الى المائدة ابن اخ ايليزاروف الذى كان يعيش عند عمه ويتعلم فى المدرسة الثانوية.

ودار الحديث حول المواضيع العادية فى ذلك العصر، اى عن الشعبية وعن مصائر الرأسمالية وعن ف. ف. وعن نيقولاى اون الخ... وكان فلاديمير ايليتش لا يتميز باطلاعه على الادب وحسب، بل وفى مقدرته على كشف نقاط الضعف عند الشعبيين والذهنيين اشياع ميخايلوفسكي ومن اليهم. وبعد الشاى انتقلنا الى غرفة فلاديمير ايليتش حيث واصلنا الحديث. وقد اشترك فى هذا الحديث ايضا صاحبى يونوف الذى كان قد انشغل كثيرا فى مسائل تطور الرأسمالية فى روسيا وانقسام الفلاحين، وجمع اسانيد لهذه المسائل من المجموعات الاحصائية وكذلك من دراسته الشخصية لحالة الفلاحين. وتحدث ايليزاروف عن دراساته المستمرة لحياة الفلاحين فى محافظة سامارا، حيث ظهر فى ذلك الحين انقسام شديد فى طبقة الفلاحين. واتذكر ان حنة ايلينيشنا ايضا قد خاضت فى الحديث.

ومما اتذكره حتى الآن من نظرتى الى الغرفة انذاك، مجموعة من جريدة «الاخبار الروسية» كانت موضوعة على رف فى الحائط ازاء المنضدة. وكان فلاديمير ايليتش محتفظا بجميع الجرائد المقروءة، واضعا الاشارات على ما كان يهمه من اعدادها».

وبعد هذه الزيارة الاولى كان ييراماسوف يتردد علينا كلما قام بسفر الى سامارا.

ويتحدث بيراماسوف فى ذكرياته عن سامارا فى هذا العهد، عن ترجمة «للبيان الشيوعى» قام بها فلاديمير ايليتش.

كتب يقول: «لقد قام فلاديمير ايليتش فى ذلك العهد بترجمة رائعة «للبيان الشيوعى» لكارل ماركس وفريدريك انجلس. وكانت النسخة الخطية لهذه الترجمة تتناقلها الايدى، ثم اخذناها نحن معنا الى سيزران، حيث اعطيت انا الدفتر الى معلم كانت الادارة ترتاب فيه. وقد استدعى هذا المعلم فى قضية من القضايا الى سيمبيرسك عند مدير المدارس العامة. فارتاعت والدة المعلم وبادرت الى احراق الدفتر خشية من الكبس. هكذا كان مصير ترجمة ايليتش. واني لاتذكر هذا الحادث بوخز فى النفس، اذ كنت اعتبر نفسي مسؤولا بعض الشىء فى ابادة تلك الترجمة الرائعة».

كان بيراماسوف يزورنا نادرا فى سامارا، اذ كان يسكن فى سيزران بصورة دائمة، ولكن الرابطة معه كانت قوية خلال العمر كله. وهو وان لم يشترك فى العمل الثورى اشتراكا مباشرا، لكنه كان خلال عهد النشاط السرى كله يمد الحزب بالاموال، فقد كان عهدئذ رجلا ثريا، وكنا فى الاوقات العصيبة نلجأ على الدوام الى مساعدة «الزاهد»، كما كان يسميه فلاديمير ايليتش.

وبعد الثورة انتمى بيراماسوف الى الحزب بعض الوقت، ولكنه خرج منه بسبب وطأة المرض (سل الرئتين والكليتين)، واشتغل وقتا قصيرا فى متحف المعارف الشعبية، الا انه اضطر

للسبب ذاته ان يترك العمل. ولم يكن له مورد فساءت احواله المعاشية، ومع ذلك فانه لم يبادر مرة الى الكتابة عن ذلك، لا الى فلاديمير ايليتش، ولا الى اى فرد من اسرتنا، قبل ان نبحث نحن انفسنا عنه ونطلب له المدد المالى، لقد كان عظيما فى تواضعه. ولم يعش ييراماسوف بعد ذلك طويلا، ففى ربيع سنة ١٩٢٧ توفى فى سيزران.

وفى سامارا درس فلاديمير ايليتش كثيرا من اجل اعداد نفسه للامتحانات التى اداها سنة ١٨٩١ فى بطرسبورغ كمستمع خارجي. وبعد انهائها عاد الى سامارا وانصرف قليلا الى المحاماة واشتغل مساعدا عند المحامى خاردين.

وفى سامارا كنا نلعب الشطرنج كثيرا فى البيت، وكان فلاديمير ايليتش ايضا يجيد اللعب وكذلك الاخ الاصغر ديميترى ايليتش ومارك تيموفييفيتش. وقد وجد هؤلاء فى خاردين منافسا قويا، فقد كان هذا لاعبا من الدرجة الاولى فى الشطرنج. وقد اقمنا عندنا فى الشقة سهرات غير قليلة للعب الشطرنج. وفيما بعد اخذ فلاديمير ايليتش يلعب الشطرنج نادرا ثم لم يلبث ان عزف عنه تماما.

وفى خريف عام ١٨٩٣ انتقل فلاديمير ايليتش الى بطرسبورغ، وسائر افراد العائلة الى موسكو، حيث دخل اخي ديميترى جامعتها. وترتب علينا ان نبيع ضيعة الاكاييفكا، اذ لم يكن بالامكان الاستفادة منها كمصيف لنا. وقد ابتاعها التاجر المحلى دانيلين الذى جلبت اهتمامه الارض والطاحونة. اما البيت

والحديقة فلم يبق منهما بعد قليل سوى الذكرى، فقد نقل دانيلين البيت الى نيالوفكا، وقطعت اشجار الحديقة. وفى سنة ١٩٠٥ او سنة ١٩٠٦ قتل دانيلين على يد الفلاحين.

* * *

فى سنة ١٩٢٧ قمت بسفرة الى الاكاييفكا، وقد لاقيت عند الفلاحين اعظم ترحيب قلبى. وكانوا يتزاحمون فى السؤال مني عن فلاديمير ايليتش ويرددون قائلين «يا للاسف، لم نعرف نحن انذاك، من كان يعيش معنا»، وتساءلوا عن حنة ايلينيشنا، التى قامت فى سنة ١٨٩٢، عند انتشار مرض الهيضة فى محافظة سامارا، بجهود كبيرة لاسعاف المرضى بالادوية والتعليمات.

لقد نظمت الآن فى قرية الاكاييفكا مزرعة تعاونية باسم «زاوية لينين»، والمتوقع ان تتخذ لاحياء ذكرى لينين جميع التدابير لجعلها مزرعة مثلى. ويرأس هذه المزرعة التعاونية رئيسها «العم كوستيا» ـ قسطنطين ديميتريفيتش فيليبوف، وقد حضر اول مؤتمر للفلاحين التعاونيين المجلين عقد فى موسكو سنة ١٩٣٣. لقد تخطى «العم كوستيا» عهد الشباب، لكنه في العمل مجل، والمزرعة التعاونية فى نجاحاتها مدينة لجهوده الى حد كبير. وبمبادرة من الفلاحين التعاونيين فى مزرعة «زاوية لينين»، شيدت مدرسة باسم لينين، اقيمت مكان البيت الخشبى الذى كان فلاديمير ايليتش يقضى فيه الصيف، مهيئا نفسه للعمل الثورى.

٢

كنا فى الاكاييفكا نعيش فى بيت خشبى غير كبير يتصل بحديقة كثة الاشجار غير معزوقة يفصل بينها وبين الغيط خندق. وفى الركن الشمالى الغربى من الحديقة كانت تقع «زاوية فلاديمير» وقد ثبتت فى ارضها منضدة ومصطبة خشبيتان. وكانت هذه الزاوية غارقة كلها فى الخضرة حتى ان الشمس لا تكاد تنفذ اليها. ثم سرعان ان ظهرت من وطء الاقدام طريق ضيقة بطول ١٠–١٥ خطوة، كان فلاديمير ايليتش يتخطر فيها كثيرا مفكرا فيما قرأ. وكان فى حوالى الساعة ٩ صباحا يذهب عادة الى هذا المكان حاملا الكتب والدفاتر فينصرف الى الدرس حتى الساعة الثانية نهارا دون انقطاع. وكان هذا المكان خلال خمس سنوات، من ١٨٨٩ حتى ١٨٩٣ مكتب عمل حقيقى لايليتش. وكانت دراسته هذه منظمة بشكل يصعب معه علي ان اتذكر صباحا لم يدرس فيه هناك. وكان قد نصب على بعد خمس عشرة خطوة من المنضدة «جمنازا» كان يسميه ميدان الرياضة، وهو عبارة عن ارجوحة مستديرة ولكن بدون حبال، اسندت الى عمودين خشبيين. وكان فلاديمير ايليتش فى تلك السنوات يحب اداء التمارين على هذه الارجوحة. وكان هو قد اقامها من خشب القيقب المسحول سحلا جيدا، وثبتها فى علو يزيد قليلا عن المترين حتى انه لو وقف على اطراف قدميه لما بلغها باصابع يديه الا بصعوبة. وتكفى قفزة خفيفة

لمسك الخشبة باليدين. ثم يرتفع بقوة العضلات، ويرفع رجليه الى الامام، واذا هو قد ارتفع عن الخشبة حتى بطنه. ثم يقوم بحركات اخرى، منها حركة قضى وقتا طويلا حتى تمكن منها، وذلك حين يستند الى الخشبة بظهره لا ببطنه. لقد استمر باصرار شديد على تعلم هذه الحركة دون توفيق فيها. واخيرا جاءنى مرة وقال بلهجة الظافر وقد ارتسمت الابتسامة على فمه: «هيا بنا الى الجمناز، فقد استطعت مساء امس وصباح اليوم ان احفظ التوازن فى اخر الامر، تفرج!» ونجح تماما فى اداء هذه الحركة الصعبة. وكان فلاديمير ايليتش يلهث، ووجهه ينم عن الغبطة وهو يقوم بهذه الحركة، التى كانت تتلخص فى القفز الى الخشبة ومسكها باليدين والتدلى، ثم امرار الركبتين ثم الفخذين واخيرا الظهر، مع حفظ التوازن ثم الجلوس على الخشبة. اما انا فقد كنت نادرا ما اقوم بالحركات على خشبته ولذلك لم اوفق فى اداء هذه اللعبة.

تقع قرية الاكاييفكا على بعد خمسين فرستا شرقى سامارا، وهذا المكان سهلى بوجه عام، وكانت هناك غابتان بمحاذاة القرية، احداهما تعود للفلاحين وتسمى «مورافيلنى»، والاخرى كانت فى الماضى تعود للعائلة القيصرية وتسمى «غريمياتشى». وكنا نقطع قسما من الطريق من المدينة الى القرية بالقطار حتى محطة سميشلايفكا على سكة حديد سامارا ـ زلاتواوست، والقسم الاخر وطوله ثلاثون فرستا، كنا نقطعه على ظهر حصاننا. وكنت انا اسافر كثيرا الى المحطة. وعندما كان علي ان

ارافق فلاديمير ايليتش كان ينبغى ان نشد احزمتنا باحكام، فقد كان هو يلاحظ الوقت بالساعات، وكان فى الطقس الجاف يطلب غذ السير. فكان ينبغى لذلك ان نستنفر بالسوط الحصان الكسول، وان نستحثه طوال الوقت. ولم يكن فلاديمير ايليتش نفسه يحب قيادة الخيل، ولم يلاحظ عنده ابدا ميل الى ركوبها. وكان الطريق كله يمر عبر البطاح والحقول، اللهم الا بالقرب من الاكاييفكا حيث تبدأ الغابات. اذ ذاك نستنشق اريج الهواء العبق، والمنعش على الخصوص، بعد سامارا ذات الغبار!

لم تكن توجد انهار بقرب الاكاييفكا، الا انه كانت هناك بقرب الدار بركة كبيرة، تكثر فيها النباتات المائية وخاصة عند ضفافها. وكنا نؤمها مرتين فى اليوم للاستحمام، ولهذا الغرض هيانا فى مكان نظيف غرفة من الخشب. وكان فلاديمير ايليتش يجيد السباحة كل الاجادة، فكان يستلقى بصورة اصطناعية على الماء دون حراك واضعا يده تحت رأسه. وكنت انا اذهب الى البركة لصيد السمك والبط. وكان فلاديمير لا يحب صيد السمك، اما القنص فانه لم يكن يرغب فيه الا عندما كان يذهب فى نزهة ممتعة. ولذلك كنا فى ايام السكنى فى الاكاييفكا نذهب معه الى الغابات المجاورة لصيد القطا الاسود.

غير ان فلاديمير كان غالبا ما يذهب الى النزهات بدون بندقية، وكان يذهب وحده، او مع احد منا، او مع جماعة، اى مع شقيقاته وامه ومارك ايليزاروف، عندما كان هذا يعيش فى الاكاييفكا.

وفى الامسيات كان فلاديمير ايليتش ونحن كذلك جميعا نجلس عادة فى الايوان حول مصباح كبير كانت تحوم حوله الفراشات الليلية والحشرات بكثرة. وكان فينا من ينصرف الى القراءة او من يلعب الشطرنج. وهنا رأيت عند فلاديمير كتاب ريكاردو باللغة الانجليزية، وكان يقرأه مستعينا بالقاموس، ثم كتاب جيزو، «تاريخ الحضارة فى فرنسا» مترجما الى الروسية، وهو كتاب بمجلدات عديدة، يظهر ان فلاديمير استعاره من المكتبة العامة بسامارا.

وكان يعيش فى سامارا خلال تلك السنوات فودوفوزوف ابن الكاتبة المعروفة فودوفوزوفا، مؤلفة كتاب «حياة الشعوب الاوربية». وكان فودوفوزوف قبل مجيئه الى سامارا منفيا نفيا اداريا فى شينكورسك، بمحافظة ارخانجلسك. وكان فى اوائل اقامتنا فى سامارا يتردد علينا كثيرا، الا انه فيما بعد قطع تقريبا زيارته الينا. ولم يكن فلاديمير ايليتش يميل اليه. وكانت عند فودوفوزوف هذا مكتبة كبيرة، بحيث ان غرفته كلها كانت غاصة بخزانات الكتب، وكانت الكتب جميعها انيقة وذات اغلفة جديدة. وكانت مكتبته تعز عليه جدا، وكان كما يظهر، يحب الكتب اكثر من الناس الاحياء. واما فى قراءة الكتب، فلعله كان الاول فى المدينة، الا ان هذه القراءة، كما يبدو، قد ضغطت على دماغه بشكل لم يستطع معه ان يستنبط منها شيئا نافعا فى الحياة. لم يكن الرجل ماركسيا ولا شعبيا، وانما كان اشبه بموسوعة متحركة. وكان يجب الذهاب اليه لا من اجله هو بالذات، ولكن من اجل كتبه. وقد اخبروني

انه عندما اعتقل شقيقنا الاكبر الكسندر ايليتش بتهمة محاولة اغتيال القيصر، كانت اولى الكلمات التى تفوه بها فودوفوزوف هى قوله: «آه، يا للاسف، لقد اخذ مني الكتاب الفلانى القيم، لقد ضاع الكتاب الآن دون شك...»

فى اوائل سنوات العقد العاشر طرد من الوظيفة حاكم يدعى كوسيتش (ربما كان من ساراتوف)، وكانوا يقولون عنه انه احرارى كبير وانه كان يعطف على المنفيين السياسيين. وكان فودوفوزوف يتحدث عن ذلك، ثم قدم هو وجماعته اقتراحا بارسال رسالة ثناء الى كوسيتش، من السياسيين، او من العناصر اليسارية بوجه عام. وقد اثار هذا الاقتراح جدلا فى سامارا. وعندما عرف فلاديمير ايليتش بذلك عارض الاقتراح معارضة باتة وتكلم ضده بلهجة شديدة جدا. وهكذا على ما يبدو، لم ترسل الرسالة.

ومن بين رفاق اخي فى العهد الذى قضيناه بسامارا اتذكر جيدا سكلارينكو الكسي بافلوفيتش ولالايانتس ايساك كريستوفوروفيتش، الذى كان مارك تيموفييفيتش ايليزاروف يسميه «كولومبوس»، وقد بقى هذا اسمه المستعار فى السنوات التالية من النشاط الثورى، ويونوف فاديم اندرييفيتش الذي توفي قبل الاوان. اتذكر كذلك ماريا بتروفنا غولوبوفا التى كانت تتردد علينا كثيرا، وتشترك بنشاط فى المناقشات حول المواضيع السياسية.

وكان تلامذة الصفوف الاخيرة من المدرسة الثانوية والمدرسة الدينية يتلقون من سكلارينكو الكتب شبه الممنوعة،

من تأليف بيساريف وتشرنيشيفسكى ومن اليهما. وكان هذا الرجل يبدو لنا نحن الشباب محاطا بالاسرار. وكان مظهره الخارجى ايضا يستهوينا، اذ كان مديد القامة، قويا، وكانت عصاه ذات العقد لا تفارقه، كما كان يشبك على انفه نظارات قاتمة.

وقد اكب فلاديمير ايليتش فى تلك السنوات كثيرا على دراسة احصائيات مزارع الفلاحين. وكانت الارقام الاحصائية (تقسيم مزارع الفلاحين الى وحدات حسب عدد الدواب، ومقادير البذار، وبدلات ايجار الارض والخ) تتحدث عن ازدياد التباين الاقتصادى بين الفلاحين، وعن تجزؤ الفلاحين الى فئة مرفهة وقوية اقتصاديا وفئة الفقراء، اى الى بورجوازية الريف وجماهير الفلاحين البروليتارية وشبه البروليتارية. وهذه النتائج قد حطمت نظرية الشعبيين الطوباوية القائلة بتجانس الفلاحين، واثبتت بوضوح حقيقة تطور الرأسمالية فى روسيا. وهذه النتائج قد اكدت صحة النهج الماركسى فى سياسة الثوريين الروس.

وكان رفاق فلاديمير ايليتش، سكلارينكو ولالايانتس ويونوف كذلك منصرفين فى ذلك العهد الى تحرى المواد الاحصائية فى المسائل ذاتها التى كان فلاديمير ايليتش منصرفا اليها. وقد بقى مصونا عندي مخطوط غير كبير للرفيق سكلارينكو كتبته بنفسى سنة ١٨٩٣، وهو نموذج شيق للعمل الذى كانت تقوم به جماعة فلاديمير ايليتش.

واتذكر انني اطلعت فى سنة ١٨٩٣ ذاتها على مقالة

الرفيق فيدوسييف «اسباب سقوط نظام القنانة فى روسيا»، وكانت ايدى الماركسيين فى سامارا تتناقل نسختها الخطية. ولا اتذكر من الذى اعطاني اياها، الا اني، مع الاسف، لم استطع استنساخها، لانها كانت كبيرة جدا فى حين أعطيت اياها لمدة قصيرة للغاية. وقد اثبت فيدوسييف فى هذه المقالة الممتعة جدا ان اصلاح سنة ١٨٦١ لم تستدعه، بالطبع، الميول الاحرارية عند الفئات العليا، ولا الاعتبارات السياسية، كقولهم ان «تحرير» الفلاحين من فوق افضل من الانتظار حتى يبدأ التحرير من اسفل، وانما استدعته اسباب اقتصادية صرف. فقد كان يؤيد «التحرير» اكبر اصحاب الاراضى واكثرهم ثقافة، ممن كانت العلاقات القائمة على تاجير العمل بصورة حرة تعود عليهم بنفع اجزل. وقد اصبحت العلاقات القائمة على القنانة تعرقل اضطراد تطور الزراعة تطورا قائما على اساس التركيز الضخم والاقتصاد. فى ذلك الحين، اى قبل اربعين سنة، عندما كانت الاوهام الخرقاء الزاعمة ان القيصر وبطانته من كبار الملاكين يحبون الحرية، شائعة وتساند بقوة خاصة فى الوسط الاحرارى، ولدرجة ما بين الشعب، كان من الاهمية بمكان ان يقوم شاب ماركسى كفيدوسييف ويدحض هذه الاوهام الضارة بجماهير الكادحين، ويفند هذه الاكذوبة حول «تحرير» الفلاحين، ويبرهن على ان الاصلاح كان فى صالح الطبقة الحاكمة، وانه ان لم يكن فى صالحها كلها فعلى اقل تقدير فى صالح قسم منها، هو القسم الاكثر غنى واقوى اقتصاديا. وقد استفاد فيدوسييف من

المؤلف العديد المجلدات الذى الفه سكريبيتسكى وعنوانه: «قضية الفلاحين فى عهد القيصر الكسندر الثانى»، وسعى ليثبت ان اكبر الملاكين، وخاصة فى حوض البلطيق، ممن كانوا يتعاطون زراعة من اعلى طراز (من حيث ترتيب العمل وسرعته) كانوا جميعا يؤيدون «التحرير»، اى يؤيدون الشكل الجديد للاستعباد الرأسمالى الاكثر نفعا لهم. اما مزارع الملاكين المتأخرة والصغيرة والواقعة تحت اعباء الدين فكانت ضد الاصلاح.

لقد اصبح ذلك فى الوقت الحاضر امرا بينا لكل ماركسى متعلم، اما فى ذلك العهد، قبل اربعين سنة خلت، فقد كان هذا الامر يتطلب الاثبات. وليس عبثا ان قدر فلاديمير ايليتش مؤلفات فيدوسييف كل هذا التقدير، واخذ، كما هو معروف، يسعى للتعرف به.

ديميتري اوليانوف

٣. لعب الشطرنج

بدأ فلاديمير ايليتش لعب الشطرنج وهو بين الثامنة والتاسعة، وكان يلعب مع ابيه الذى كان اول معلم له، ومع اخيه الكسندر ايليتش، وفيما بعد اخذ يلعب معنا نحن الاصغر منه سنا، اى مع شقيقته اولغا ومعي. وكان هو لي معلما، ومعلما صارما جدا، ولذلك كنت اكثرما احب اللعب مع ابي، الذى كان يرأف بي فيسمح لي بتغيير الحركات.

وكان فلاديمير ايليتش متمسكا بقاعدة رائعة كان هو نفسه ملتزما بها على الدوام، فقد كان يطلب من غريمه عدم استرجاع الحركات فى اى حال من الاحوال، فاذا مسك اللاعب الحجارة عليه ان يتحرك بها. وهذه القاعدة كثيرا ما ينقضها اللاعبون، اذ يسترجعون الحركة، فتتوجب اعادة اللعب. وهذه العادة السيئة تتلف اللعب واللاعب معا لدرجة فظيعة. فعوضا عن مسك الاحجار وقبل مسكها، والتمعن بدقة فى مختلف الخطط للحركة، الامر الذى يضفى على اللعب عنصر الجاذبية، ويجعل المرء يحسب بدقة حساب عدة حركات الى الامام، نجد الناس يزيحون الاحجار دونما تفكير، ويستعجلون، ويطبعون اللعب بطابع التوتر والمخاطرة.

واتذكر طرفة، الحادثة التالية التى جرت فى سهرة للشطرنج بسامارا. كان اللعب يجرى على عدة رقاع، وكان هناك نفر يتفرجون على اللعب. وقد جلس حول احدى الرقاع شخصان بدينان لم يلبثا حتى استعادا الحركة، فتجادلا وتماحكا واحدثا صخبا. فقد نقل احدهما الفرزان صدفة فى حركة معرضا اياه المضرب، اما الاخر فاختطف الفرزان فى لمح البصر وشد عليه فى قبضته. فقام ضجيج وصراخ شديدان، ونهض الاثنان من خلف المنضدة، وكان الخاسر يحاول اختطاف حجره. انذاك صاح فلاديمير ايليتش وسط قهقهة الحاضرين «ضع الحجر فى جيبك!»

وكان فلاديمير ايليتش يلعب باهتمام، وكان لا يحب اللعبات «الخفيفة». وكان مع اللاعبين الضعاف، يعطيهم عربونا،

حجرا من احجاره، وذلك للاحتفاظ بتوازن القوى. وعندما يرفض غريمه ذلك عن اعتداد بالنفس، كان فلاديمير ايليتش عادة يقول: «وما فائدتي من اللعب بقوى متوازنة، ما دامت لا توجد هناك ضرورة للتفكير والكفاح والتخلص من المازق». وكان فوق ذلك يؤثر ان يكون هو اضعف، بعض الشيء، من غريمه الذى يعطيه العربون. وعندما ربحت انا بعض الاحيان اللعب معه وهو بدون الرخ، طلبت اليه ان ينتقل الى الفرس ويعطيها عربونا عوضا عن الرخ، فاشترط الشرط التالى قائلا: «اذا ربحت ثلاث لعبات متواليات، عندئذ انتقل الى الفرس».

ويلاحظ عادة عكس ذلك، فالاكثرية تروقها ان تربح اللعب، حتى ولو كان ذلك دون بذل جهد او عناء. اما فلاديمير ايليتش فكان ينظر نظرة اخرى. فقد كان الأمر الرئيسى الذى يجلب اهتمامه فى لعب الشطرنج، هو الكفاح الحاد، وان يأتى بافضل حركة، وان يجد السبيل للتخلص من المواقف الصعبة التى تكون فيها ابواب الامل موصدة تقريبا. اما الربح والخسارة بحد ذاتهما فقلما كان يعبأ بهما. وقد كان يرتاح عندما يأتى غريمه بحركات جيدة لا عندما يأتى بحركات ضعيفة. وكان يحدث احيانا ان يخبط خصمه فى اللعب فيغنم هو بسهولة، واذ ذاك يقول ضاحكا «لست انا الذى ربح، بل انت الذى خسر».

وبدأ فلاديمير ايليتش وهو فى الخامسة عشرة من سنيه يفوز فى اللعب مع ابيه. واتذكر ان ايليا نيقولاييفيتش دخل مرة غرفة الطعام (وكان ذلك فى شتاء ١٨٨٥ – ١٨٨٦) وقال مخاطبا اياه: «يا فلاديمير، انت اصبحت تغلبني فى

الشطرنج، ينبغي ان نعرفك بفلان لتلعب معه» (وكان يعنى شخصا يدعى ايلييين، كان يعتبر فى ذلك الحين احسن لاعب فى سيمبيرسك. ولم يكن يتردد علينا).

وفى صيف سنة ١٨٨٦ تبارى فلاديمير ايليتش كثيرا مع اخيه الاكبر الكسندر فى الشطرنج. فقد اعلنا مباراة بينهما. ولا اتذكر مع الاسف شروط هذه المباراة ولا نتائجها. الا ان الكفاح كان حامى الوطيس، وقد كان كلاهما يجلسان صامتين لا يغادران رقعة الشطرنج طوال ساعات. ولم اكن افهم قط انذاك لعبهما، وكان عسيرا علي ان افهم ذلك خاصة لانه لم تقم بينهما من اجل اللعب نزاعات ولا مجازفات بامكانها ان تسترعى اقل اهتمام، وحتى انه لم تجر بينهما اية محادثات.

اما قوة لعبهما فى ذلك الحين فيمكن ان نحكم على ذلك من الحادثة التالية. ففى ذلك الصيف ذاته، عندما كان الكسندر ايليتش يعيش فى كوكوشكينو بمحافظة قازان، فاز فى اللعب، «دون النظر فى الرقعة»، مع لاعب من الدرجة الاولى فى قازان، كان يلعب مع الاخرين بدون الرخ. والممتع فى الامر انه فى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه جولة الشطرنج هذه «بدون النظر فى الرقعة»، كان الكسندر ايليتش يلعب البليارد فى خمس كرات ويحسب النقط.

وكان الاخوان يخوضان مبارياتهما فى المساء فقط. فبالرغم من ان الوقت كان وقت العطلة الصيفية، وان كليهما كانا فارغين من العمل، فاني لا اتذكر، ولا مرة، انهما لعبا الشطرنج قبل الغداء. فقد خصصا ساعات الصباح للدراسة الجدية،

وهذا الواقع، فى رأيي، بليغ الدلالة وجدير بالتامل، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان الاخ الاكبر كان فى العشرين، وفلاديمير ايليتش فى السادسة عشرة من عمره لا اكثر.

فى هذا الصيف، وهو الاول بعد وفاة الوالد، شغلنا نحن نصف دارنا (بشارع موسكو)، وهو النصف الذى يقابل نهر سفياغا، واجرنا النصف الثانى، المقابل لمركز المدينة. وفى الغرفة الصغيرة التحتانية المقابلة للفناء كانت تجرى، عادة، مباريات الشطرنج بين الاخوين الكبيرين.

واتذكر، فيما اتذكر، هذا الحادث: فقد جلسا مرة فى هذه الغرفة امام رقعة الشطرنج مقطبين، وقد انير المصباح، وكانت النافذة مفتوحة، وعليها شباك من الاسلاك. وكنا نحن الاولاد نلعب فى الفناء، ومن خلال النافذة المضاءة كنا نرى هيكلى لاعبى الشطرنج جامدين صامتين. وكانت هناك فتاة فى الثانية عشرة، هرعت الى النافذة وصاحت: «يجلسان كالمساجين وراء القضبان»... فالتفت الاخوان بسرعة نحو النافذة، ونظرا نظرات فيها الجد، فى اثر الفتاة اللعوب الهاربة. ولم يكونا بعد قد رأيا قضبان السجن الحديدية، ولكن كان لا بد ان يرياها، فقد كانا يشعران بذلك، كما لو كان امرا لا مناص ولا مفر منه فى ذلك العهد.

وفى شتاء سنة ١٨٨٨ – ١٨٨٩ لعب فلاديمير ايليتش الشطرنج كثيرا، وكان يؤم النادى برفقة احد ابناء خؤولته. وكنا عهدئذ نعيش فى قازان بشارع بيرفايا غورا، فى دار اورلوف. وذات مرة فى ذلك العهد، جرب فلاديمير ايليتش

قواه فى اللعب دون النظر الى الرقعة. فدعاني الى غرفته، وقال انه سيلعب معى، دون ان يتخلى عن اى حجر، ودون ان ينظر الى الرقعة. ولم اكن قبل ذلك قد رأيت مثل هذا اللعب، ولكني تصورت انها ستكون لعبة صعبة للغاية، ولذلك جلست الى جانب رقعة الشطرنج مطمئنا، واردت ان اشوش عليه بحركات غير عادية وبمختلف «الاحابيل» دون ان ينتبه. وجلس هو على السرير واخذ يملى حركاته املاء. ولكن بالرغم من كل اللف والدوران خسرت انا بسرعة وتبدد لعبى هباء. ولكن فلاديمير ايليتش، مع ذلك، لم يهو اللعب بعيدا عن الرقعة، واني لا اتذكر بعد ذلك انه لعب هذا النوع من اللعب. وينبغي، عرضا، ان اقول ان هذه الطريقة فى اللعب، بالرغم من تأثيرها، مضرة بالغ الضرر، اذ تهبط دون شك بالمستوى الكيفى للعب، وتحدث فى الوقت نفسه ضغطا كبيرا على الدماغ.

وفى ذلك الشتاء ايضا نظم مارك تيموفييفيتش ايليزاروف مباراة بالمراسلة بين فلاديمير ايليتش وخاردين لاعب الشطرنج القوى فى سامارا. وكانت الحركات ترسل، بالبريد، وعادة بالبطاقات البريدية. وذات مرة، كان فلاديمير ايليتش، بعد ارساله احدى حركاته، ينتظر الرسالة الجوابية، فبسط امامه رقعة الشطرنج عدة مرات وكان يقول «من الممتع ان نرى ماذا يعمل هو الان، وكيف يتخلص من هذا الموقف، وعلى كل حال فاني سوف لا اجد جوابا شافيا»... واخيرا ورد الجواب الذى طال انتظاره. فبسطت رقاع الشطرنج فى الحال.

واهتممت بلعبهما، ولكن حركة خاردين بدت وكانها سخيفة، فبهت فلاديمير ايليتش فى بادیء الامر، ولكنه سرعان ما انتبه فيما بعد واخذ يمعن الفكر فى الموقف، وقال: «انه لاعب ذو قوة جبارة!» وينبغي القول ان خاردين كان فى الواقع لاعبا من كبار لاعبى الشطرنج. ففى سنوات العقد التاسع تغلب على احسن اللاعبين فى موسكو، ثم خاض بنجاح كبير مباراة مع تشيغورين. وبالرغم من ان خاردين لم يشترك فى مسابقات كبيرة، الا ان تشيغورين كان يعتبره واحدا من امهر لاعبى الشطرنج فى روسيا (راجع، على سبيل المثال، ترجمة ديوفرين، ملاحظات تشيغورين). وخسر فلاديمير ايليتش اللعبة بالمراسلة، ثم بعد الانتقال من قازان الى سامارا (ربيع سنة ١٨٨٩) تعرف شخصيا بخاردين، وكان هذا فى البدء يلعب معه بدون فرس. وبعد مضى سنة او سنتين اخذ فلاديمير ايليتش يفوز فى اللعب، فكان خاردين يتنازل عن بيدق وحركة اضافية، ولكن فى مثل هذه الحالة كان فلاديمير ايليتش غالبا ما يخسر اللعب.

كان اندری نیقولاييفيتش خاردين محاميا، الا انه كان مولعا بالشطرنج ولعا غريبا. فكان مكتتبا فى عدد كبير من المطبوعات الاجنبية الخاصة بالشطرنج، كما كان يقضى وحده ساعات كاملة امام رقعة اللعب. وكان يقول انه تعلم اللعب جيدا، بسبب انه اقام مرة فى مكان منعزل وكانت عنده اوقات فراغ كثيرة، فكان يجلس الايام الطوال يقرأ كتب الشطرنج ونظرية هذه اللعبة. ولم يلعب مع احد خلال ما يقرب من سنة تقريبا او يزيد عنها قليلا، وبعد ذلك تقابل مع تشيغورين، واظهر نفسه لاعبا من الطراز الاول.

وفى شتاء سنة ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ عشنا نحن، اى الاسرة كلها، فى سامارا، فى شارع زافودسكايا بدار كاتكوف عند حافة الفولغا. فى هذا العهد مال فلاديمير ايليتش، اكثر من اى وقت اخر، الى الشطرنج. فلعب، اكثر ما لعب، مع خاردين، كما كان يلعب ايضا مع غيره من لاعبى الشطرنج فى سامارا. وقد نظمت دورة مباريات اشترك فيها ٨ او ١٠ اشخاص. وكانوا يلعبون متخلين عن بعض الاحجار، نظرا لتباين قوى المشتركين فى اللعب. وكان خاردين وحده فى الدرجة الاولى، ومن الدرجة الثانية كان فلاديمير ايليتش ولاعب اخر، وكان سائر اللاعبين من الدرجة الثالثة والرابعة. وكان فلاديمير ايليتش هو الظافر فى المباراة. وكانت الجائزة الاولى مبلغا يناهز ١٥ روبلا، ولم يقتنوا به شيئا، وتقدم احد اللاعبين بالمبلغ ليقدمه للفائز. ولكن فلاديمير ايليتش رفض استلامه بتاتا، وحسب اقتراحه انفق المبلغ على بعض الشؤون.

وكان فلاديمير ايليتش يحب التردد على خاردين، وكان ذلك فى البدء من اجل الشطرنج على الاكثر، وفيما بعد، عندما قدم امتحاناته فى كلية الحقوق، وسجل عند خاردين مساعدا له فى المحاماة، كانت تربط بينهما كذلك اعمالهما المشتركة فى الشؤون القضائية.

لم يكن هناك قرين فى الشطرنج احسن من خاردين، وكان باستطاعة فلاديمير ايليتش، بالطبع، ان يعادله وان يتقدمه، لو انه انصرف بجد الى كتب الشطرنج، او لو انه، مثلا، كان يصرف اشهر الصيف، التى قضاها خلال هذه السنوات فى

قرية الاكاييفكا، على الشطرنج ونظرية هذه اللعبة. وما من ريب في انه، وهو المتصف بالدقة فى النظام، وبالمثابرة وقوة الفكر، كان يصبح فى بضع سنين، من كبار اساطين لعب الشطرنج. ولكن فلاديمير ايليتش كان على الدوام ينظر الى الشطرنج نظرته الى لهو ولعب. واتذكر اني، عندما كنت فى المدرسة الثانوية اعانى الارهاق من اللغتين اللاتينية والاغريقية اللتين كنا نحمل اياهما تحميلا، قلت له ذات مرة، خلال اللعب: أليس من الافضل ان تستبدل فى المدرسة هاتان اللغتان العتيقتان بالشطرنج لتمرين الدماغ. فاجاب قائلا: «لا فائدة من ذلك، وعليك الا تنسى ان الشطرنج، مع كل ذلك، ليس سوى لعب، لا عمل». واما ما كان يكتب عن الشطرنج، وهو كما نعلم كثير جدا، فان فلاديمير ايليتش قلما كان يهتم لقراءته، ما عدا خاتمة الجولات التى كانت تنشر لمسابقات الحلول، والتى كان هو يعرفها جيدا، ثم بعض الاستهلالات التى كان يميل اليها الجمهور فى ذلك الحين. وعلى كل حال فهو لم يحاول تعلم نظرية الشطرنج بصورة منتظمة، الامر الذى لا بد منه لكل لاعب كبير.

وهنا تتفق نظرته الى الشطرنج مع نظرة كارل ماركس وويلهلم ليبكنخت اللذين كانا يميلان كذلك، فى حينه، الى هذه اللعبة. فقد كتب ويلهلم ليبكنخت، ابو كارل ليبكنخت المعروف، فى ذكرياته عن كارل ماركس ما يلى: «وبوجه عام، فقد كان لعب الشطرنج عندنا يحتل المكان الاخير، فقد كنا ننصرف من جديد الى الدروس النافعة. اما انا نفسي، الذى

اشتهرت فى دائرتنا الصغيرة كلاعب شطرنج، فقد اقتنعت بصحة الرأى الذى قاله ليسينغ فى الشطرنج، حين قال: «انه لعب يتضمن الكثير جدا من الجد، وجد يتضمن الكثير جدا من اللعب». كنت مدعوا لحضور مباراة بين بعض اللاعبين المشهورين، وهناك، فى مجتمعهم، مجتمع الاختصاصيين، عرفت فى الحال، ان الحركات التى كنت قد ابتكرتها، والتى كنت افخر بها، انما هى حركات معروفة منذ مئات السنين. ووجدت نفسي فى حالة ذلك الفلاح من جبال البيرينه، الذى اخترع من جديد، فى عهد لودفيغ فيليب، ساعة من ساعات الابراج سبق ان اخترعت منذ اربعة قرون. وعرفت ان هناك كتبا كثيرة عن الشطرنج، واني ان اردت ان اكون فائزا فى لعب الشطرنج، فيجب علي ان ادرس هذه الكتب، وان انصرف كليا الى الشطرنج. غير اني لم استطع البت فى هذا الامر، وان اجعل من الشطرنج غاية فى الحياة...»

لقد ذكرت فيما سبق، انه عندما كان فلاديمير ايليتش يتبارى مع الكسندر ايليتش فى الشطرنج، فانهما لم يلعباه فى ساعات الصباح، فقد كان كلاهما فى هذا الوقت جالسين الى كتبهما ودفاترهما، وكانا يلعبان الشطرنج بعد الغداء واحيانا فى ساعات المساء. وفيما بعد، عندما كان فلاديمير ايليتش يعيش فى الاكاييفكا، كانت ساعات الصباح تخصص للعمل الذى يتطلب الكثير من الجد. وكانت عنده، فى البستان القديم غير المعزوق، منضدة ومصطبة نصبتا بين الاغصان الكثة، وقد وضعت هناك الكتب منذ الصباح الباكر، وعلى مقربة من هنا

امتدت طريق موطأة بالاقدام بطول ١٠ – ١٥ خطوة، كان هو يتخطر فيها، متاملا فيما قرأه. فلا ذكر لاى شطرنج فى هذا المكان، ولا لاية تسلية اخرى. وهنا كان ينبغي العمل، والدرس، والاستعداد لا للشطرنج، بل لامر اخر، للنضال الاشد خطورة. فخلال السنوات الخمس التى قضيناها فى الاكاييفكا، لا يسعنى الا بصعوبة ان اتذكر ٣ او ٤ ايام خرق فيها فلاديمير ايليتش نظامه اليومى هذا، او انه غير منضدته فى البستان، مع كتبه وطريقه الموطأة التى كان يتخطر فيها.

و ابتداء من سنة ١٨٩٣ اخذ فلاديمير ايليتش يقلل اكثر فاكثر من لعب الشطرنج. واما ما يخص لعبه فى المنفى السيبيرى (مع كرجيجانوفسكي وستاركوف وليبيشينسكي) فبالامكان مراجعة مقالة الرفيق ليبيشينسكي.

واخر مرة لعبت فيها الشطرنج مع فلاديمير ايليتش كانت فى سنة ١٩٠٣ بجنيف. وظهر انه لم تكن توجد فى بيته رقعة شطرنج، فوجدنا مقهى وجلسنا فيه للعب. وسألني فلاديمير ايليتش عما اريد شربه، فطلبت بيرة مونيخ. فنادى الخادمة وطلب اليها ان تأتي بكوب من البيرة وفنجان من القهوة. وقال وفى عينيه بريق ماكر «اما انا فلا تعجبني البيرة»... ثم لعبنا اكثر من اربع ساعات برتية واحدة، وكنا مكبين بحيث ان المحيطين بنا هناك اخذوا اخيرا يضحكون منا.

وبعد الثورة لم يلعب فلاديمير ايليتش الشطرنج بالمرة تقريبا، وكان يقول انه متعب جدا، فكان يفضل فى اوقات الفراغ ان يلعب لعبة الغورودكي والتنزه والصيد.

ديميتري اوليانوف

٤. ما جرى مع التاجر اريفييف

كنا فى السنوات الاولى من العقد العاشر نعيش والاسرة كلها في سامارا مع امنا. وكان فلاديمير ايليتش يشتغل مساعد محام. وكنا مع ماريا ايلينيشنا ندرس فى المدرسة الثانوية وكانت تعيش معنا كذلك حنة ايلينيشنا وزوجها مارك تيموفييفيتش ايليزاروف الذى كان يشغل وظيفة متوسطة فى ديوان المالية، على ما اذكر.

وفى صيف سنة ١٨٩٢ ذهب فلاديمير ايليتش برفقة ايليزاروف الى سيزران. ومن هناك استعدا لسفر بضعة ايام الى قرية بيستوجيفكا حيث كان اخو مارك تيموفييفيتش يتعاطى الزراعة. ولهذا الغرض كان ينبغي ان يعبرا الى الضفة اليسرى من نهر الفولغا.

وكان النقل عبر الفولغا فى ذلك الحين مؤجرا بصورة احتكارية الى التاجر الثرى اريفييف. وكان هذا يملك زورقا بخاريا كان يشده الى عوامة ينقل عليها الناس والخيل والاثقال. وكان التاجر قد حرم على اصحاب القوارب النقل عبر النهر، منافحا بحرص عن حقوقه الاحتكارية. ولذلك، كلما اراد احد نوتية القوارب نقل الركاب فى حدود المنطقة التى سيطر عليها اريفييف، كان الزورق البخارى يلحق بالقارب ويضطر الجميع الى العودة.

لم يرد فلاديمير ايليتش ان ينتظر حركة العوامة، واتفق مع مارك ايليزاروف على ان يذهبا فى احد القوارب. ولكن نوتية القوارب لم يوافقوا على نقلهما خوفا من التاجر، قائلين،

ان التاجر سيحملهما على العودة. الا ان فلاديمير ايليتش استطاع ان يتفق مع احدهم على الذهاب، مثبتا له فى الوقت نفسه بحماسة انه اذا اعاد اريفييف القارب، فانه سيحال الى المحكمة جزاء تعسفه.

جلسا فى القارب فاندفع بهما لعبور النهر. فرأى اريفييف ذلك من المرفأ، حيث كان جالسا على الشرفة وامامه السماور، فاخذ يصيح مخاطبا مارك الذى كانت له به معرفة لكونهما من مسقط رأس واحد:

ـ دعك من هذه المجازفة يا مارك تيموفييفيتش. فانت تعرف اني ادفع بدل ايجار من اجل العبور، ولا اسمح لاصحاب القوارب بالنقل الى ذلك الجانب. الاحسن لك ان تأتى عندي وتشرب الشاى، وتأتى بصديقك معك. وعلى كل حال ستذهبون بالزورق البخاري وسأحملكم على العودة.

واخذ فلاديمير ايليتش الآن يصر بحزم اكبر على المضى فى السير وعدم الاصغاء الى الارعن. وقال نوتى القارب بيأس:

ـ سيضطرنا للعودة على كل حال، وذهابنا دون جدوى، الآن سيلحق بنا الزورق البخارى ويسحبنا بالصنارة اليه، ويجلسوننا فيه.

فقال فلاديمير ايليتش:

ـ فلتفهم اذن، انه لا يحق له ان يفعل ذلك. فاذا استوقف القارب واجبرنا على العودة، فسيزج فى السجن جزاء تعسفه.

ـ كم مرة ارتكب مثل ذلك، ولم تجر اية محاكمة ابدا. ثم من الذى يقف امامه فى المحكمة، لقد اصبح ذا سطوة فى سيزران، والحكام الى جانبه، ولا بد ان يكونوا كلهم من صحبه.

لقد ابتاع الفولغا بمحاذاة المدينة، وهو يدفع بدل ايجار عن ذلك، وليس باستطاعتنا ان نفعل شيئا.

وبناء على اصرار فلاديمير ايليتش استمر القارب فى مسيره الى الضفة اليسرى، رغم انه كان واضحا ان اريفييف سينفذ تهديده. اذ ما كاد الزورق يصل الى منتصف النهر، حتى سمع صفير الزورق البخارى الذى انفصل عن العوامة، واخذ يسرع نحو القارب.

وقال نوتى القارب متهكما: ها قد وصلتم. الآن ستعودون القهقرى. ولا تستطيع اية محكمة ان تفعل شيئا، وسيكون هو محقا على الدوام.

ولحق الزورق البخارى بالقارب، وتوقف محركه عن الحركة. وسحب القارب اثنان او ثلاثة من النوتية وادنوه بمهارة الى الزورق، وطلبوا الى الركاب ان ينتقلوا الى الزورق البخارى.

واخذ فلاديمير ايليتش يشرح لمستخدمي الزورق انه لا يحق لهم ان يستوقفوهم وانهم سيتقدمون الى المحكمة جزاء عمل القسر هذا، الذى يستتبع السجن.

واخذ يثبت لهم قائلا:

ـ وليست هناك اية اهمية لكون اريفييف قد استأجر معبر النهر، فهذا من شأنه وليس من شأننا. الا ان هذا لا يعطيه، ولا يعطيكم انتم باى حال، حق البغى فى الفولغا ومنع الناس قسرا.

وقال القبطان معترضا:

ـ نحن لا نعرف شيئا، فقد امرنا صاحب الزورق، ونحن ملزمون ان نسمع وننفذ ايعازاته. تفضلوا وانتقلوا الى الزورق، وسوف لا نسمح لكم بالذهاب.

واضطروا للرضوخ، الا ان فلاديمير ايليتش اخذ فى الحال يسجل اسماء والقاب جميع المستخدمين الذين اشتركوا فى حجز القارب وكذلك نوتى القارب والشهود الاخرين.

وتوجب عليهم فى شاطئ سيزران ان ينتظروا العوامة بعض الوقت، ومن جديد سمع صوت اريفييف يسرد بلهجة الظافر حججه ويقول، انه يدفع بدل الايجار، وان نوتية القوارب لا يملكون حق النقل الى الجانب الاخر، وانه لهذا السبب يمنع القوارب ويضطر الناس للعودة.

ولا شك فى انه كان هناك اناس يرون رأى العين ان التاجر انما يعمل عملا غير شرعى، الا انهم لم يستطيعوا او لم يريدوا ان ينازلوه فى المحكمة. فبعضهم كان يرى عدم فائدة ذلك من الناحية المادية، والبعض الاخر، كان يرى سلفا اكداس العرائض التى ينبغي تقديمها، وتاجيل مواعيد المحاكمات وغير ذلك، فتمنعه طبيعة الخمول والكسل «الروسى» عن خوض النضال.

وكانت تكفى فلاديمير ايليتش ان يطلع خلال بضع ساعات على الحالة فى هذه الزاوية المنسية، حتى يلقي درسا على المذنب، ويعلم النوتية كيف يجب ان يناضلوا من اجل حقوقهم.

وبعد بضعة ايام عندما عاد فلاديمير ايليتش الى سامارا رفع دعوى ضد اريفييف، متهما اياه بارتكاب اعمال التعسف. وكان الامر بينا لدرجة الوضوح، ولم يستطع احد من الحقوقيين ان ينظر الى عمل اريفييف سوى انه عمل عنف، وكان عمل العنف يستتبع، حسب قوانين ذلك العهد، السجن دون استبداله بالغرامة.

ولكن التوصل الى هذا الامر تطلّب من فلاديمير ايليتش بذل نشاط كبير. وقد احيلت القضية الى رئيس مجلس الزمستفو بالقرب من سيزران، على بعد مئة كيلومتر من سامارا، وكان يجب على فلاديمير ايليتش الذهاب الى هناك بصفته المدعى. وبالرغم من ان القضية كانت على اتم الوضوح، فقد اجل رئيس الزمستفوَ النظر فى الدعوى متذرعا ببعض الحجج، وفى المرة الثانية كان الخريف البارد قد حل، وتعين النظر فى القضية. وسافر فلاديمير ايليتش الى هناك، ولكن فى هذه المرة ايضا، اجل رئيس الزمستفو القضية متوسلا بمختلف الذرائع والمغالطات الشكلية.

وكان واضحا ان اريفييف، وقد رأى انه اسقط فى يده وعرف العقوبة التى تنتظره، التجأ الى جميع الوسائل كى يؤجل القضية جهد الامكان. وقد تراءى له ولو كلاء دفاعه، ان هذا الرجل غير الهادئ، الذى ياتي من بعد مئة كيلومتر دون ايما نفع يتوخاه، ودون ايما فائدة من وجهة نظرهم، سيترك الدعوى فى اخر الامر ويذهب الى حال سبيله. ولم يعرفوا ان هذا ليس رجلا عاديا كالرجال الذين يعرفونهم، وانه كلما ازدادت فى طريقه العقبات، ازداد عزمه صلابة ومضاء.

وفى المرة الثالثة للنظر فى القضية، كان الشتاء قد حل عندما استلم فلاديمير ايليتش الدعوة لحضورها، وكان ذلك فى نهاية سنة ١٨٩٢. واخذ يستعد للسفر. وكان القطار يمر عند الفجر او ربما فى الهزيع الاخير من الليل، وذلك يقتضى سهر الليل، والانتظار بسأم فى غرفة رئيس الزمستفو وفى المحطات

وغير ذلك. واتذكر جيدا كيف حاولت الام بكل جهدها ان تقنع اخى بعدم الذهاب.

ـ اترك انت هذا التاجر، انهم سيؤجلون القضية مرة اخرى، انت تسافر دون جدوى، وتعذب نفسك فقط. وعدا ذلك خذ بنظر الاعتبار انهم هناك يضمرون لك الشر.

ـ كلا، فما دمت قد بدأت القضية مرة، فيجب علي ان اصل بها الى نهايتها. وسوف لن يستطيعوا فى هذه المرة ان يؤجلوها مرة اخرى.

ثم اخذ يطمئن امه.

وفى الواقع، لم يستطع رئيس الزمستفو فى المرة الثالثة ان يؤجل الحكم فى القضية. فقد وجد هو ومحامو اريفييف فى فلاديمير ايليتش خصما خطيراً، مستعدا استعدادا حسنا لخوض هذه المعركة، واضطر رئيس الزمستفو، طوعا او كرها، ان يصدر حكمه وفقا للقانون بالسجن شهرا واحدا.

ومضت سنتان على هذه الحادثة، وكنت مارا بالقطار قرب سيزران والتقيت صدفة فى العربة باحد معارف مارك تيموفييفيتش فى سيزران. فسألني اثناء الحديث عن ايليزاروف وعن اسرته وابدى اهتماما بالغا بفلاديمير ايليتش.

ـ لقد قضى اريفييف انذاك شهرا فى السجن. وقد سعى ما سعى ليتخلص فلم يفلح. وقد عرفت المدينة كلها بالخزى الذى لحقه، واما ما شاع عنه فى المرفأ فحدث عنه ولا حرج. فذلك ما لم ينس حتى الآن.

ديميترى اوليانوف

شغفه بالموسيقى

عندما كان فلاديمير ايليتش صغيرا تعلم الضرب على البيان. وعلى حد تعبير امنا كانت له اذن موسيقية مرهفة، وكان يستوعب الموسيقى بسهولة. ولما كان فى الثامنة عزف بسهولة كثيرا من اغانى الاطفال، كما كان يضرب فى ثنائى مع الكبار. ولكنه عندما دخل المدرسة الثانوية ترك الموسيقى. ولكنه على كل حال لم يتركها بسبب دروسه فى المدرسة.

فقد كانت عند فلاديمير ايليتش كفاءات رائعة، وكان يحفظ الدروس بسهولة خارقة. والاصح، ان فلاديمير ايليتش كف عن الضرب على البيان بسبب ما كان شائعا انذاك من نظرة تزعم ان الموسيقى لا تليق بالصبيان. ومع ذلك فقد بقى طوال حياته مولعا بالموسيقى وكان يفهم دقائقها.

فى شتاء سنة ١٨٨٨ كنت انا وفلاديمير ايليتش فى الاوبرا بقازان. وكان مقعدانا فى مكان عال فى الشرفات. وقد انطبعت هذه الامسية فى ذاكرتى بسطوع. واتذكر كيف رجعنا من المسرح سيرا على الاقدام، وكيف تناولنا عشاءنا فى البيت لبنا وخبزا. وكان فلاديمير ايليتش طوال الوقت تحت تأثير الموسيقى التى سمعها، وكان يردد باستمرار وبصوت خفيض، المقطوعات التى اعجبته منها، ذلك ان الجميع كانوا نياما. وكان مزاج

اخي وروحيته على احسن ما يرام، فبعد قرية كوكوشكينو حيث قضى فلاديمير زمنا تحت رقابة البوليس، اذا به يرى نفسه فى مسرح الاوبرا...

وكانت امنا، ماريا الكسندروفنا مولعة جدا بالبيانو. فكانت تعزف وتنشد الكثير من الاغانى والالحان القديمة. وكانت تجيد فى عزف مقاطع من اوبرا «قبر اسكولد». وكان عندها دفتر نوطات هذه الاوبرا، وقد اصفر لونه بمرور الزمن. وكنا جميعا نحب موسيقاها وغناءها كل الحب، وكان فلاديمير ايليتش كثيرا ما يغنى بعض الالحان من اوبرا «قبر اسكولد».

وفى سنوات ١٨٨٨-١٨٩٠ كان فلاديمير ايليتش غالبا ما يغنى مع اولغا ايليينيشنا بمصاحبة البيان. ولم يعرف عن اولغا الا الشئ القليل، واقول عرضا انها كانت اقرب واحسن رفيق لفلاديمير فى سنوات طفولته وحداثته. وقد كانت اصغر سنا من فلاديمير، لكنها لم تتخلف عنه فى تطورها. وكانت وهى فى الثامنة عشرة قد تمكنت من اللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية والسويدية. وباختصار يمكن القول عن اولغا ايليينيشنا انها لم تكن تكف عن العمل الا فى حالة النوم. وفى ايار سنة ١٨٩١ توفيت بمرض التيفوس.

وكان فلاديمير ايليتش يثنى على حبها للعمل وعلى كفاءاتها.

وكانا يغنيان معا اغنية يزيكوف «السباح» او «بحرنا خال من الناس»، واتذكر انطباعاتي من المقطع الاخير:

الامواج تحمل الى الشاطئ الاخر، الناس ذوى القلوب

القوية. تجرأوا يا اخوان، فشراعى مرفوع، وقد ملأته الريح.

واحب فلاديمير ايليتش اغنية «العرس» من تلحين دارغوميجسكى:

لم يزفونا فى الكنيسة،
ولم يضيئوا لنا الشموع
لم يرددوا لنا التراتيل
ولا اجروا مراسيم الزواج.

وكان فلاديمير ايليتش ينشد اغنية هاينه الوجدانية. وكان المقطع الموسيقى «انا هالك تماما، يا صديقى الحبيب» يتطلب صوتا عاليا جدا، فكان اخى يمط صوته ثم يضحك ويقول: «لقد هلكت، هلكت تماما»...

انا لا اكاد اتذكر انه كان فى اغانى فلاديمير ايليتش حزن او كآبة. لقد كانت تنبعث منها الشجاعة والجرأة والروح السامية والاهابة.

وكان يغني كذلك مقطوعة فالنتين من «فاوست»: «اله الجبروت، اله الحب...» وكان يغني وفقا للنوطة، ويلفظ نفس تلك الكلمات التى لا يمكن حذفها، الا انه فى مكان من هذه المقطوعة كان يؤدى الغناء بشكل احسن واجمل، فقد كان ينفث فى هذا القسم روحه الكفاحية، وهذا القسم هو:

فى ميدان النضال الدامى، فى ساحة المعركة،
اقسم، انى ساكون فى الصف الاول.

وعندما اسمع موسيقى غونو، تعاودني على الدوام، وفى كل مرة ذكرى الماضى البعيد، فكأني اسمع فلاديمير ايليتش يغنى هذه المقطوعة.

في صيف ١٨٨٩ سمعت لاول مرة نشيد «الاممية» الذى يمكن القول انه لم يكن احد ليعرفه فى روسيا عهدئذ. وكان ذلك فى ضيعة بالاكاييفكا فى محافظة سامارا. وقد عزفته اولغا ايلينيشنا على البيانو، واعقبته بلحن «المارسيليز». فهرعت انا الى البيانو وطلبت اليها ان تعيد عزفه. وفجاة وعلى غير انتظار جاءنا فلاديمير ايليتش الذى لم يكن يترك كتبه عادة فى مثل هذا الوقت، من الصباح، وقال انه ينبغي ان نغنى نشيد «الاممية». فاخذا ينشدان معا الاغنية الجديدة على نغمات البيانو، ثم انشداها باللغة الفرنسية بصوت خفيض.

وفيما بعد اخبرتني ماريا ايلينيشنا ان فلاديمير ايليتش كان اسفا جدا لانه لم يتعلم الضرب على البيان او العزف على الكمان.

«البرافدا» رقم ٢١
٢١ كانون الثانى سنة ١٩٤١.

ديميتري اوليانوف

العودة من المنفى

ماجرى مع مفوض الشرطة بيرفيلييف

قبل عشرين سنة مضت، فى غرة سنة ١٩٠٠، عاد فلاديمير ايليتش من سيبيريا بعد ثلاث سنوات من المنفى، قضاها فى قرية شوشينسكويه، بقضاء مينوسينسك، فى محافظة الينيسى. وقد عاد وحده بدون ناديجدا قسطنطينوفنا التى لم تنته انذاك مدة نفيها بعد، وكانت قد سافرت مع فلاديمير ايليتش الى اوفا وبقيت هناك تحت مراقبة الشرطة.

وبلغني نبأ موعد قدوم فلاديمير ايليتش فقابلته فى المكان الذى كنت اعيش فيه، اى فى بودولسك على مسافة خمسين كيلومترا من موسكو. ووجدته فى عربة من الدرجة الثالثة من قطار الاسفار البعيدة، وكان كل شئ يدل على ان جمهور الركاب قادم من الاصقاع الباردة، فقد كانت معاطف الفرو والفراء السيبيرية واغطية الرأس السيبيرية التى تغطى الاذنين وجزمات اللباد وجزمات الفرو وغير ذلك مبعثرة فى العربة. وكانت تظهر على فلاديمير ايليتش دلائل الصحة والعافية، لا

كما كان بعد خروجه من السجن. وقد سأل اول ما سأل عن الاسرة، عن صحة الوالدة ثم اخذ يسأل عن الانباء، ولكن سرعان ما اتضح انه على علم بالانباء اكثر مني بكثير، رغم انه قد وصل لتوه من المنفى، بينما كنت انا اعيش بضواحى موسكو.

ثم دار الحديث حول كتاب للاشتراكى الديموقراطى الالمانى برنشتين احدث فى ذلك الحين لغطا كثيرا، وكان برنشتين عهدذاك من اشد دعاة تجديد الماركسية واكثر الانتهازيين صراحة وصلفا. وقد انتقد فلاديمير ايليتش انتقادا قارصا برنشتين هذا وشهر به، وكان يقول ان هذا هو اخطر تشويه للماركسية، وان من الضرورى لذلك، ان يشن عليه احزم نضال لا يعرف الهوادة. وفى الوقت نفسه هاجم انتهازيينا الروس، هاجم ما يدعى «بالاقتصادية»، وحمل على صحيفتي هذا الاتجاه، «قضية العامل» و «افكار العامل».

وعندما وصلنا موسكو، استقللنا العربة مع فلاديمير ايليتش وقصدنا اهلنا فى شارع باخميتييف، وكنت سعيدا ومزهوا لمقابلتي اياه قبل الاخرين بساعة ونصف و «هدايتي» اياه اليهم.

وكان قد طلب الى فلاديمير ايليتش ان يختار لاقامته اية مدينة ما عدا العاصمتين والمدن الجامعية وايضا المراكز التى فيها معامل ومصانع. فقر رأيه على بسكوف. ويظهر انه انتخب بسكوف التى لم يكن هو فيها من قبل ولا يعرف احدا فيها، وذلك فقط لكونها قريبة من بطرسبورغ التى كانت تسترعى فى ذلك الوقت، بطبيعة الحال، كل اهتمام فلاديمير ايليتش. وكان السفر من بسكوف الى بطرسبورغ اسهل، وكذلك تتبع

سير حركة العمال، واقامة الاتصال مع الرفاق الذين يعملون مباشرة فى الحركة، ثم التأثير على الحركة. وقد تسنى لفلاديمير ايليتش مرة او مرتين ان يسافر بسلامة الى هناك وان يتقابل مع من تنبغي مقابلتهم. ولكن بنتيجة زيارته الاخيرة وقع مرة اخرى فى قبضة الشرطة.

فقد سافر الى بطرسبورغ ذات مرة مع مارتوف الذى كان عندئذ يعتنق مع فلاديمير ايليتش المبادئ ذاتها. وقد خيل اليهما ان القدوم الى محطة فارصوفيا، اى السفر مباشرة، ينطوى على الخطر. فقررا طمس اثرهما وان يصلا الى بطرسبورغ عن طريق محطة اخرى، لا ينتظرهما فيها الجواسيس. فذهبا من بسكوف الى غاتشينا، ثم سلكا من هناك خطا فرعيا الى تسارسكويه سيلو السابقة، ومن هناك استقلّا قطارا اخر، ووصلا بسلام الى بطرسبورغ. وفى غداة ذلك اليوم، عندما خرج فلاديمير ايليتش صباحا من الشقة التى بات ليلته فيها، قبض عليه فجأة، وقد تحدث فيما بعد عن ذلك قائلا «لقد امسكوا بذراعيّ، فواحد امسك اليمنى والاخر اليسرى، وقد امسكاهما بشكل منع حركتهما، بحيث لو اردت ابتلاع شيء ما لما استطعت». ثم اجلساه فى العربة، واقتاداه الى مديرية شرطة المدينة، حيث فتش بطبيعة الحال، ولكنهم لم يعثروا على شيء. وهناك وضع فى الزنزانة. ثم استدعى للاستنطاق: «لماذا جئت؟ الا تعرف انك ممنوع من القدوم الى العاصمة؟» وقيل له ايضا بسخرية: «واى طريق اخترت للسفر؟ طريق تسارسكويه سيلو؟! أحقا انك لا تعرف اننا هناك نترصد كل حركة ونتعقب كل خطوة؟»

وكانت ظروف الاقامة فى موقف مديرية الشرطة سيئة لأقصى حد اذا قارناها بالموقف العام. وقد قال فلاديمير ايليتش عنها ما يلي: «ان الحشرات تسلب راحتنا ليلا ونهارا، والقذارة لا تطاق، وذلك عدا الصخب وفى كل ليلة يلعب الشرطة والسريون وغيرهم الورق عند زنزانتنا مباشرة»...

ولحسن الحظ لم يدم التوقيف هنا اكثر من اسبوعين. وكان فلاديمير ايليتش قلقا جدا ويخشى ان يأخذوا منه جواز سفره الذى كان معه فى جيبه، اذ ان خطته المقبلة مرتبطة بجواز السفر هذا، فقد كان يريد السفر الى الخارج ليباشر اصدار جريدة سياسية كبيرة، «ايسكرا» الغد، التى كان يجب ان تكون لسان حال الاشتراكية-الديموقراطية الثورية، وان تناهض «الاقتصادية» وما اليها، والتى كان يجب ان ترتبط ارتباطا وثيقا مع الفروع المحلية وان تكون مركزا لاحتشاد وتنظيم حزب البروليتاريا.

وعند اطلاق سراح فلاديمير ايليتش سافر الى بودولسك حيث كنا نحن نعيش مع امنا. وقد صحبه الى ادارة شرطة المدينة موظف من الشرطة تولى، حسب الايعاز، تقديم فلاديمير ايليتش رأسا الى مفوض الشرطة فى قضاء بودولسك. وكان المفوض يدعى بيرفيلييف من البوروقراطيين الاصيلين، وكان يحب، فى مثل هذه الحالات، ان يرعد ويزبد، الا انه كان جبانا فى باطنه، فطلب من فلاديمير ايليتش هويته، فسلمه فلاديمير ايليتش جواز سفره. فقلب المفوض صفحاته، ثم وضع جواز السفر فى درج منضدته وقال: «الآن، بوسعك ان تذهب،

اما جواز السفر فيبقى عندي». وكان ذلك افظع ما يمكن ان يحدث لفلاديمير ايليتش، فقد حجز جواز سفره، ومن الذى حجزه؟ انه مفوض شرطة فى قضاء! فقال فلاديمير ايليتش مخاطبا اياه: «انا بحاجة الى الجواز، فاعده لي». فاجاب المفوض بغطرسة: «لقد سمعتم ما قلت، الجواز يبقى عندي، وبامكانكم ان تنصرفوا». فاحتج فلاديمير ايليتش، وقال انه لن يذهب ما لم يسترجع جواز سفره، واصر المفوض على كلمته. عندئذ ادار فلاديمير ايليتش وجهه نحو الباب وقال: «اني مضطر فى هذه الحالة ان ارفع الشكوى على تصرفك غير القانونى، الى مديرية الشرطة»، ثم خرج. واضطرب المفوض، فالجملة الاخيرة قد فعلت فعلها. عندئذ قال بصوت عال: «ايها السيد اوليانوف، اسمعني، عد اليّ، هذا جواز سفرك، خذه».

وكنا ننتظر فلاديمير ايليتش فى البيت بفارغ الصبر. ولم يكد يجتاز عتبة الدار حتى اشاع فى الدار البهجة والحبور. واخذ يقص قصة ما جرى له اخيرا، وقبل كل شيء قصة هذا المفوض «العجوز النصاب الاحمق». وقد كان فلاديمير ايليتش لا يزال منفعلا بعد الحادثة الاخيرة، فقال وهو يضحك مرحا: «اراد هذا العجوز الاخرق ان ينتزع مني جواز السفر، لكني عرفت كيف اخوفه بمديرية الشرطة»...

ماريا اوليانوفا

لينين فى رسائله الى ذويه

لدينا الان مجموعة كاملة لاثار لينين، وكتب وافرة عن اللينينية (وكتب بحث علمية ومبسطة)، لكن لينين باعتباره انسانا له شخصيته الفردية الواضحة المتعددة النواحى، قد صور حتى الآن بصورة ناقصة تماما، او انه تقريبا، لم يصور بتاتا.

وهذه الثغرة تسدها لحد ما رسائل فلاديمير ايليتش الى اهله، الى امه ماريا الكسندروفنا اوليانوفا وشقيقته ماريا ايليينيشنا (١)، وهذه الرسائل تنتظم عهدا يمتد من سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٩١٧، اى منذ السنوات الاولى لنشاط فلاديمير ايليتش الثورى حتى عودته الى روسيا بعد ثورة شباط. ومن هذه الرسائل يمكننا ان نحكم لدرجة ما على نمط حياة فلاديمير ايليتش

(١) كانت الرسائل عادة لا تخص المعنون اليهم وحدهم، بل تخص سائر اعضاء العائلة، خاصة اولئك الذين كانوا انئذ يعيشون معا، وذلك «كى لا تتعدد الرسائل» — ماريا اوليانوفا.

وعاداته وميوله، وعلى علاقاته مع الناس الخ... وسنتكلم نحن عن ذلك بعض الحديث. واقول بعض الحديث لان ذلك، قبل كل شيء لا يتناول الا شيئا يسيرا جدا من مجموعة رسائله الى اهله خلال المدة المذكورة. ثم انه خلال التنقلات الكثيرة، من مدينة الى اخرى، والتحريات العديدة والاعتقالات التى كان يتعرض لها فى كل مرة احد افراد اسرتنا، والتى كان يرافقها عادة ضبط الاوراق المدونة، فقد فقد الكثير من رسائل فلاديمير ايليتش. وكثيرا ما كانت الرسائل تفقد فى البريد، خاصة فى زمن الحرب الاستعمارية. ولهذا السبب نرى احيانا المسألة ذاتها تتكرر فى عدة رسائل متعاقبة. وعدا ذلك تشف هذه الرسائل عن طابع الظروف فى عهد الشرطة القيصرية. الحق، ان جميع الرسائل التى تخص العمل (كانباء الحوادث الثورية والحياة الحزبية وغير ذلك) كانت تصل الينا عهدئذ بصورة سرية، ومكتوبة بالمواد الكيماوية، وخاصة فى الكتب والمجلات، وهذه الرسائل كانت ترسل الى عناوين اناس اخرين «غير مشبوهين» (١). غير ان الحياة الشخصية والنشاط الثورى كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا، حتى ان الرسائل الشخصية العلنية كانت ترهقنا وتضطرنا الى الاقتضاب من جراء الرقابة البوليسية.

---

(١) وكان الاحتفاظ بها فى روسيا، غير ممكن، بطبيعة الحال، ولم يبق سالما سوى قسم منها فى نسخ دونت فى الخارج. ماريا اوليانوفا.

ولم يكن عبثا ما كتبه فلاديمير ايليتش فى احدى رسائله الى شقيقته ماريا ايلينيشنا، وكانت منفية انذاك فى فولوغدا: «لقد اصبح من الصعب جدا فى الحالة التى نحن عليها (حالتك وحالتي على السواء) ان نكتب الرسائل كما نريد».

وهذا ما لا يخص ماريا ايلينيشنا وحدها، بل يخص جميع افراد اسرتنا، ذلك ان قرابة فلاديمير ايليتش لهم لم تكن قرابة دم وحسب، بل قرابة فى الاراء والمعتقدات. فجميعهم (وكذلك زوج حنة ايلينيشنا، ايليزاروف) كانوا انذاك اشتراكيين—ديموقراطيين، ينتمون الى الجناح الثورى فى الحزب، وكلهم اسهم فى النشاط الثورى مع تفاوت فى الدرجات. وحتى امنا، التى كانت فى سنوات العقد العاشر، حينما ازدادت التحريات والاعتقالات فى أسرتنا، كانت فى افكارها معنا، رغم انها كانت قد تجاوزت سن الستين.

كانت جميع رسائل الثوريين العلنية تفتش، وكان ينبغي اللجوء الى مختلف الاستعارات والتعابير المتفق عليها وغير ذلك، كى يشار بذلك الى المسائل ذات الشأن، ويخبر بوصول الرسالة السرية الفلانية، ويستفسر عن المعارف وغير ذلك.

وكانت رسائل فلاديمير ايليتش الموجهة مباشرة الى عنوان الام او الاخت او الاخ، تكاد لا تحتوى على اسماء او القاب. اذ ان ذلك قد يجلب السوء بطبيعة الحال الى الاشخاص الذين تذكر القابهم فى مثل هذه الرسائل. ولم نكن

نرغب قط فى ان نعرض كائنا ما كان الى سوء. وما كانت ترد فى رسائل فلاديمير ايليتش فى النادر الا اسماء والقاب اولئك الرفاق والمعارف الذين كانت معرفتنا بهم قد حصلت على علم من الشرطة، وذلك فى مختلف الاحوال والاوضاع (كالنفى معا فى قضية واحدة، او الدراسة فى نفس المدرسة وغير ذلك) او حصلت على اساس الروابط العملية المحض (كالقاب الناشرين وبائعى الكتب الخ...). وكان فلاديمير ايليتش اذا اراد ان يخبر عن شئ او يبعث تحية الخ، مع تحاشى ذكر القاب المعارف الذين كانوا لاحد ما، قليل او كثير، معارف علنيين، كان على الدوام يلجأ الى الاسماء المستعارة والاشارات ذات الصلة باحد الوقائع او الحوادث التى كنا نعرفها. فكان اذا ذكر «المؤرخ»، عنى بذلك سكفورتسوف-ستيبانوف (اخذا بعين الاعتبار مؤلفاته التاريخية). وقد كانت له مع هذا مكاتبات تتصف بالحيوية، كانت تجرى بواسطة حنة ايليينيشنا وماريا ايليينيشنا. وقد ارسل فلاديمير ايليتش تحية الى فوروفسكى الذى كان منفيا فى فولوغدا فى آن واحد مع ماريا ايليينيشنا، وكتب فى التحية يقول: «تحياتي الى الاصدقاء البولونيين وتمنياتى، وليساعدونا بكل جهدهم» كما كان يعنى «بالرحالة الصينى» سكلارينكو الذى كان يعمل انذاك مستخدما فى السكة الحديدية بمنشوريا. وقال عن ليفيتسكي «السيد الذى تنزهنا معه فى الزورق فى العام المنصرم».

وكان يجب ان يكتب بالاستعارات كذلك عن ارساليات

المطبوعات غير العلنية والمكاتبات السرية والكتب التى تضم فى تضاعيفها الرسائل المدونة بالمواد الكيماوية الخ...

فى نهاية كانون الاول سنة ١٩٠٠ ارسلت كاتبة هذه السطور، الى فلاديمير ايليتش فى خارج البلاد «بيان حزب الاشتراكيين ـ الثوريين»، وقد ارسلته مع كراسين فى البوم من بعض الصور الفوتوغرافية. وقد سر فلاديمير ايليتش غاية السرور بهذه الارسالية، فكتب فى رسالته المؤرخة فى ١٦ كانون الثانى سنة ١٩٠١ يقول: «اني ممتن جدا من اجل الكتب المرسلة، وخاصة من اجل الصور الفوتوغرافية الممتعة والجميلة للغاية، التى ارسلها ابن خالى من فينا، وارغب جدا ان استلم مثل هذه الهدايا دائما».

واقول عرضا ان «الايسكرا» وغيرها من المطبوعات السرية كانت ترسل الى روسيا فى اغلفة مرسلة الى عناوين علنية «غير مشبوهة». وكان فلاديمير ايليتش يخبرنا احيانا عن هذه الرسائل، لكى تتاح لنا فى الوقت المناسب امكانية الاتصال مع المعنون اليه. وبديهى ان يذكر فلاديمير ايليتش هذه الانباء بمثل الكلمات التالية (كما فى رسالته المؤرخة ١٤ كانون الاول سنة ١٩٠٠) «تذكري اني ارسلت لك فى التاسع منه، الارسالية الصغيرة التى تهمك». وكتبت ناديجدا قسطنطينوفنا فى رسالتها المؤرخة ٨ شباط سنة ١٩١٦: «لقد سر فلاديمير كل السرور لرسالتك الكبيرة. ولا باس ان تكتبي ايضا بعض الاشياء الاخرى». ولما لم نكن نتبادل الرسائل العلنية الكبيرة الحجم، فقد كنا زمن الحرب الاستعمارية، اى عندما كتبت هذه الرسالة،

نتكاتب، اكثر ما نتكاتب، بواسطة البطاقات البريدية، وكنا نرسلها مسجلة بالبريد، بالنظر لفقدان الكثير منها، اما الكلمات المذكورة فمعناها انه ارسل فى الماضى رسالة خلال اسطر الكتب.

فى الوهلة الاولى بعد ذهاب فلاديمير ايليتش الى الخارج سنة ١٩٠٠، عندما لم يعرف هو بعد له مقرا ثابتا للسكنى، لم يعط عنوانه لنا للمراسلة، وذلك بقصد التكتم، وعندما كان يعيش فى سويسرا ومونيخ، اخذنا نكاتبه عن طريق باريس او براغ. وفى رسالته المؤرخة ٢ اذار سنة ١٩٠١ اخبرنا عن عنوانه الجديد، قائلا، «انه انتقل مع صاحب شقته الى مكان اخر». وفى الواقع فان صاحب شقته فرانس مودراتشيك الذى كنا نرسل رسائلنا باسمه هو الذى انتقل فى ذلك الحين الى شقة اخرى، فى حين بقى فلاديمير ايليتش فى مونيخ يسكن شقته القديمة.

* * *

ومن الصفات المميزة لفلاديمير ايليتش دقته ومواظبته المتناهيتان، وكذلك توفيره لاقصى حد عند انفاق الدراهم، وخاصة على شؤونه الشخصية. والظاهر ان فلاديمير ايليتش ورث هذه الصفات عن امه التى كان يضاهيها فى كثير من صفاته الخلقية.

واما المدى الذى كان فلاديمير ايليتش يذهب اليه فى التوفير والاقتصاد فيتبين من رسالته المؤرخة ٥ تشرين الاول سنة ١٨٩٥. فقد جاء فيها:

«هذه هى اول مرة فى سن بطرسبورغ اسجل فيها العائدات والنفقات، لارى ما هو المبلغ الذى انفقه فى الواقع. لقد ظهر اني انفقت خلال شهر، اى من ٢٨ آب الى ٢٧ ايلول ٥٤ روبلا و ٣٠ كوبيكا لا غير، وذلك ما عدا الحوائج (١٠ روبلات) وما اقتضى انفاقه فى احدى المحاكمات التى يمكن ان تجرى (وهذا ايضا حوالى ١٠ روبلات). الحق، ان بعض هذا المبلغ، اى الـ ٥٤ روبلا، انفق على اشياء لا تبتاع فى كل شهر (كحذاء فوقانى وملابس وكتب وحاسبة وما الى ذلك) وقد كلف ذلك ١٦ روبلا، ومع ذلك فقد انفق مبلغ طائل، ٣٨ روبلا. ويظهر اني قد بذخت، فقد كلفنى السفر بالترام وحده روبلا و ٣٦ كوبيكا. ويبدو لي انى اذا عشت زمنا هنا ستكون نفقاتي اقل».

وفى الواقع فقد اخذ يقتصد فى نفقاته، وخاصة عندما لم يكن يتقاضى راتبا خاصا به، فيجب عليه اللجوء الى «الاعانة»، كما كان يسمى الدراهم التى كانت امه تساعده بها. وكان يقتصد لدرجة انه لم يكتتب فى جريدة «الانباء الروسية» (١) عندما كان يعيش فى بطرسبورغ سنة ١٨٩٥، وانما كان يذهب الى المكتبة العامة ويقرأ اعداد «اسبوعين منها معا» وقد كتب الى اخته يقول «وقد اشترك فيها عندما احصل على عمل هنا».

وهذه الخصلة لازمت فلاديمير ايليتش طيلة حياته، وظهرت عنده بسطوع، سواء فى ذلك العهد الذى لم يستطع فيه

(١) كانت «الانباء الروسية» امتن وامتع جريدة من بين جميع الجرائد البرجوازية فى ذلك العهد. ماريا اوليانوفا.

فى المهجر ان يجد ناشرا ينشر له مؤلفاته (وهنا يجدر بي ان اذكر على سبيل المثل الحادثة التالية وهو ان «المسألة الزراعية» لبثت مهملة طوال عشر سنوات، ولم تنشر الا فى سنة ١٩١٧)، فقد كان فلاديمير ايليتش فى بعض الاحيان فى وضع متازم تماما، او حتى حين اصبحت حالته المادية مؤمنة كل التأمين، وذلك بعد ثورة سنة ١٩١٧.

غير انه كان عسيرا على فلاديمير ايليتش ان يقتصد فى امر واحد، ونعنى الانفاق على الكتب. فقد كانت الكتب تلزمه فى عمله وفى ايقافه على مجرى السياسة والاقتصاد فى الخارج وفى روسيا الخ..

كتب فلاديمير ايليتش الى امه فى رسالة له من برلين بتاريخ ٢٩ اب سنة ١٨٩٥ يقول: «لقد اصبحت حالتي المالية من جديد، ويا للهول، «عسيرة». ان «حمى» شراء الكتب وما اليها شديدة لدرجة لا يعرف الا الشيطان اين تذهب الدراهم». ولكنه كان فى هذه الناحية ايضا يقتر على نفسه، فكان يرتاد المكتبات للمطالعة، وهذا ما وفر لعمله جوا هادئا، لا جلبة فيه ولا احاديث مملة لا تنتهى، كتلك الاحاديث التى يختص بها اللاجئون، الذين يستولى عليهم السأم فى ظروف غريبة عنهم لم يعتادوها، فيودون الترفيه عن انفسهم بالاحاديث.

ونقول عرضا ان فلاديمير ايليتش لم يستفد من المكتبات فى الخارج فقط، بل كان يستفيد منها عندما عاش فى روسيا. فقد كتب فى رسالة له من بطرسبورغ بعثها الى امه، انه مرتاح لغرفته الجديدة التى تقع «قريبا من مركز المدينة

(فالمسافة منها الى المكتبة ١٥ دقيقة لا اكثر)». وعند سفره الى المنفى اغتنم تلك الايام المعدودة التى قضاها فى موسكو واستفاد من المطالعة فى متحف روميانتسيف. وعند مكثه فى كراسنويارسك منتظرا ذوبان الثلوج وبدء الملاحة ليواصل سفره الى قضاء مينوسينسك، غنم الفرصة وتردد على مكتبة يودين، رغم ان ذلك كان يحتم عليه ان يقطع كل يوم مسافة ٥ كيلومترات.

وفى المنفى حيث لم تكن هناك اية مكتبة سعى فلاديمير ايليتش لسد هذه الثغرة، فطلب الينا ان نرسل له كتب المكتبات بواسطة البريد. وقد جربنا ذلك عدة مرات، الا ان هذا الامر كان يتطلب وقتا كبيرا جدا (فكان ارسال الكتب وارجاعها يستغرق زهاء شهر) بينما كانت المكتبات تعير الكتب لآجال معينة.

وفيما بعد كان فلاديمير ايليتش يلجأ احيانا الى مثل هذه الطريقة. فقد كتب فى رسالة الى حنة ايليينيشنا، مؤرخة فى ٣١ كانون الثانى سنة ١٩١٤ يقول: «وفيما يخص المجموعة الاحصائية بشأن القضايا الجنائية من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩٠٨ لا تقدمى على شرائها (ابدا فهى غالية)، بل خذيها من المكتبات (اما من نقابة المحامين او مكتبة مجلس الدوما) وارسليها الىّ لمدة شهر».

وعندما كان فلاديمير ايليتش يعيش فى الخارج كان يتردد دائما على المكتبات. ففى برلين كان يرتاد المكتبة الامبراطورية. وفى جنيف كان مولعا «بنادى» (Société de Lecture)،

وكان التردد على النادى يقتضى الاكتتاب ودفع بدل اشتراك معين للعضوية فيه. وكان بدل الاشتراك زهيدا فى الواقع، الا انه كان يعطى الامكانية للاستفادة من مكتبة «النادى». وفى باريس كان يؤم المكتبة الوطنية، رغم انه كان يتذمر من «سوء تنظيمها». وفى لندن كان يطالع فى مكتبة المتحف البريطانى، ما عدا مونيخ فقد تشكى «لعدم وجود مكتبات فيها»، وكذلك فى كراكوف حيث استفاد قليلا من مكتبتها. وقد كتب فى رسالة له الى ماريا اوليانوفا، بتاريخ ٢٢ نيسان سنة ١٩١٤ يقول: «المكتبة هنا (اى فى كراكوف) رديئة لاقصى حد، واكاد لا استطيع التردد عليها...». وكان عمله فى الجريدة (فى «البرافدا»)، وروابطه المتنوعة كل التنوع مع الرفاق الذين كانوا يذهبون الى فلاديمير ايليتش فى كراكوف زرافات، تزيد بكثير عن ذى قبل عندما كانوا يذهبون اليه فى فرنسا وسويسرا، ثم قيادة نشاط الفريق الاشتراكى - الديموقراطى فى مجلس دوما الدولة، وكذلك المؤتمرات التمهيدية الحزبية والاجتماعات الحزبية الخ.. كل ذلك لم يعطه فرصة لتخصيص وقت كبير للاعمال العلمية. وقد كتب فلاديمير ايليتش: «كم نتذكر نحن جنيف، حيث العمل كان يجرى بصورة افضل، وحيث توجد مكتبة مناسبة، والاعصاب اهدأ، والحياة اقل ازعاجا».

وعندما ذهب فلاديمير ايليتش الى سويسرا مرة اخرى، بعد اعتقاله فى غاليسيا عند بدء الحرب الاستعمارية، كتب من هناك: «ما احسن المكتبات هنا. لقد نظمت الامور بشكل طيب فيما يخص الاستفادة من الكتب، وتطيب لى القراءة، بعد انهاء

العمل اليومى فى الجريدة». وفيما بعد غادر برن مع ناديجدا قسطنطينوفنا الى زوريخ «كى ينصرف الى مكتباتها» التى هى، على حد قوله، «احسن بكثير من مكتبات برن». (الا انه، ونقول ذلك عرضا، واصل فى زوريخ نشاطه الحزبى السياسى الدائب، النشاط الذى تصوره بوضوح رسائله المنشورة فى المجلد الحادى عشر من «مجموعة منتخبات لينين» والمتبادلة مع الرفيق كاربينسكي والخاصة بهذه الفترة).

ولكن لئن كانت الظروف المحيطة بفلاديمير ايليتش فى الخارج حسنة فيما يخص امكانية قراءة الكتب الاجنبية ومطالعة الصحف والمجلات الاجنبية وارتياد المكتبات العديدة لهذا الغرض، فان نقص الكتب الروسية عنده كان على الدوام نقصا محسوسا جدا. فقد كتب فى رسالة له بتأريخ ٢ نيسان سنة ١٩٠٢: «انى هنا احصل على الكتب الالمانية بسهولة، فلا يعوزني منها شيء. لكن تنقصنى هنا الكتب الروسية».

ولا شك فى ان عدم وجود بعض الكتب الروسية التى كانت تلزم فلاديمير ايليتش عندما كان يعيش فى الخارج كان كثيرا ما يعرقل اعماله ولذلك كانت رسائله الى اهله تتضمن دائما مطالب بارسال الكتاب الفلانى الذى يحتاج اليه فى اعماله (كالاحصاءات والكتب الخاصة بالمسألة الزراعية، وكتب الفلسفة الخ.) وكذلك المطبوعات الجديدة والمجلات وكتب الادب. وهكذا يمكن من هذه الرسائل، ان نقرر، لدرجة ما، اية كتب وفى اى فرع من فروع المعرفة كان فلاديمير

ايليتش يهتم بها فى فترة معينة من الزمن، وفى اى مؤلف من مؤلفاته استفاد منها.

ومن بين هذه الكتب اعير اهتمام كبير الى مختلف المجموعات الاحصائية.

والاهمية الكبيرة التى كان فلاديمير ايليتش يعلقها على الاحصاءات وعلى «الوقائع الدقيقة والحقائق التى لا تقبل الجدل» بادية بجلاء فى مؤلفاته، وفى تلك المسودات والمقتبسات والجداول التى تسبق هذه المؤلفات. ويجدر بالذكر بهذا الصدد كتابه الذى لم يكمل ولم ينشر، «الاحصاء وعلم الاجتماع»، والذى جعل اسم مؤلفه بيريوتشيف (وهو اسم مستعار جديد اتخذه فلاديمير ايليتش بقصد تسهيل نشر هذا الكتاب). وخصص الكتاب لمسألة «اهمية الحركة الوطنية ودورها. وترابط الوطنية والاممية».

ففى هذا الكتاب كتب فلاديمير ايليتش الفقرات التالية:

«لا توجد فى حقل الظواهر الاجتماعية طريقة اكثر انتشارا ثم هى اوهى اساسا من طريقة اخذ الوقائع المنفردة والتلاعب بالامثال. ان التقاط الامثال بوجه عام، امر لا يستحق اى جهد، اما اهميته فليست له اية اهمية، او ان اهميته سلبية تماما، لان القضية كلها هى فى الموقف التأريخى الملموس للحوادث كلا على انفراد. ان الوقائع اذا اخذت بمجموعها وبروابطها، سوف لا تكون شيئا «صلدا» وحسب، بل وبرهانا مطلقا. ان الوقائع اذا لم تؤخذ بمجموعها، ولم تؤخذ فى تربط، او اذا اخذت مجزأة وبصورة تجريدية، فانها لا تكون سوى العوبة،

او ما هو اردأ من ذلك... ينبغي ان نسعى لنقيم من الوقائع الدقيقة والمفروغ منها اساسا يكون من الممكن ان نستند اليه، ويكون من الممكن ان نقايس معه اية استدلالات «عامة» او «نموذجية» من تلك التى طالما يوردونها فى ايامنا هذه فى بعض البلدان ليسيئوا الاستفادة منها. ولكيما يكون هذا الاساس اساسا واقعيا، يكون من الضروري ألا نأخذ الوقائع منفردة، بل ان نأخذ مجموع الوقائع التى تخص المسألة المبحوثة، دون استثناء اية واحدة منها، اذ بدون ذلك ينشأ، ولا مناص، الشك فى ان الوقائع هذه منتخبة او ملتقطة بصورة تجريدية، والشك الذى له كل ما يبرره، فى انه عوضا عن الروابط الموضوعية، وتوقف الظواهر التأريخية بعضها على بعض من حيث مجموعها، يعرض خليط من «الامور الذاتية» من اجل تبرير قضية ما قذرة. وهذا ما يحدث كثيرا... واكثر مما يتراءى».

فى سنة ١٩٠٢ طلب فلاديمير ايليتش ان يرسل اليه فى الخارج، من بين الكتب التى كانت معه فى سيبيريا «جميع الاحصائيات» (١) التى (حسبما كتب عنها فى رسالته المؤرخة

---

(١) هذه الاحصائيات التى استفاد منها لينين فى كتابه «تطور الرأسمالية فى روسيا» استلمها معهد لينين من الخارج مع بقية كتب فلاديمير ايليتش. وبالامكان ان يتوصل الى سلسلة من الاستنتاجات القيمة الاخرى حول كتاب فلاديمير ايليتش، وذلك من الشروح والحواشى المدونة فى هوامش هذه الكتب.– ماريا اوليانوفا.

فى ٢ نيسان سنة ١٩٠٢) يقول: «لقد اخذ يساورني بعض الضجر...» ولكيما يستلم فلاديمير ايليتش احصائيات من مختلف المدن، وبصورة اكثر تنظيما، فقد عمد حتى الى كتابة طلب خاص ورجاء (١) الى الاحصائيين الذين اجتمعوا شتاء ١٩٠٨–١٩٠٩ فى مؤتمر الاطباء ورواد الطبيعة (فقد كان لهذا المؤتمر لجنة فرعية للاحصائيين). وقد ابدى رأيهم فى ذيل هذا الطلب جملة من الاحصائيين فى المناطق. وفى الرسالة المؤرخة ٢ كانون الثانى سنة ١٩١٠ كتب لينين يقول: «لقد استلمت رسالة أخرى احصائية من ريازان، وهذا امر هام، ويبدو ان هذه المساعدة ستأتى من كثيرين».

وفى سنة ١٩٠٨ عندما اكب لينين على كتابة مؤلفه «المادية والنقد التجريبى»، بعث فى طلب كتاب البروفسور تشيلبانوف حول افيناريوس ومدرسته، وكتاب «الفلسفة الحلولية» وغيرهما. وقد كتب الى شقيقته عن كتابه هذا يقول: «لقد صرفت انا جهدا كبيرا فى دراسة شيعة ماخ، وخبرتهم واعتقد انهم جميعا (وكذلك «التوحيديين التجريبيين») سخافات لا يمكن تصورها».

ويتساءل فلاديمير ايليتش عن استلام النسخة الخطية لكتابه «الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية» حول الرأسمالية الحديثة، ويقول: «اني اعير اهتماما كبيرا جدا لهذا المؤلف الاقتصادى وارغب جدا ان اراه مطبوعا بكامله» (من رسالته

---

(١) ونحن مدينون بامكانية نشره الى دائرة الدرك فى موسكو، فقد احتفظت به فى اضباراتها.— ماريا اوليانوفا.

المؤرخة ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩١٦). ومعروف ان رغبته هذه لم تتحقق (رغم ان فلاديمير ايليتش «قد بذل كل قواه لجعله مقبولا «للرقابة»، على حد تعبيره هو فى رسالته المؤرخة ٢ تموز سنة ١٩١٦ الى بوكروفسكى. وقد تعرض كتاب فلاديمير ايليتش هذا لسلسلة طويلة من التغييرات والحذف، ولم يصدر فى شكله الاصلى الا بعد عشر سنوات.

وتنبئنا رسائل فلاديمير ايليتش الى اهله عن السبب الذى دعاه لوضع كتابه (الذى لم ينشر بعد) «النظام الرأسمالى للزراعة المعاصرة» فقد كتب فى رسالته المؤرخة ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩١٦ الى شقيقته: «انت تكتبين ان الناشر ودّ لو أنه ينشر «المسألة الزراعية» بشكل كتاب لا كراس. وانا افهم من هذا انه يجب علي ان ارسل التتمة (اى بالاضافة الى ما كتب عن امريكا ان اكتب ما وعدت به عن المانيا). اني سانصرف الى هذا العمل حالما انتهى مما يجب علي ان اكتبه للناشر القديم لقاء ما دفعه اليّ سلفا». ان النسخة الخطية للمؤلف المذكور، والمحفوظة فى المعهد، لم تكمل، والظاهر ان الثورة هى التى «اعاقت» فلاديمير ايليتش عن اكمالها.

ان رسائل فلاديمير ايليتش المذكورة تعطى القراء صورة عن ظروف كتابة مؤلفاته وتلك الجهود المرتبطة بنشرها.

ونعنى فى ذلك مؤلفاته العلنية. وهكذا قضى فلاديمير ايليتش عهد ما قبل الثورة كله فى ظروف غير مؤاتية، وذلك لا بسبب انه كان فى الخارج، وكان يشعر بمنتهى الحاجة الى الكتب الروسية وغيرها من المواد التى كان يحتاج اليها فى كتاباته (من هذا العهد نستثنى زمن الثورة الاولى وابان صدور «زفيزدا» و«البرافدا» فى سنوات ١٩١٢–١٩١٤، وقت ان كانت عنده امكانية العمل من اجل الصحف العلنية، وعندما كانت للحزب داره العلنية للطبع والنشر، وان كانت لمدة قصيرة) وكانت الرقابة تقيم صعوبات كبيرة، وكان يحذف من مقالات فلاديمير ايليتش وكانت تشوه (كمقالة «النقد اللانقدى»)، كما كانت الكتب تصادر («المسألة الزراعية»، المجلد ٢) الخ... ولكن الى جانب هذه المصاعب الكبيرة كان الانقطاع عن روسيا يجعل اقامة الصلات المباشرة مع دور النشر وما اليها، غير ممكنة فى غالب الاوقات. هنا يجدر ان نذكر محاولاته العديدة لايجاد عمل فى موسوعة غرانات، ففى رسالته المؤرخة فى ٢٢ كانون الاول سنة ١٩١٤ الى شقيقته يقول: «كان حسنا لو احصل على عمل فى الموسوعة. الحق ان الحصول على هذا العمل ليس هينا ما لم تكن هناك معرفة بسكرتير هيئة التحرير». ولم تكن هناك مثل هذه المعرفة. وعندما وجه فلاديمير ايليتش رسالة مباشرة الى هيئة تحرير غرانات، لم يتلق حتى الجواب عليها. وكتب الى شقيقته فى شباط سنة ١٩١٥. «أفلا يمكن ان نجد عملا اخر فى الموسوعة. لقد كتبت بذلك رسالة الى

السكرتير لكنه لم يجبني عليها» (١) وكتب فى سنة ١٩١٢، «انا هنا منقطع، مع الاسف، عن اية رابطة مع دور النشر».

ولو لا المساعدة الكبيرة التى بذلها الرفاق والاهل فى البحث عن دور النشر لطبع كتب فلاديمير ايليتش، وفى تصحيح الاغلاط المطبعية وغير ذلك، لواجه اصدار كتبه صعوبات اكبر. ولكن شقيقتيه واخاه لم يكونوا دائما فى حالة تمكنهم من مساعدة فلاديمير ايليتش، وخاصة عندما كانوا هم فى السجن او فى المنفى. ففى سنة ١٩٠٤، مثلا، كتب الى امه يسألها ان تعطيه عنوان مارك تيموفييفيتش لان له معه «شغل يتعلق بنشر الكتب». (الرسالة المؤرخة ٢٠ كانون الثانى سنة ١٩٠٤).

كان فلاديمير ايليتش يعرف كيف يعمل بانتظام ومثابرة عملا يعود باقصى ما يمكن من الثمار، وكان عدا ذلك يعرف كيف يستجم عندما تؤاتيه الفرصة. وكان احسن مكان لاستراحته الاماكن الطبيعية الخالية من الناس. فمن ستيرسودين بفنلندا، حيث كان يستريح بعد عودته من المؤتمر الحزبى الخامس «تعبا» لدرجة فظيعة»، كتب يقول: «الراحة هنا ممتازة، فسباحة

---

(١) ولم تكن اجوبة دور النشر الاخرى على رسائل فلاديمير ايليتش بافضل من تلك، فى ذلك العهد. راجع بهذا الصدد الرسالة رقم ٣ (المؤرخة ٢٧ ايلول سنة ١٩٠١) من لينين الى اكسلرود. ماريا اوليانوفا.

وتنزه، وانقطاع عن الناس والعمل. وافضل ما افضله الانقطاع عن الناس وعن العمل». وكان استجمامه هناك، حيث احاطته ليديا ميخايلوفنا كنيبوفيتش باهتمامها الفائق وعنايتها، استجماما ممتازا فى الواقع، وقد تذكره فيما بعد عندما كتب فى رسالة له الى ماريا ايليينيشنا التى كانت قد كابدت لتوها مرض التيفوس، يقول لها: «ينبغى لك الذهاب الى ستيرسودين!»

لقد احب فلاديمير ايليتش الطبيعة حبا شديدا، ولذلك فاننا غالبا ما نجده فى رسائله يصف جمال الطبيعة اينما حل به المصير. فقد كتب الى امه وهو فى طريقه الى سويسرا سنة ١٨٩٥ يقول: «الطبيعة هنا ساحرة، ويروقني التمتع بمنظرها الوقت كله. من هناك، واعنى تلك المحطة الالمانية التى كتبت لك منها، تبدأ جبال الالب، وقد مررت ببحيرات هى من الروعة بحيث استحال على ان اترك نافذة العربة». وكتب الى ماريا الكسندروفنا: «اني اتنزه، والنزهة الان شيقة هنا، واعتقد ان فى بسكوف ايضا (وكذلك فى ضواحيها) اماكن جميلة متعددة» وكتب من الخارج يخبرنا: «لقد جذفت قبل ايام... فى احدى البحيرات الفائقة الجمال، واستمتعت برؤية المناظر البهيجة فى جو رائق...». وكتب ايضا: «منذ ايام قمنا مع ناديجدا وأحد الاصدقاء باروع نزهة على جبل ساليف. كانت جنيف تحتنا مطوية فى دثار من الضباب والعتمة، اما فوق الجبل (على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر) فالشمس الساطعة والثلج والزحافات، ياله نهارا شتويا روسيا خالصا، وفى اسفل، تحت الجبل «La mer du brouillard» بحر حقيقى من الضباب

والسحب التى لا يرى خلفها شىء، سوى اشباح الجبال، ومن هذه الجبال لا نرى الا الشاهقة جدا منها، اذ حتى ساليف الصغير (٩٠٠ متر) غارق كله فى الضباب». وجاء فى رسالة له بتاريخ ٢٧ ايلول سنة ١٩٠٢: «لقد جبنا مع ناديجدا وتجولنا فى ضواح عديدة، ووجدنا اماكن فائقة الحسن». واعتقد ان فلاديمير ايليتش كان محقا عندما كتب مرة يقول: «اننا نحن الوحيدين، بين جميع الرفاق الموجودين هنا، الذين نجوب جميع ضواحى المدينة. فنحن نطرق مختلف الدروب «الريفية»، ونعرف الاماكن القريبة، ونستعد للجولات البعيدة».

واذا لم يكن يتسنى لفلاديمير ايليتش وناديجدا قسطنطينوفنا ان يقضيا وقتا قصيرا من الصيف فى الريف، حيث تبدأ مباشرة «الحياة الريفية» («كالنوم المبكر و الاستيقاظ المبكر»)، فانهما كانا، اثناء اقامتهما فى سويسرا، يتوجهان احيانا الى الجبال مشيا على الاقدام. ونجد وصفا لاحدى هذه الجولات فى رسالة من ناديجدا قسطنطينوفنا الى ماريا الكسندروفنا فى الثانى من تموز سنة ١٩٠٤، فقد جاء فيها ما يلى: «لقد تركنا جينيف منذ اسبوع، وها نحن نستريح بكل ما فى هذه الكلمة من معنى. لقد تركنا الاعمال والهموم فى جينيف. وهنا ننام عشر ساعات فى اليوم، ونسبح ونتجول. واما فلاديمير فلا يقرأ الصحف الا لماما، وقد اخذنا معنا من الكتب اقل ما يمكن اخذه. وهذه ايضا سنعيدها غدا الى جينيف غير مقروءة. اما نحن فسنبكر فى الساعة الرابعة صباحا، ونحمل اكياسنا ونتجه فى جولة تستغرق اسبوعين فى الجبال. وسنذهب الى

انترلاكين ومن ثم الى لوزان. اننا نقرأ بيديكر ونمعن فى التفكير برحلتنا... وقد اشترطنا مع فلاديمير ألا نتحدث عن عمل من الاعمال، ما دام العمل سوف لا يفوتنا، وألا نتكلم عنه، بل وألا نفكر فيه جهد المستطاع».

الا ان مثل هذه الرحلات كانت نادرة جدا، وهى لم تكن تحدث الا عندما يؤثر العمل والتطاحن الحزبى تاثيرا سيئا جدا على الصحة والاعصاب، كما حدث ذلك بعد شتاء سنة ١٩٠٣–١٩٠٤، اثر المؤتمر الثانى للحزب وانشقاقه. وكانت العادة عند فلاديمير ايليتش انه اذا سافر صيفا الى الريف، فانه بعد بضعة ايام من الراحة التامة، اذا تيسرت هذه الراحة، يعود فيستأنف العمل هناك. واما اذا لم يتيسر السفر الى خارج المدينة، او ان هذه الرحلة لم تكن طويلة الامد، فانه كان يقوم بنزهات خارج المدينة واحيانا فى الجبال مشيا على الاقدام، او راكبا الدراجة، وذلك على الاغلب فى ايام الاحد. وقد كتب فلاديمير ايليتش الى امه رسالة مؤرخة فى ٢٩ اذار سنة ١٩٠٣ يقول: «من الصدف ان كل شئ يجرى على النمط المتبع فى الخارج فنحن نتنزه فى ايام الاحد بالذات، رغم ان ذلك لا يلائمنا، اذ ان جميع الاماكن غاصة تماما». وعند قيامهما بمثل هذه النزهات، كانا عادة يأخذان معهما الساندويتش عوضا عن الغداء ويتجولان اليوم كله. ولم يكن اعتباطا ان انتمى فلاديمير ايليتش وناديجدا قسطنطينوفنا الى فريق «الجوالة» (هواة النزهات)، فى حين ان الرفاق الاخرين كانوا فى فريق «السينمائيين» حسب التعبير

الذى كانوا يمزحون به فيما بينهم، ويقصدون بذلك (رواد السينما).

وكان فلاديمير ايليتش قليل الولع بسائر المتع التى كان الرفاق الاخرون يلتمسونها للراحة من عناء العمل. فهو اثناء اقامته فى الخارج، لم يتردد قط، كما يبدو، على السينما، وكان فى النادر يرتاد المسارح. وعندما كان فى برلين، فى اولى رحلاته الى الخارج، تردد على المسرح لمشاهدة تمثيلية «النساجين» وعندما كان يعيش فى الخارج فى «وحدة تامة»، (اى بدون الاسرة) كان يزور المسرح. وعندما كان يتسنى له بعد عمل مرهق، ان يذهب الى مدينة كبيرة فى شأن من الشؤون، يغتنم هذه الرحلة لكيما «يروّح» عن نفسه بعض الشئ. الا ان المسارح لم تنل رضا فلاديمير ايليتش بتمثيلياتها الا قليلا (فقد كان احيانا مع ناديجدا قسطنطينوفنا يتركان المسرح بعد الفصل الاول، متعرضين لتندّر الرفاق على اتلافهما الدراهم عبثا)، ولم يبق مرتسما عنده من زياراته الاخيرة للمسارح سوى تمثيلية «الجثة الحية» وكان كثير الاعجاب بالمسرح الفنى الذى زاره هو عندما كان لا يزال مقيما فى موسكو، قبل هجرته، وقد زاره مع لالايانتس (كولومب). فقد كتب فى رسالة له الى امه فى شباط سنة ١٩٠١ انه: «يتذكر حتى الان بارتياح» تلك الزيارة. وكتب فى رسالة مؤرخة فى ٤ شباط سنة ١٩٠٣ يقول: ان «بوده لو يرى «فى الاعماق»

تمثل على المسرح الفنى الروسى». وقد تسنى له مشاهدة تمثيلية «فى الاعماق» بعد سنوات عديدة، عندما كان يعيش فى موسكو بعد الثورة.

وكان فلاديمير ايليتش رغم حبه الموسيقى نادرا ما يتردد كذلك على الحفلات الموسيقية ايضا، وقد جاء فى الرسالة المذكورة: «اننا حضرنا مؤخرا، ولاول مرة هذا الشتاء، حفلة موسيقية شيقة، وقد سررنا جدا، وخاصة بسيمفونية تشايكوفسكي الاخيرة (Symphonie pathétique)». وكتب فى ٩ شباط سنة ١٩٠١ الى امه: «كنت فى الاوبرا منذ ايام، واستمعت بلذة كبيرة الى اوبرا «جيدوفكا» (اليهودية) وكنت قد سمعتها فى قازان (عندما انشدها زاكرجيفسكى) منذ ١٣ سنة على ما احسب، وقد بقيت منها فى ذاكرتي بعض الحانها». وكان فيما بعد يصفر احيانا هذه الالحان (بطريقته الخاصة فى الصفير من خلال الاسنان). وفيما بعد كان فلاديمير ايليتش نادرا ما يتردد فى المهجر على الاوبرا والحفلات الموسيقية. وقد كانت الموسيقى تترك تأثيرا قويا جدا فى اعصابه، فعندما لم تكن اعصابه فى حالتها الطبيعية، وهذا ما كان يحدث كثيرا، من جراء الارهاق واضطراب حياة الهجرة، كان تأثيرها عليه سيئا. كما كان للمشاغل الكبيرة والميزانية المتواضعة اثر غير قليل فى حياة فلاديمير ايليتش (من حيث التسليات).

وكان فلاديمير ايليتش يعير اهتماما قليلا كذلك لمختلف الاماكن الاثرية. وقد كتب سنة ١٨٩٥ من برلين: «انني لا اهتم بها كثيرا او قليلا، واني اراها فى الاغلب عن طريق الصدفة،

اني تعجبني زيارة مختلف السهرات والتسليات الشعبية اكثر من مشاهدة المتاحف والمسارح ومعارض الصور وما اليها». وللقيام بهذه «الزيارات» لمختلف الاماكن، كان فلاديمير ايليتش يستفيد عادة من الامسيات، وذلك عندما كان يعيش فى برلين سنة ١٨٩٥، وهذا ما مكنه من «دراسة العادات فى برلين والاستماع الى اللهجة الالمانية». غير ان فلاديمير ايليتش لم ينصرف الى دراسة العادات فى برلين وحدها، عندما حل فيها اثناء نزوحه الى الخارج للمرة الاولى. لان هناك اشارات كثيرة فى رسائله الى الاهل، تظهر انه عندما كان يعيش فى باريس، او يمر بها، كان يتامل الحياة هناك مبتهجا، ويشير الى عدم الكلفة التى يتصف بها الجمهور الباريسى فى احاديثهم وسلوكهم فى الشوارع والحدائق. فقد كتب فلاديمير ايليتش بعد بضعة ايام من حلوله هناك يقول: «باريس مدينة غير مناسبة ابدا للعيش بمال قليل ثم هى منهكة جدا. الا انه لا توجد مدينة احسن واشد مرحا منها للاقامة القصيرة والنزهة والتجول». وعندما كان فلاديمير ايليتش فى تشيكوسلوفاكيا تامل فى حياة سكانها، وكان يأسف لكونه لم يتعلم اللغة التشيكية. ووصف بوضوح حياة فلاحى غاليسيا وعاداتهم، فقد كانت لديه الامكانية للاطلاع على حياتهم عندما كان يعيش فى غاليسيا، ومشاهدة الكرنفال فى الشوارع واشتباك الكرات والاشرطة الورقية الملونة فى مونيخ الخ... لقد احب الحياة فى جميع مظاهرها، واستطاع بصورة واسعة ان يلاحظها ويدرسها، كما يندر ان يفعل ذلك احد.

ومن رسائل فلاديمير ايليتش يمكننا ان نحكم كذلك على علاقاته مع اهله، ولدرجة ما، مع الناس بوجه عام، انه يبدى نحوهم فى هذه الرسائل اهتماما و عناية فائقين. وكان فلاديمير ايليتش على اوثق الارتباط مع اهله، وخاصة مع امه، وكان يعنى بان تكون على احسن حال، وان تعيش مطمئنة مرتاحة، اكثر ما تكون الطمأنينة والراحة، وهذه العناية تتخلل جميع الرسائل، سواء التى ارسلها اليها مباشرة، او التى ارسلها الى غيرها من افراد الاسرة. ورسائله مليئة بالاسئلة عن الصحة، وعن «استئجار الشقة وما اذا لم تكن باردة». فقد كتب فى رسالة الى امه سنة ١٩٠٩: «يقلقني ان شقتكم باردة. أ فلا تبردين... و هلا يمكن اتخاذ بعض التدابير، كأن تنصبوا فيها كانونا حديديا صغيرا؟..» وفى هذه الرسائل نصائح كثيرة فى «الاستراحة الحسنة اثناء الصيف» و«التقليل من الجرى، والاكثار من الراحة وحفظ الصحة» والخ.

وكان اهتمام فلاديمير ايليتش بامه يشتد على الاخص كلما اصابتها محنة. وما اكثر هذه المحن فى حياتها. فقد كان افراد اسرتنا يتعرضون الواحد بعد الاخر، واحيانا عدد منهم فى آن واحد، للاعتقال او المنفى، فكان عليها، وقد تقدمت فى السن، ان تتردد المرة بعد المرة على السجون للمواجهة وايصال الحاجيات، وكانت تجلس الساعات الطوال فى ردهات الانتظار عند الدرك او الشرطة السرية، وكانت احيانا فى وحدة تامة، تتعذب روحها من اجل ابنائها المنتزعة حريتهم. وقد كان فلاديمير ايليتش قلقا عليها اشد القلق فى هذه الفترة من حياتها، وكانت وطأة فراقها عليه شديدة جدا، و هذا

ما يتبين بوضوح خاص من رسالته المؤرخة فى ١ ايلول سنة ١٩٠١ الى امه. فقد كانت ماريا ايلينيشنا مع مارك تيموفييفيتش انذاك فى السجن، وكانت جنة ايلينيشنا فى الخارج، ولم تكن تستطيع العودة الى روسيا، لان ذلك كان يؤدى الى اعتقالها فى ذات القضية. اما ديميترى ايليتش فلم يكن باستطاعته ان يبقى مع الام، اذ كان يجب عليه ان ينهى الجامعة فى يورييف. وكانت فى مثل هذه الوحدة وفى مدينة غريبة عنها عندما اعتقل فى سنة ١٩٠٤ فى مدينة كييف ديميترى ايليتش وحنة ايلينيشنا وماريا ايلينيشنا فى قضية تعود الى اللجنة المركزية ولجنة كييف الحزبية.

كان فلاديمير ايليتش يريد دائما ان تعيش امه معه، وقد دعاها اليه اكثر من مرة. الا ان تحقيق ذلك كان عسيرا، فمن اسباب ذلك ان الام كانت على الدوام مع ابنائها الذين كانوا باشد الحاجة الى مساعدتها، ولعل مثل هذه المساعدة كانت ضرورية فى روسيا على الدوام لمن كان يتعرض لحملات الشرطة. ولذلك لم يتسن لها السفر الى الخارج (اثناء هجرتي فلاديمير ايليتش الاولى والثانية) واللقاء معه سوى مرة واحدة فى كل هجرة، وذلك لمدة قصيرة. ففى سنة ١٩٠٢ عاشت هى شهرا مع فلاديمير ايليتش وحنة ايلينيشنا فى لوغويفو بشمال فرانسا. وفى المرة الثانية، والاخيرة، تسنى لها ان ترى فلاديمير ايليتش فى ستوكهولم حيث سافرت اليها مع ماريا ايلينيشنا فى سنة ١٩١٠ لكى تراه. وكان فلاديمير ايليتش خلال هاتين الرحلتين يعرفها بدقة بطريق السفر، ويشير عليها بان

تستريح ليلا فى الفنادق «لكى لا يتعبها السفر كثيرا». وفى ستوكهولم ذاتها اتيح لماريا الكساندروفنا للمرة الاولى والاخيرة ان تستمع الى فلاديمير ايليتش يتكلم فى اجتماع للعمال اللاجئين. وعندما ظعنّا شايعنا فلاديمير ايليتش الى الرصيف، ولم يستطع الارتقاء الى ظهر الباخرة، لانها كانت تعود لشركة روسية، فكان ممكنا ان يعتقلوا فلاديمير ايليتش هناك. واني لاتذكر للآن تقاطيع وجهه عندما وقف هناك يتطلع الى امه. يا ما اشد الالم الذى كان باديا فى تلك التقاطيع. فكانه كان يحس ان هذا اللقاء مع امه هو اللقاء الاخير. وهكذا كان الامر فى الواقع. اذ لم يتسن لفلاديمير ايليتش بعدما ان يرى اهله الا بعد مجيئه الى روسيا عقب ثورة شباط. اما الام فكانت قد قضت نحبها قبيل ذلك، اى فى تموز سنة ١٩١٦. اننا لم نستلم قط الرسالة الاولى التى ارسلها الينا فلاديمير ايليتش حالما بلغه نبأ هذا الفقد. كما لم يحتفظ بالرسالة التالية، الا انني اتذكرها جيدا. فقد كان فقد الام شديد الوقع عليه، وكان الالم قد نال منه، وقد عزّانا وهوّن كثيرا علينا نحن الذين حزّ فينا كذلك هذا المصاب.

وكان فلاديمير ايليتش على الدوام يهتم اهتماما كبيرا بشقيقاته واخيه، وكذلك بمارك تيموفييفيتش، فكان يعنى دائما بحياتهم وكيف يقضونها، وباحوالهم وكيف هى، وهل يشتغلون، وهل يستريحون جيدا الخ. وكان يسعى ليجد لنا اعمالا فى الترجمة، فيرسل الينا، احيانا كتبا اجنبية، ويهتم بمطالعاتنا ودروسنا، كما كان يدعونا لنعيش عنده، وهلم جرا. وكان

فلاديمير ايليتش يهتم كثيرا بالرفاق ايضا، فكان يسأل كيف يعيشون، ويساعدهم بكل ما فى وسعه. ويكتب المقدمات للتراجم التى ينجزونها، مسهلا بذلك طبع هذه التراجم، وبالتالى امكانية حصولهم على اجور الترجمة.

ان الرفاق الذين لم يعرفوا ظروف الحياة فى المهجر والمراسلات العلنية فى عهد القيصرية، بوسعهم ان يشيروا الى كلمات غريبة وغير مفهومة تصادف فى غير ندرة فى رسائل فلاديمير ايليتش، تنبىء بانه يعيش عيشة «هادئة جدا» و «على وتيرة واحدة» وانه يحيا حياة «ساكنة، وادعة» الخ. وذلك فى عهود كزمن الحرب الاستعمارية، عندما نراه سواء فى المطبوعات او فى الرسائل السرية يبدى تلك الحماسة المحمومة فى النضال ضد الشوفينية التى سرى نفوذها حتى فى معظم احزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية. ولكن لا ينبغى ان ننسى ان فلاديمير ايليتش لم يكن باستطاعته انذاك ان يكتب الا فى الصحف التى كانت تصدر مرة فى بضعة اسابيع او ربما فى بضعة اشهر، والتى كان ارسالها أمرا عسيرا جدا كالكراريس، كما انه كان يتكلم كذلك فى اجتماعات اللاجئين الصغيرة او فى حلقات العمال الاجانب. ومفهوم ان هذه الامكانيات كانت تافهة جدا بالنسبة الى فلاديمير ايليتش. واذا استعرنا كلمات ناديجدا كروبسكايا، وقولها انه كان فى بدء الثورة فى روسيا اشبه فى مظهره بأسد خرج من قفصه، أفلا يتبادر للذهن اذن ان حياة المهجر والانقطاع عن روسيا قبل ذلك، وخاصة فى زمن الحرب الاستعمارية، كانت قفصا لم يعطه المجال ليكون زعيما او خطيبا شعبيا؟

وكان فلاديمير ايليتش يتحرق شوقا لمواجهة العمل الحقيقى، لمواجهة جماهير العمال. الا انه كان مع ذلك مضطرا ان يهيئ اثنين او ثلاثة من الرفاق كى يستطيع بواسطتهم ان يؤثر فى اوساط اوسع. او ليس حقا ان مثل هذا النشاط، كالوضع العام «فى برن الهاجعة»، لم يكن بالنسبة لفلاديمير ايليتش «هادئا» جدا، او يجرى تماما «على وتيرة واحدة»؟

وتلك الحمى ضد «الانتهازيين الاشقياء من الطراز الاشد ضررا»، وضد «ما فوق الابتذال عند التصويت للقروض» الخ. لم تكن تتسلل الى الرسائل العلنية الا نادرا. فقد كان فى هذا المجال مقيدا بقيود الرقابة. وينبغى فقط ان ننظر اية عبارات فى رسائله «تستلفت انتباه» الشرطة السرية والدرك، وتضاف الى «دلائل الاتهام»، لنفهم ان فلاديمير ايليتش وذويه على السواء كانوا عندئذ فى حالة «يتعذر معها جدا ان يتكاتبوا كما يشاؤون».

لقد قلنا فى البدء ان رسائل فلاديمير ايليتش الى اهله لها فى الدرجة الاولى معنى واهمية من حيث معرفة سيرته كرجل (ولكنها، طبعا، ليست معرفة كاملة ابدا، وهى لحدما، بحكم ظروف المراسلة، ذات جانب واحد). ومن هذه الناحية، فهى، فى رأينا، تعد اسهاما قيما فى الكتابات التى تتحدث عن فلاديمير ايليتش، ولا يبقى الا ان نأسف لكون الكثير من رسائله الى الاهل وكذلك الى الاصدقاء قد تلفت. وهناك وثائق اخرى ايضا تتحدث عن لينين كزعيم ورجل سياسة وعالم، منها فى الدرجة الاولى مؤلفاته الجليلة الباقية.

كانت الهجرة الثانية شديدة الوطأة جدا على فلاديمير ايليتش. فقد القى عصا الترحال فى جينيف بعد ان عاش فى بطرسبورغ وفى ضواحى بطرسبورغ، واضطر الى التسليم بالعودة الى الخربة القديمة. فقد كتب فى رسالة له الى ماريا ايلينيشنا، مؤرخة فى ١٤ كانون الثانى سنة ١٩٠٨ يقول: «ها نحن منذ بضعة ايام نتسكع فى جينيف اللعينة هذه. انها هوة سحيقة، وليس باستطاعة احد ان يفعل شيئا. وستدبر الامور على اية حال». وبالفعل فقد اكب فلاديمير ايليتش على العمل، بما عرف عنه دائما من مثابرة وهمة، ذلك لانه كان يعرف «تدبير الامور» فى شتى الظروف. وكتب فى الرسالة التالية الى امه: «ان ما كان ممضا هو لحظة القدوم الاولى ذاتها فقط، وكيف نتقبل الاسوأ مكان الاحسن. غير ان هذا كان امرا لا مناص منه». وما هذا الاسوأ الذى حل محل الاحسن الا عدم وجود المطبوعات اللازمة لعمله والكتب الحديثة والجرائد، وقد كان فى هذا الحين يشعر بهذا النقص بشدة، ففى بطرسبورغ كانت عنده الامكانية ليقرأ جميع الجرائد والمجلات، وان يتقصى كل ما هو جديد. وهكذا اخذ يطلب «تهيئة... محاضر الدوما الثالث (الطبعة الرسمية للتقازير المدونة، وكذلك التصريحات والاستجوابات واللوائح التشريعية المعروضة فى الدوما)» وان ترسل له «جميعها غير منقوصة». وكانت تهمه كذلك «البرامج والبيانات والمناشير التى يصدرها الاوكتوبريون واليمينيون وكتلة القوزاق وغيرهم». فقد كان محروما من هذه المواد التى كان بحاجة اليها، بينما كانت «كل هذه «الاوراق» ملقاة فى زوايا الدوما، لا احد يلتقطها».

وكان يطلب كذلك ان ترسل اليه «كل مطبوعات المناقشة الحديثة»، والمجلات المهنية، التى سلمت من الاغارات الخ...

غير ان فلاديمير ايليتش لم يكن يعانى النقص فى الكتب وحدها اثناء حياته فى المهجر، رغم اننا كنا نسعى لتزويده بها، وبامتع ما كان يظهر فى سوق الكتب، بل كان يعانى العوز الى الجرائد الروسية. وهذه الناحية كانت على اسوأ ما يكون ابان الحرب الاستعمارية، عندما كان فلاديمير ايليتش يقضى اوقاتا لا تصله فيها اية جريدة روسية. فقد كتب فى رسالة مؤرخة فى ٢٠ ايلول سنة ١٩١٦: «ارسلوا لي مرة فى الاسبوع الصحف الروسية التى تقرؤونها، فليس عندي منها شيء».

وكان فلاديمير ايليتش بحاجة كبيرة الى الدراهم وخاصة فى السنوات الاخيرة من الهجرة. فقد كتبت ناديجدا قسطنطينوفنا فى رسالة مؤرخة فى ١٤ كانون الاول سنة ١٩١٥ مايلى: «ستنقطع عنا عاجلا جميع مصادر العيش القديمة، وستكون مسألة الدراهم مسألة الساعة» وكتبت ايضا ان هذه المسألة «تقلقه غاية القلق». وقد كتبت ناديجدا ذلك لان فلاديمير ايليتش كان متحرجا جدا فيما يخص الدراهم، فكان يتحاشى المساعدة من ايما ناحية اتت. جاء فى رسالته بتاريخ ٢٠ ايلول سنة ١٩١٦: «جلست اكتب شيئا ما ايا كان، ان تكاليف المعيشة جهنمية، والعيش اصبح صعبا للغاية».

ولم يكفّ فلاديمير ايليتش عن البحث عن كتب للترجمة ومراسلة الناشرين حول طبعها الا بضعة اشهر فقط قبل ثورة

شباط، اى فى خريف سنة ١٩١٦. وكم كانت طاقته تذهب هدرا لو ان قواه استخدمت فى الترجمة، او لو توجب عليه ان يتلف وقته عليها. غير ان الثورة قد «عرقلت» ذلك.

تلك كانت ظروف حياته فى المهجر قبيل الثورة. فانفصاله عن روسيا وعن جماهير العمال التى كان هو على الدوام يتحرّق شوقا الى التماس المباشر معها، وظروف العيش القاسية فى المهجر — رغم ان فلاديمير ايليتش لم يفارقه قط نشاطه وعزمه — كل ذلك قد «اثر فى اعصابه»، وقوض جسمه كله افظع تقويض.

كانت اللهجة مريرة فى رسالته المؤرخة فى ١٥ شباط سنة ١٩١٧ اذ يذكر فيها كلمة مزاح قالتها له ناديجدا قسطنطينوفنا عند استلامه الدراهم من روسيا: «ها قد اصبحت تقبض «راتب التقاعد».

وبعيد هذه الرسالة، وما تضمنته من كلمات مزاح تشف بوضوح عن الظروف الشاقة التى كان على فلاديمير ايليتش ان يعيش فيها قبيل الثورة، تلقينا النبأ السار المقتضب التالى برقيا: «ساصل يوم الاثنين ليلا فى ١١. اخبروا «البرافدا». اوليانوف».

وانتهت حياة المهجر، وبانتهائها انقطعت المكاتبة مع الاهل.

ولم استلم انا بعد ذلك من فلاديمير ايليتش سوى رسالتين قصيرتين، قصر مدة اختفائه فى فنلندا فى عهد كرنسكي وكورنيلوف، عشية انتصار اكتوبر العظيم.

ماريا اوليانوفا

قدوم لينين

في ١٦ من نيسان تتم عشرون سنة منذ يوم قدوم فلاديمير ايليتش لينين الى بطروغراد بعد ثورة شباط، التي وضعت حدا لنفيه الذي استمر طويلا. قضى فلاديمير ايليتش في المهجر زهاء خمسة عشر عاما (ما عدا فترة قدومه الى بطرسبورغ ابان الثورة الروسية الاولى سنة ١٩٠٥). خمسة عشر عاما من احسن سنوات عمره قضاها، كما قال في رسائله، في وسط «مزعجاته كثيرة»، في وسط «فيه نسبة عدد الناس، الذين لا يشكل كيانهم كله سوى شلة عصبية مريضة، نسبة عظيمة لحد مفزع لا يمكن تصوره...» وكانت الهجرة شديدة الوطأة على الخصوص، اذ كان على فلاديمير ايليتش ان يعيش بعيدا عن جماهير العمال الروس الذين كان هو على الدوام يتوق الى الارتباط المباشر معهم. الحق، ان حياة فلاديمير ايليتش في المهجر كانت تختلف شديد الاختلاف عن اكثرية اللاجئين.

قال الرفيق ستالين فى حديثه مع اميل لودفيغ: «كان هناك قلائل جدا ممن بقوا فى روسيا، وكانوا مرتبطين بالواقع الروسى وبحركة العمال داخل البلاد ارتباطا وثيقا كارتباط لينين، رغم انه قضى فى الخارج زمنا طويلا. وكنت كلما قصدته فى الخارج، فى سنوات ١٩٠٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٢ و ١٩١٣، اجد عنده اكداسا من الرسائل تلقاها من العاملين فى روسيا، وكان لينين دائما على اطلاع اكثر من اولئك الذين بقوا فى روسيا».

ومع ذلك، «فانه كان دائما يعتبر بقاءه فى الخارج عبئا عليه».

وقد غدا هذا العبء، بطبيعة الحال، عبئا لا يطاق، خاصة بعد اندلاع ثورة شباط. كتب فلاديمير ايليتش الى الرفيق غانيتسكى:

«بوسعك ان تتصور اى عذاب هذا الذى نعانيه جميعنا نحن بقعودنا هنا فى وقت كهذا».

ولم يعد لينين يطيق صبرا عن المجىء الى روسيا كى يسهم مباشرة فى قيادة نضال البروليتاريا الثورى والفلاحين الكادحين، وتكون له الامكانية ليؤثر فى حينه على الحوادث السياسية. غير ان السفر الى روسيا لم يكن امرا سهلا. اذ لم يكن يعول على مساعدة الحلفاء الا الاشتراكيون-الشوفينيون وحدهم. فبليخانوف وانصاره سافروا دون مانع على ظهر طراد تصحبه النسافات. فقد كان الحلفاء لا يرجون من وراء نشاط الدفاعيين فى روسيا الا ما فيه النفع لسياستهم الاستعمارية. ولم

يكن الامر كذلك مع الامميين المسجلة اسماؤهم فى «القوائم السوداء»! وكان سفر هؤلاء عبر بلدان الحلفاء مجازفة تستتبع الحجز والاعتقال او غرق الباخرة، كما حدث ذلك لنفر ممن اختاروا هذا الطريق للمجيء الى روسيا. وقد فهم لينين ذلك اتم الفهم. فقد كتب بتاريخ ٣٠ اذار سنة ١٩١٧ الى غانيتسكى:

«ان الامر لا يخلو من دافع يحمل انجلترا على عدم السماح لي وللامميين بوجه عام... واضح ان خادم الرأسمال الاستعماري الانجليزى الفرنسى، الاستعمارى الروسى ميليوكوف (وشركاه) مستعدون للاتيان بكل شيء، بالخداع والخيانة، وبكل شيء وكل ما يمنع الامميين من العودة الى روسيا. ان اقل ايمان، فى هذا الصدد، بميليوكوف وبكرنسكى (هذا المهذار الاجوف، عميل البرجوازية الاستعمارية الروسية فى ادواره الموضوعية) يكون هلاكا مباشرا لحركة العمال ولحزبنا، ويضارع الخيانة للاممية».

اذن فاى طريق اخر يمكن اختياره؟ كان فلاديمير ايليتش يضع المشروع الخيالى اثر المشروع، الا انها كانت جميعها غير قابلة للتنفيذ. وكان يفكر فى سهر الليالى فى امكانية الهرب من سويسرا، وقرر مرة ان يتظاهر بالبكم ويذهب الى السويد بجواز سفر سويدى. وعلى غانيتسكى ان يجد سويديا يشبه فلاديمير ايليتش ويحصل منه على جواز سفره. وحتى ان لينين ارفق بالرسالة التى تتضمن هذا المشروع صورته الفوتوغرافية. وقد تحدث غانيتسكى بهذا الصدد وقال:

«عندما قرأت الرسالة شعرت كيف يتلظى فلاديمير ايليتش شوقا، ولكني اعترف اني ضحكت كثيرا من هذا المشروع الخيالى...

اما الصورة المرسلة (صورة فلاديمير ايليتش) فقد اغتنمت فى الحال. فبعد يومين زينت بها جريدة الاشتراكيين-الديموقراطيين اليساريين السويديين اليومية «بوليتيكين» ونشرت تحتها افتتاحية بقلم فوروفسكى جعل عنوانها: «زعيم الثورة الروسية».

ولم يلبث فلاديمير ايليتش ان فقد الرجاء كذلك بنجاح محاولات اللجنة المختصة باعادة اللاجئين السياسيين الروس الى روسيا بواسطة سوفييت نواب العمال ومساعدة ميليوكوف من اجل السفر عبر المانيا فى استبدال الاسرى الالمان. ولم يستطع ميليوكوف ان يصادق على مثل هذا المشروع. وكانت الامكانية الواقعية الوحيدة هى الحصول على رخصة من الحكومة الالمانية للمرور عبر المانيا، وقد حصل عليها بواسطة الاشتراكيين السويسريين المحايدين.

وكانت هذه مجازفة طبعا، فقد كان واضحا ان البرجوازية الروسية والاشتراكيين-الشوفينيين سيستغلون سفر البلاشفة عبر المانيا للافتراءات والاستفزازات ضدهم. وبالنظر لهذه الرحلة كان ينبغي ان تنظم بشكل ينفي كل امكانية للاتهام بعقد صفقة مع الحكومة الالمانية والاشتراكيين-الشوفينيين الالمان. فاوصى فلاديمير ايليتش الشيوعى السويسرى فريتس بلاتين ان يعرض على السلطات الالمانية شروط السفر. واساس هذه الشروط طلب الحصانة للعربة، واما المسافرون فيها فلا يجب ان تفحص جوازات سفرهم، غير انه لا يحق لاحدهم، ما عدا الرفيق بلاتين ان يخرج من العربة، ولا ان

يجرى في عرض الطريق أية محادثات مع اى رجل كان. وقد رافق الرفيق بلاتين فلاديمير ايليتش ورفاقه الى ستوكهولم (اما الحكومة الروسية فلم تسمح له بالمجئ الى بطروغراد). وبحكم الشروط الآنفة الذكر فقد اطلق على العربة اسم «العربة المختومة».

وفي ٩ نيسان (حسب التقويم الجديد) سافر فلاديمير ايليتش من زوريخ. ولم يرحل معه سوى فريق صغير من اللاجئين، معظمهم من البلاشفة. ونعت الاخرون هذه الرحلة بانها «غلطة سياسية»، واقاموا فوق ذلك عند مغادرة القطار مظاهرة عدائية ضد رفاقنا. غير انهم لم يلبثوا فيما بعد ان اختاروا الطريق ذاتها، اذ فقدوا الامل بامكانية السفر الى روسيا بطريق آخر.

وكان قدوم فلاديمير ايليتش الى بطروغراد، حيث كنا ننتظره، مفاجئا. اذ لم نستلم نحن برقيته من تورنيو، وفيها ينبئ بخبر رحيله، الا في نهار ١٦ نيسان. وكان من ايام الاعياد. فالمعامل كانت معطلة، ولم تصدر الجرائد، غير ان النبأ السار كان يشيع في احياء العمال تتناقله الالسن والشفاه، منبئا بان زعيم البلاشفة يجب ان يصل مساء. واخذ العمال يستعدون لاستقبال زعيمهم العام المحبوب ومعلمهم استقبالا حافلا.

وبدأ الاستقبال في بيلواوستروف التي كان قد وصل اليها، ما عدا رفاق لينين الاقربين واهل بيته، عمال وعاملات سيستروريتسك ومعهم الاعلام. وحمل ايليتش من العربة على

السواعد، وفى المحطة القى خطابا على العمال. فتحدث عن اهمية ثورة شباط التى يجب ان تكون «خطوة» نحو الثورة الاشتراكية العالمية.

واحدث هذا الاستقبال انطباعا كبيرا فى نفس فلاديمير ايليتش. فقد توهج وجهه كله، وكان منفعلا جدا. واخذ يمطر الرفاق بالاسئلة عن سير الاعمال، مبديا فى ذات الوقت قلقه من احتمال توقيفه فى بطروغراد. ولكن بدلا من الاعتقال كان فى انتظاره فى محطة فنلندا استقبال اعظم مهابة. وقد احدث هذا الاستقبال عند كل من حضروه انطباعا لن يزول ولن ينسى.

ففى لحظة وصول القطار، كانت الساحة كلها والشوارع المتفرعة عنها غاصة بالناس. فقد ملاها عشرات الالوف من العمال والعاملات جاؤوا مع اعلامهم. وصف فى الرصيف حرس الشرف مكونا من بحارة الاسطول وجنود وحدة الرشاشات وفوجى موسكو وبريوبراجينسكى. وعندما ظهر فلاديمير ايليتش استعد الجنود والبحارة استعداد التحية، وعزفت فرقة الموسيقى العسكرية نشيد «المارسيليز». وبعد ان استمع فلاديمير ايليتش الى التقرير، توجه الى حرس الشرف بشعار «عاشت الثورة الاشتراكية!» ثم ارشد الى «غرفة الاستقبال» حيث كان عليه ان يصغى الى تحية المداهنة التى القاها تشخييدزه الذى حضر لاستقباله موفدا من اللجنة التنفيذية لسوفييت نواب العمال والجنود والفلاحين. ومن جديد اطلق فلاديمير ايليتش فى خطابه الجوابى الشعار ذاته الذى اثر، كما يظهر، تأثيرا سيئا فى نفس تشخييدزه.

وعندما خرج فلاديمير ايليتش الى الساحة استقل سيارة ركوب كانت معدة له، الا ان مندوبى العمال الذين كانوا يحيونه باصوات داوية، طلبوا اليه ان يترك هذه السيارة ويرتقى سيارة مصفحة. والقت الانوار الكشافة اضواءها على المصفحة التى اخذت تدرج نحو دار كشيسينسكايا، وكان فلاديمير ايليتش من فوقها يتلفت تارة الى هذا الجانب وتارة الى ذلك محييا العمال والجنود المحيطين به، الذين حرروا روسيا من الحكم المطلق. وكان يهتف «عاشت الثورة الاشتراكية!» وكانت حشود العمال تزحف زحفا فى اثر المصفحة، وكان يتقدم الحشود الحرس الشعبى المسلح المرسل من المعامل والمناطق، وعلى الجانبين شكل العمال سلسلة من صفوفهم.

وفى قصر كشيسينسكايا اجتمع الرفاق الحزبيون واخذوا يتعاقبون فى القاء التحيات، الا ان فلاديمير ايليتش سرعان ما ادار الحديث حول الشؤون العملية. فالقى على المجتمعين خطابا اجمل فيه وجهة نظره فى المهام القادمة التى تواجه الحزب بحكم الحالة الناشئة. وتحدث عن تلك المبادىء التى لخصها هو فى اليوم التالى فى اجتماع فريق نواب العمال بسوفييت بطروغراد، والتى انعكست فى مباحث نيسان المشهورة.

وقد اثارت هذه المباحث ثائرة البرجوازية وحقدا بهيميا عند المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين. فاستغلوا اوسع استغلال الرحلة عبر المانيا فى «العربة المختومة» لغرض الافتراء على زعيم الحزب لينين، وان يبعدوا عن البلاشفة الفئات غير الواعية من العمال والجنود ممن كانوا لا يزالون

فى اسر اوهام البرجوازية الصغيرة. ولم تفهم انئذ الا اقلية من العمال الموقف الذى اتخذه لينين، والذى ظهرت صحته بمثل ذلك السطوع بعد اشهر قلائل، وضمن النجاح والانتصار لثورة اكتوبر العظمى.

مضت عشرون سنة على يوم قدوم لينين من المهجر فى نيسان سنة ١٩١٧. وقد تحقق الشعار الذى اطلقه على جماهير العمال فى ذلك اليوم المشهود. فتحت قيادة الحزب الشيوعى استطاعت بلادنا، وهى تزيح عن طريقها انصار عودة الرأسمالية الاشقياء واعداء الثورة التروتسكيين واليمينيين، من ان تبنى الاشتراكية وان تتقدم بثبات نحو منجزات جديدة، نحو انتصار الشيوعية.

«الازفستيا» العدد ٩١.
١٦ نيسان ١٩٣٧.

ماريا اوليانوفا

من رسائل الى لينين

من الاوراق والرسائل القديمة التى تعود الى السنوات الاولى للثورة، عثرت على رزمة من الرسائل، بعضها بعنوان فلاديمير ايليتش مباشرة والبعض الاخر معنون باسم هيئة تحرير «البرافدا» او باسمي انا لابعثها اليه. وهذه كانت اولى الرسائل الى فلاديمير ايليتش من الكادحين، وبالدرجة الاولى من الجنود فى الجبهة الذين اطلعوا لاول مرة على خطابات فلاديمير ايليتش من المقالات المنشورة فى جريدة «البرافدا»، تلك المقالات التى كانت تتضمن افكارا واراء «تتباين»، كما كتب احد الجنود من الجبهة، «كل التباين مع مقالات الجرائد الاخرى الموجودة وجرائد ما قبل الثورة». وقد وجدت هذه الاراء عندئذ، اى فى الاشهر الاولى بعد ثورة شباط، العطف عند الاكثرية العظمى من جنود الميدان

الذين انهكتهم الحرب الاستعمارية، فبادروا الى كتابة الرسائل يعربون فيها عن امتنانهم «للحامى العزيز، السيد لينين».

ولكن هذه الاراء كانت جديدة تماما بالنسبة اليهم وفيها الكثير جدا من الغوامض، بحيث انه كان ينبغى عليهم ان يمعنوا التفكير فيها ويحلوا ما ابهم. واخذت تتهافت الرسائل يتساءل فيها اصحابها «كيف ستنتهى الحرب»، ويطلبون ارسال «البرنامج مع الشروح» وغير ذلك وهلمجرا.

واخذت الصحف البرجوازية وخدم البرجوازية من المناشفة والاشتراكيين-الثوريين يجهدون انفسهم بكل الوسائل للحط من لينين فى اعين جماهير الجنود، ناعتين اياه بالجاسوس الالمانى وعدو الوطن وما الى ذلك. الا ان اكثرية الجنود لم تصدق هذه الفرية، وادركت بحسها بواعث تلفيقها.

فقد كتب احد البحارة: «ايها الرفاق الجنود والعمال، لا تصدقوا الجرائد البرجوازية ودساسيها الذين يبذلون كل قواهم ليشوهوا امام الشعب اسم مناضلنا من اجل الحرية والمساواة. تمعنوا، ايها الرفاق، وتبينوا بانفسكم، هل يطيب لهم، للرأسماليين ان ننتزع منهم اخر امل...»

ونقرأ فى «مذكرة امتنان الى السيد لينين»، ارسلها فريق من الجنود من مختلف افواج المشاة، الكلمات التالية:

«اننا نستنتج من كلماتكم التى نطقتم بها فى خطابكم، انكم انتم وحدكم تعطفون على الحرية الحقيقية وتعطفون على الجنود المعذبين. ايها السيد لينين، ان كلماتكم التى ضمنتموها

خطابكم تتفق والحقيقة كل الاتفاق. انه وان كان هناك ارجاف كثير ضدكم، ولكن من الذى يصغى الى ذلك؟»

ومع ذلك لم تكن عند الكثيرين ثقة راسخة، وكان ينبغى ان تشرح لهم الامور شرحا وافيا. وبهذا الخصوص تجدر بالذكر الرسالة التالية:

«الى الرفيق والمواطن، السيد لينين.

ايها الرفيق لينين!

اني كالكثير من الجنود العاملين فى الجبهة، اسمع احاديث كثيرة عنكم وعن اعمالكم، كمناضل من اجل الحرية وصديق حقيقى للبروليتاريا. ولكن هناك فى الوقت نفسه من يريدون حمل الجنود على الاعتقاد بانكم عدو للبروليتاريا، فيوزعون بيننا الجرائد المبقّعة صفحاتها بتهجمات عليكم. ويهمسون دائما فى اذاننا بانكم عدو الشعب وروسيا الخ. غير ان الجنود لا يصدقون ذلك كله وهم يؤازرونكم. وقد طلب الجنود الىّ، من اجل توضيح هذا التضارب، ان اكتب اليكم رسالة نطلب فيها التحدث اليهم عن رايكم فى المسألة الزراعية وعن الحالة فى الجبهة، وبكلمة اخرى، ما هو فى رأيكم احسن: ان نهاجم او ننتظر الصلح. ايها الرفيق لينين، ارجوكم باسم الرفاق ان تجيبوا هذا الطلب».

وكان تبيان الامر يتطلب فى الواقع عملا كثيرا، لان الاراء التى كان فلاديمير ايليتش يبشر بها، والتى كان

الجنود فى الجبهة يتعرفون بها، كانت غالبا ما تشوش عليها جرائد الكاديت وتجعلها مبهمة فيها الكثير من الغموض.

فقد كتب فريق من الجنود يقول: «نحن لا نمتنع عن الحرب، كما يقول السيد لينين، ونحن لا نريد ان نلقى السلاح، ومع ذلك ينبغى السعى للتعجيل فى انهاء الحرب وفق رأى السيد لينين. المعذرة، ايها السيد لينين، نحن شعب قليل المعرفة، لان الحكومة القديمة كانت تخاف ان تتفتح اعيننا، ولكننا نطلب اليكم، من فضلكم، الا تحجموا امام اى شىء، وخاصة ضد هؤلاء البلاشفة». وهكذا فهم يشعرون نحو لينين بمنتهى العطف، ويثقون به ويرجون له «التوفيق والنجاح فى القضية التى بدأ تموها ايها السيد لينين»، اما «هؤلاء البلاشفة» فقضيتهم قضية اخرى، وليس عبثا ان توجه ضدهم الشتائم امام الجنود.

ولكن لم يكن هناك عند البعض اى شك او تردد. اقرأوا هذه الرسالة:

«ايها الرفيق والصديق لينين. تذكّر اننا نحن الجنود (من الفوج الفلانى) مستعدون جميعا كرجل واحد للسير فى اثرك، وان فكرتك هى افصاح حقيقى عن ارادة الفلاحين والعمال».

وكتب جندى من الميدان فى رسالته: «اقطع لك عهدا انا ورفاقي الواقفون موقفى والموقعون على هذه المضبطة، اننا لن نرمى السلاح، واذا عدنا الى بيوتنا فسنقوّى تسليحنا»، ويختم الرسالة بقوله «اوقعها بايمان صادق (فلان)».

الحق انه كانت هناك مع الرسائل المفعمة بروح التضامن رسائل تشف عن عدم الثقة.

فقد كتب جندى عائد من الميدان: «ايها الرفيق لينين، انكم تعظون فى كل مكان بسقوط الحرب، واتباعكم يعظون بذلك ايضا. لقد سمعت عن هذا شيئا كثيرا، وعندما اسأل كيف تنهى الحرب، لا يستطيعون الاجابة على ذلك».

وهناك بعض الرسائل طافحة بالسخط «من اجل ايجاد الخصومات والاخلال بالتنظيم فى صفوف الجيش» وبالشتائم لا اكثر، الا ان عددها ضئيل، بعضها صادر عن اخلاص، ومرسل من جنود يعيشون فى الجبهة فعلا، لا من اعداء الثورة الحقيقيين الذين كانوا يسعون للتظاهر بانهم يكتبون من المواقع الامامية.

ثم انتصر الحكم السوفييتى، وانتهت الحرب واخذ عدد الرسائل المرسلة الى فلاديمير ايليتش يتعاظم، وكانت تتناول مواضيع اخرى. وكان ينبغى شرح مسائل وطلبات كثيرة، منها مسائل الانشاء، والموقف ازاء الاحزاب الاخرى، وشؤون الفلاحين، واشارات الى مختلف الاختلالات الخ... وكان كثير من الرسائل تتناول شؤونا شتى، كطلب المساعدة او ايجاد عمل وما اشبه ذلك. وقد حاول فلاديمير ايليتش فى بادئ الامر ان ينظر بنفسه فى الرسائل الموجهة اليه، الا انه سرعان ما اضطر الى العدول عن ذلك. وانى اتذكر كيف حدثنى مرة انه استلم رسالة بعدة صفحات، وعرف اخر الامر ان القضية كلها تدور حول طلب الحصول على الة طابعة لكاتب الرسالة،

اذ ذاك قرر فلاديمير ايليتش العدول عن قراءة مثل هذه الرسائل، وعهد الى رفاق معينين فى ديوان مجلس مفوضى الشعب ان يقرؤوها ويحققوا من الطلبات ما كان ممكنا تحقيقه، وان يعدوا كذلك الاجوبة عليها.

وبديهى ان جميع الرسائل الخاصة بالشؤون الحزبية وما اليها، القادمة من الرفاق الذين يعرفون فلاديمير ايليتش معرفة شخصية كانت تصل مباشرة الى فلاديمير ايليتش، كما كان يوقف على مضامين الرسائل الاخرى العديدة فيصدر تعليماته بشأن كيفية الاجابة عليها. اما تلك الرسائل التى كان يرسلها الكادحون فى جمهورية روسيا الاتحادية الى فلاديمير ايليتش محيين اياه، او مستفسرين عن صحته وغير ذلك فكانت تقدم اليه عادة بواسطتي انا. وفى رزم الرسائل القديمة التى اشرت اليها فى مستهل هذا الحديث يحتفظ بعدد من هذه الرسائل.

وهذه الرسائل تطفح بالحب العميق والاحترام الفائق اللذين كان فلاديمير ايليتش يتمتع بهما بين جماهير الكادحين الواسعة. وكان سيل الرسائل هذه عظيما جدا خاصة عندما جرح فلاديمير ايليتش ومرض، وكذلك عند بلوغه سن الخمسين. اليكم الرسالة التى ارسلها شخص من اعضاء بعثة المفوض فوق العادة لشؤون التموين:

«ابعث تمنياتي القلبية الى زعيم البروليتاريا الذى كابد العذاب السنوات الطوال، الى الرفيق لينين لتحريره البروليتاريا الكادحة من حكم النمر الذى انشب براثنه فى جسم العمال

والطبقة الفقيرة من الفلاحين اعواما مديدة، وغرز فيه مخالبه الحادة الطويلة. شلت يد خائنة ترتفع لاغتيال زعيم الثورة. الشرف والمجد لشغيلة حكم العمال البروليتارى، الذى يرأس بروليتاريا العمال والفلاحين العالمية».

وقد ارفقت هذه الرسالة بمذكرة تحتوى المضمون التالى:

«ارسل مع هذه الرسالة الى الرفيق لينين، فى مرضه اثر محاولة اليد الخائنة اغتياله، خمسين بيضة».

وهذه «الهدايا» كانت ترسل فى غير ندرة، وكانت تتخذ احيانا طابعا مؤثرا جدا. فذات مرة جاء جندى فلاح معه برغيف (روسى) الى فلاديمير ايليتش، ظانا انه «قد لا يكون عنده منه شىء»، وطلب ان يسمح له بالجلوس ومشاهدة فلاديمير ايليتش دقيقة واحدة فقط. وعندما ابل فلاديمير ايليتش من جراحه، بعث اليه احد الرفاق من سيبيريا رزمة من الكعك البيتى، وكتب فى رسالته: «ارجوكم رجاء ان تتقبلوا هديتي. فهذه الهدية قد صنعتها زوجتي اوليانا ماركيلوفنا بيديها. ارجوكم بالتماس ايها الصديق العزيز ان تتناولوا هذا الكعك الريفى». وكانت ترسل احيانا رزم كبيرة، الا ان فلاديمير ايليتش كان يبعث بها عادة الى المستشفيات وبيوت الاطفال وما اليها.

ولم تكن الرسائل ترد من العمال وحدهم، بل كانت ترد ايضا من الفلاحين فى القرى. واليكم واحدة منها:

«من مواطنى ناحية ليفولامسكايا (بمحافظة تامبوف) قرية برافييه لامكي. لقد اقدمنا، دون اذن منكم، على تحيتكم، ايها الزعيم السامى للفلاحين العمال الروس فلاديمير ايليتش اوليانوف ـ لينين، فى يوم ميلادكم ٢٢ نيسان وبلوغكم سن ٥٢. لقد انشدنا من اجل صحتكم نشيد الاممية الشيوعية الثالثة بصوت عال»... «اننا نريد لكم الصحة دوما، وان تكونوا الزعيم السائر فى طليعة الفلاحين العمال الروس. اننا على استعداد فى اية ثانية للنهوض كالبنيان المرصوص لمساعدة الزعيم السامى فلاديمير ايليتش اوليانوف ـ لينين، اذا ما سولت لاحد نفسه ان يناهض زعيمنا والطبقة العاملة»... وجاء فى الرسالة بعد ذلك، «اننا نستميحكم العذر ونطلب الصفح لازعاجنا اياكم، او ربما نكون قد كدرنا خاطركم برسالتنا، غير اننا سنكون مبتهجين اذا كتبتم انتم الينا ولو سطرا واحدا، اى ان تخبرونا بانكم استلمتم رسالتنا... لقد كتب الرسالة جميع اللاحزبيين وجميع انصاف المتعلمين، فاعذرنا اذا لم تجئ مكتوبة على الوجه المطلوب. نحن وان كنا غير حزبيين الا ان قلوبنا وارواحنا شيوعية، لقد فهمنا ان الحكم فى اللحظة الراهنة هو فعلا للكادحين».

كان من الممتع لو عرفنا اين هو الآن كاتب هذه الرسالة، والى اى حد نما وعيه السياسى خلال المدة التى انصرمت منذ كتب هذه الرسالة، فلعله يقوم الآن بعمل جسيم فى بنائنا الاقتصادى، ولعله لم يبق «بقلبه» وحده شيوعيا، بل اصبح شكليا كذلك عضوا فى حزبنا؟

انى اتذكر كيف توهج وجه فلاديمير ايليتش عندما قرأ هذه الرسالة. وقد طلب الي لزاما ان اذكره ليجيب عليها، وقد اجاب عليها فعلا.

ونقرأ فى رسالة اخرى من الريف كتبت فى ايار سنة ١٩١٧ ما يلى:

«ان الفلاحين عندنا يفهمون جميعا ان ابانا لينين وحده يستطيع انقاذ روسيا اذا ايدناه نحن جميعا ونهجنا على شريعته».

وفى رسالة من مجاهل محافظة فياتكا وردت العبارات التالية:

«يسمونكم انتم وبوجه عام جميع من يسيرون معكم بالبلاشفة. اني لم افهم فى بادئ الامر، ما هم البلاشفة والمناشفة، وقد توجهت الى الكثيرين طالبا الايضاح، فلم استطع الحصول على ايضاح. ولعل من الممكن كل الامكان ان يكون السبب هو التحاشى عن اعطاء الجواب الصحيح او انهم لم يفهموا حقيقة الاحزاب. وربما توصلت الى النتيجة التالية دون اية مساعدة من الغير، وهى ان لحزب الاشتراكيين ـ الديموقراطيين برنامجين: برنامج الحد الادنى، الذى اعرفه ولو اجمالا. واما برنامج «الحد الاقصى» الذى تمثلونه انتم، او بالاحرى انتم، حسبما افهم، ابو هذا البرنامج، لينين المشهور المدوّى اسمه فى روسيا باسرها، فلست اعرفه».

وبعد ذلك يطلب كاتب الرسالة ان نرسل اليه «برنامج الحد الاقصى» بكامله، ليتمكن من الدفاع امام الملأ عن اراء لينين»، و«من اجل النقاش مع خصومكم وكذلك مع خصومي».

ومرة وردت بطاقة بريدية من العمال الايطاليين تتضمن تحية الى لينين، وقد جاء فيها: «ان عمال فيرونا يتمنون السعادة لك وللحكومة السوفييتية جميعا».

ونقرأ فى رسالة اخرى ما يلى: «اني اتتبع انباء الصحف عن صحة الزعيم العظيم لبروليتاريا روسيا الاتحادية. ففى حالة عدم حصول نتيجة موفقة لفلاديمير ايليتش اوليانوف - لينين فى مرضه، الامر الذى يجر على البروليتاريا الروسية رزءا فادحا، فاني اتقدم بقلب بروليتارى طاهر، عارضا على انظار رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية روسيا الاتحادية علاجا طبيا غير معروف كثيرا، بامكانه حسب اعتقادي الجازم، ان يساعد على استعادة صحة المعلم العظيم الرفيق لينين، وان يعيده من جديد الى صفوف البروليتاريا لخير الشعب العام».

وارسل كثيرون رسائل أعلنوا فيها استعدادهم للتبرع بدمائهم لفلاديمير ايليتش فى مرضه.

13—1423

ماريا اوليانوفا

الاختفاء فى روسيا «الحرة»

البحث عن فلاديمير ايليتش فى الايام الاولى من تموز سنة ١٩١٧.

فى ليلة الخامس من تموز دمرت جريدة «البرافدا». وقد كاد طلاب المدارس العسكرية ان يعثروا هناك على فلاديمير ايليتش الذى كان قد ذهب قبل غارتهم بنصف ساعة الى هناك فى بعض شؤون التحرير. ولم يصل الينا نبأ الغارة حتى اليوم التالى. فقد جاءنا سفيردلوف فى الصباح واستيقاظنا وحدثنا عما جرى فى الليل، واخذ يصر على ضرورة اختفاء فلاديمير ايليتش فى الحال. وكان واضحا تماما ان الامر سوف لا يقتصر على تحطيم دائرة التحرير، وان فلاديمير ايليتش يهدده خطر الوقوع فى براثن طلاب العسكرية ثم وضع ياكوف ميخايلوفيتش سفيردلوف مشمعه على كتفى اخي، وغادرا البيت فى الحال دون ان يلاحظهما احد بتاتا. اما نحن فقد اخذنا نعد العدة لاستقبال الضيوف الثقلاء الذين لم نشك قط فى قدومهم. وكنا قد اعتدنا فى عهد القيصرية على مثل هذه الزيارات

الليلية بما فيه الكفاية، ولكن التعرض للكبس فى روسيا «الحرة»! كان غريبا كل الغرابة ومهينا جدا.

وفى ساعة متاخرة من المساء دوت فرقعة سيارة شحن كبيرة فى شارعنا الهادئ الفارغ من الناس (فقد كنا نعيش فى نهاية شارع شيروكايا بحى بطروغراد) وتوقفت بالقرب من بيتنا. وصحت انا «ها هم قد جاؤونا». وبالفعل شاهدنا، عندما ذهبنا الى النافذة، ان سيارة الشحن قد توقفت قرب الدار التى كنا نعيش فيها، وكان الجنود يتجهون نحو المدخل. وكنا نسمع من النافذة اصواتهم العالية، وسمعناهم يتحدثون مع الكناس او البواب، وبعد بضع دقائق رن الجرس وقرع الباب بقوة.

وفتحنا الباب فى التو، اذ لم يكن هناك ما يقتضى اخفاؤه، وغصت شقتنا كلها بحشد ضار من الطلبة العسكريين والجنود وفى ايديهم الاسلحة. وما كادوا يبرزون لنا الحكم بالتحرى حتى شرعوا فى عجلة بالبحث عمن جاؤوا من اجله. وتوجه معاون رئيس دائرة الاستطلاع ومعه اثنان او ثلاثة من الضباط والجنود نحو الغرفة التى كان يعيش فيها فلاديمير ايليتش، وشغل الباقون كل الغرف الاخرى.

وبالرغم من اننا قلنا لهم ان فلاديمير ايليتش غير موجود فى الشقة، فقد استمروا يبحثون عنه فى كل مكان يمكن تصوره، او يمكن ان يختفى فيه الانسان، اى تحت الاسرة وفى الخزانات وخلف ستائر النوافذ الخ.. وطلبوا المفاتيح، وعندما كنت افتح لهم هذا السفط او ذاك الصندوق كانوا ينبشون ويبعثرون متاعه بحرابهم. ويظهر انهم لم يدركوا اثناء ذلك ان هذه السلة هى من صغر

الحجم بحيث لا يمكن ابدا ان تستوعب رجلا راشدا. و بعد مشاهدة هذا الصندوق او ذاك كنت اقفل الصندوق من جديد، الا اني سرعان ما ادركت ان هذا العمل يثير فزعهم. اذ يظهر انهم كانوا يخاطبون انفسهم بقولهم: «ما دامت هى تقفل فمعناه انه موجود هنا»، وهكذا هجم على السفط فى الحال جنود اخرون واضطررت ان افتحه من جديد وكانت الحراب تنثر وتنخس. ولم يكونوا يهتمون بما كان ملقى فى السفط، ولم ينظروا الى الحوائج، فقد كانوا يريدون ان يتأكدوا من ان «الجاسوس الالمانى» الذى جاؤوا للبحث عنه لم يكن مختفيا هناك.

وفى غرفة فلاديمير ايليتش حيث كان فيها معاون رئيس دائرة مكافحة الجاسوسية مع اثنين او ثلاثة من الضباط، كان التحرى يجرى بصورة اهدأ. لقد قلبوا كل شىء واخذوا قسما من الاوراق، وقاموا بمحاولات متكررة ليستطلعوا منا شيئا مهما يكن، بينما كان اثنان من الجنود جالسين عند المنضدة يقلبان بعض رسائل فلاديمير ايليتش. وكانت هناك رسائل غير قليلة من الجنود فى الجبهة، واكثرها كانت طافحة بالسرور والامتنان من فلاديمير ايليتش الذى دلهم على الطريق المؤدى الى انهاء الحرب اللعينة. وكنت مطلعة على هذه الرسائل، فاخذت الآن اتفرس فى الجنديين الذين كانا يقرآنها، فلاحظت على وجهيهما امائر التعجب. فيا للغرابة؟ ان هذا الجاسوس الالمانى، وخائن الوطن الذى جاءا لاعتقاله على انه عدوهما الالد، يكتب له الجنود رفاقهما فى السلاح من خنادق الجبهة مثل هذه الرسائل!

واستولى على احد الضباط ما يشبه الذهول. واخذ طوال الوقت يلقى علينا الاسئلة: اين كان يعيش فلاديمير ايليتش

سابقا، وماذا كان يعمل، وما هى الكتب التى كتبها. واخيرا سأل «ألا يمكن تصفح كتبه هذه؟» فاجبته «يمكن طبعا، أفلا تريد مطالعتها؟» وسأل الضابط الساذج: «وهل يمكن اخذها؟» الا ان رفاقه اخذوا يومئون اليه ويهمسون شيئا، والظاهر انهم انبوه، فسكت الضابط مرتبكا.

وبالطبع لم يوفق الضباط فى معرفة المكان الذى يوجد فيه فلاديمير ايليتش. وكان احدهم يستجوب ناديجدا قسطنطينوفنا عن ذلك بالحاح خاص. فقاطعته انا بقولي «ان الزوجة حتى بموجب القوانين القيصرية القديمة غير ملزمة بتسليم زوجها». فصمت. ومع ذلك فقد تسنى له ان يعرف ان فلاديمير ايليتش كان قبل ذلك بوقت غير طويل فى فنلندا عند بونتش برويفيتش. وقد كان لهذا الامر عواقبه.

ولما لم يعثر الضباط والجنود على شىء، انصرفوا آخذين معهم ناديجدا قسطنطينوفنا، وايليزاروف، الذى توسم فيه بعضهم شبها بفلاديمير ايليتش، وكذلك خادمتنا. واقتيدت هذه الاخيرة لكونها عجزت عن ذكر اسم «السيد» الذى تخدمه، فارتابت مكافحة التجسس فى امرها، وخيل اليها ان في الامر سرا. غير انهم لم يلبثوا ان اطلق سراحهم فى تلك الليلة ذاتها، بعد ان حصل رجال مكافحة التجسس المتهالكين فى الخدمة على توبيخ من الرئاسة لجلبهم شخصا غير الذى يبحثون عنه.

ومضت بضعة ايام. وذات يوم وكانت الساعة الخامسة مساء امتلأ شارعنا بالجنود، ومن جديد اخذوا يتحرون الشقة. ولما كانت زيارتهم هذه المرة نهارا، فقد جذب ذلك انظار جمع كبير من محبى الاستطلاع الذين احاطوا بالبيت من جميع

الجوانب. وكان يرأس الرتل القادم لاجراء التحرى ضابط شاب كان قد اشترك فى عملية الكبس السابقة، الا انه كان فى تلك المرة اكثر ادبا. اما الان اذ يرى نفسه على رأس الجمع، ويشعر، فى الظاهر، باقصى درجات الكدر لعدم اعطاء هذه التحريات النتائج المطلوبة، فقد اخذ يهاجمنا بمنتهى الشدة، طالبا ان ندله اين هو فلاديمير ايليتش. وكان قلم مكافحة التجسس قد اخبر بانه قدم الى هنا، فاجبنا الضابط: «انه ليس هنا، فتشوا وستتأكدون من ذلك بانفسكم». وشرع فى التحرى، فهرع الى المطبخ. وكانت خادمتنا قروية غير ذكية ابدا. وقد تمتمت، وهى متكدرة، فى الجواب على سؤال وجه اليها: هل جاء احد الى البيت، ثم سرعان ما هرعت بعد ذلك الى الباب المؤدى الى السلالم. وقد اتضح فيما بعد انها تذكرت فى ذلك الحين بالذات شيئا ما ينبغى عليها ان تشتريه، وهرولت بقصد الذهاب الى الحانوت. وقد اعادوها سريعا جدا، ولكن الضابط لم يشأ قط ان يصدق بانها كانت تتجه الى الحانوت. واعتقد انها ارسلت الى شقة اخرى فى نفس العمارة لتحذر فلاديمير ايليتش الذى وفق، كما يظهر، فى الاختفاء قبل ذلك الحين. وصاح الضابط فى وجه الخادمة الا انه تلقى منها ردا حازما جدا: «ماذا تريد، وعمّ تسأل. انا لا اعرف اى شئ»، فاعلن الضابط انه سيكون مضطرا لتحرى البناية كلها. فسأله مارك ايليزاروف «وهل لديك اذن بذلك؟» فتامل الضويبط برهة ثم اعترف بصحة التعاليم الصادرة اليه والتى تقضى، كما يظهر، بعدم جواز تحرى البناية كلها بدون اذن. فهرول الى اسفل البناية

ليتكلم بالهاتف مع قلم مكافحة التجسس. واصدر فى الوقت ذاته تعاليمه بتطويق البناية كلها وعدم السماح لاحد ان يذهب، وبتحرى فناء العمارة. وكانت هناك فى الفناء جذوع اشجار ملقاة واخشاب وقراضة، وكان تفتيش كل هذه الاشياء امرا غير يسير. وكان الجنود يهرولون هنا وهناك، ويزحزحون الاخشاب باخمص بنادقهم، وينزلون الى اقبية البناية، ويحملقون فى جميع الخبايا، غير ان تفتيشهم هذا لم يعد عليهم باية نتيجة. اما الضويبط فقد جن جنونه. اذ كان فى فنلندا فى بيت بونتش برويفيتش الصيفى، وهناك حصل من بعضهم على انباء تؤكد بان فلاديمير ايليتش يجب ان يكون حتما فى بطروغراد وفى شقته التى يسكنها.

وجاء الاذن من قلم مكافحة الجاسوسية، وكان لا يقضى الا بكبس شقة واحدة فقط تقع فى الطابق الذى يلينا من اسفل، كان يعيش فيها انذاك الرفيق الكسى (بوشاس). ولم يفتشوا الشقة الا انهم القوا نظرة على الغرف وفحصوا هويات الحاضرين، واقتنعوا بان فلاديمير ايليتش غير موجود هناك.

وهكذا مر بعض الوقت، هذا وقد ابقى فى شقتنا جنديان. فدعوناهما الى تناول الشاى وبعض الطعام وتحادثنا معهم. واكلا الطعام برغبة، وشكيا من صغر ارض مزرعتهما ومن طول الحرب، وكانا يقابلان حديثنا عن فلاديمير ايليتش وعما يناضل من اجله، بالشك. فقد علق فى اذهانهما بشدة ان هذا هو جاسوس المانى، ومما احدث اثرا قويا فى نفس هذين الرجلين القليلى الوعى

سفر لينين فى زمن الحرب عبر المانيا. وكانا يقولان: ولماذا لا يسمحون للغير بالسفر ويسمحون له؟

وكانت ناديجدا قسطنطينوفنا اثناء كبس البيت عائدة من ناحية فيبورغ، حيث كانت تعمل، وقد وصلت الى جوار البيت مباشرة، وشاهدت الاضطراب السائد هناك، فعادت ادراجها.

وقام قلم مكافحة التجسس بزيارتنا للمرة الثالثة، وكنا عندئذ نسكن شقة اخرى. فقد وفد على مارك تيموفييفيتش احد اقاربه الذى لم يكن يعرفه احد من سكان البناية. وتوسم بعضهم فيه شبها بفلاديمير ايليتش واخبر بذلك ذوى الشأن، وقاموا بزيارتنا ليلا وقلبوا الشقة رأسا على عقب، وعادوا هذه المرة ايضا بخفى حنين.

ماريا اوليانوفا

اول محاولة لاغتيال لينين

فى الاول (١٤) من كانون الثانى سنة ١٩١٨ عصرا، خطب فلاديمير ايليتش فى ساحة ميخايلوفسكى للخيالة امام اول رتل من الجيش الاشتراكى كان يعتزم الذهاب الى الجبهة.

وكان يرافقه فى الاجتماع الرفيق بلاتين السويسرى وكاتبة هذه السطور. وبعد الاجتماع خرجنا من الساحة ثم جلسنا فى سيارة غير مكشوفة وذهبنا نحو سمولني. ولكن لم نكد نغادر المكان عدة عشرات الامتار حتى انطلقت عيارات نارية تناثرت كالحصى واصابت جسم السيارة من الخلف. فقلت «يطلقون النار». واكد ذلك بلاتين ايضا الذى كان اول ما فعل ان ضم اليه بسرعة رأس فلاديمير ايليتش (فقد كانا فى المقعد الخلفى) وانتحى به جانبا. لكن فلاديمير ايليتش اخذ يقنعنا باننا على خطأ، وانه لا يعتقد بان تلك كانت عيارات نارية وبعد الرمى حث السائق سرعة السير ثم استدار فى منعطف وتوقف ثم فتح

ابواب السيارة متسائلا «الجميع احياء؟» فسأله فلاديمير ايليتش «وهل اطلقوا الرصاص فى الواقع؟» فاجاب السائق «وماذا اذن؟ لقد ظننت انه لم يبق احد منكم حيا. ويا لحسن الحظ، فلو اصابت الرصاصات الاطار لما استطعنا الذهاب. نعم ان الذهاب بهذا الشكل وفى الضباب خطأ لا يجوز، لقد اقدمنا على مجازفة».

وفى الواقع فقد كان كل شيء ملفوفا فى الضباب الابيض، ضباب بطروغراد الكثيف.

ولما بلغنا سمولني فحصنا السيارة، فظهر ان جسمها قد اصابته العيارات فى عدة اماكن، بعضها اخترقته ونفذت فى الزجاجة الامامية. وهناك لاحظنا يد الرفيق بلاتين مخضبة بالدم، فقد اصابتها رصاصة، كما يظهر، عندما نحى رأس فلاديمير ايليتش فسلخت جلد اصبعه.

وقلنا ونحن نرتقى السلالم الى غرفة فلاديمير ايليتش: «اجل يا لحسن الحظ».

ماريا اوليانوفا

لينين فى ايام الراحة

فى بداية صيف عام ١٩١٨، عندما كانت تبحث مسألة المكان الذى يقضى فيه فلاديمير ايليتش اوقات استجمامه، عرض بونتش برويفيتش عليه ان يسافر اليه للراحة فى بيته الريفى فى تاراسوفكا. وكانت هناك غرفتان فارغتان فى الطابق الثانى من البيت الذى يقع بجوار الدار التى كانت تعيش فيها أسرة فلاديمير ديميتريفيتش، الذى كان ينبغى علينا ان نتناول الطعام عنده.

فى معهد لينين يحتفظ بمذكرة كتبت، على ما يظهر، فى احدى الجلسات، وكان لينين يلجأ عادة الى هذه الوسيلة لمنع اية ضوضاء او محادثات خاصة فى الجلسات، والمذكرة بالمضمون التالى:

١) كيف هى الحالة فى البيت الريفى؟
٢) هل يمكن الذهاب الى هناك فى الاحد القادم؟

٣) كلانا او ثلاثتنا؟

٤) هل يمكن ان تجعل السيارة هناك في انتظارنا؟

وقد رد فلاديمير ديميترييفيتش على هذه الاسئلة بالايجاب، مشيرا الى انه سبق واوعز بارسال الاغطية وما شاكلها الى هناك

وكتب ايضا: «لقد اشتريت البطاطس. الحليب واللبن المختثر فاخر، و توجد كذلك مواد غذائية اخرى».

وهكذا اعد البيت الريفي. غير اننا بالرغم من كرم وفادة بونتش برويفيتش، لم نذهب هناك اكثر من مرتين او ثلاث. ذلك ان فلاديمير ايليتش كان يهوى الاستراحة في خلوة تامة.

فقد كتب الى امه من ستيرسودين (بفنلندا) حيث كان يعيش صيف سنة ١٩٠٧ يقول: «الاستجمام هنا رائع، فسياحة وتجوال وخلوة وعطل. والخلوة والعطل هما عندي افضل من كل شيء».

اما تاراسوفكا فكانت مزدحمة تماما. صحيح اننا كنا عادة نخرج في الصباح وحدنا للنزهة في الغابة، وقد نتوغل فيها، لنتجنب اللقاء بالمعارف ونتجنب ما لا بد منه من الاحاديث التي كان فلاديمير ايليتش قد كل منها وهو في المدينة. غير ان تحاشي هذه المقابلات كان مستحيلا اثناء الغداء او في اوقات تناول الشاي وغير ذلك. وهكذا لم يتسن لفلاديمير ايليتش ان يستريح كما ينبغي. وكان شر ما في مصيف تاراسوفكا هو البعوض الذي لم يكن فلاديمير ايليتش يستطيع تحمله قط. ولم تكن هناك شباك على النوافذ، فكان البعوض ينفذ الى الغرف دون عائق ويملؤها بضجيجه. ومرة حاول فلاديمير ايليتش عبثا

ان ينام الليل، فهرع فى الصباح الباكر من المصيف الى المدينة، ولم يسافر بعدها الى تاراسوفكا.

ولم يكن هناك مصيف اخر، فاخذنا منذ ذلك الحين نغادر المدينة ولو لبضع ساعات لكى نستنشق الهواء النقى فى ايام الراحة، وكنا نأخذ معنا السندويتش عوضا عن طعام الغداء. وكنا نذهب فى مختلف النواحى، وسرعان ما اولع فلاديمير ايليتش بغابة تقع على ضفاف نهر موسكو بالقرب من بارفيخا. واخترنا مكانا منعزلا على هضبة، فكان ينفرج امامنا من هناك منظر واسع يبدو فيه النهر والحقول المجاورة، وكنا نقضى الوقت هناك حتى المساء. وكان الرفيق غيل سائق سيارة فلاديمير ايليتش يقف بسيارته فى مكان قريب، ولم يكن هناك من يحرس فلاديمير ايليتش. وكنا قد جبنا هذا المكان ودرسناه، وكنا نعرف اية قنطرة فى مسالك الغابة تتحمل ثقل السيارة فى الطريق المؤدى الى «مأوانا».

لقد عرفنا، بعد تجربة مؤسفة، ان هذا الجسر الصغير اصيب بالتصدع من جراء مرور سيارة ثقيلة عليه. فطلب فلاديمير ايليتش التوقف فى الحال، والعمل قدر الامكان لاعادته الى الصورة التى كان عليها.

وعندما كنا نتجول فى القرى، كان يركض احيانا نحو سيارتنا اسراب من اطفال الفلاحين الصهب الرؤوس فيحيطونها من كل جانب سائلين «الركوب» فيها. فيطلب فلاديمير ايليتش، الذى كان يمحض الاطفال كل حبه، الى السائق غيل ان يقف، فكانت السيارة تغص بحشد من الاطفال الصاخبين المرحين.

وبعد ان تدرج السيارة مسافة كيلومتر او كيلومتر ونصف، كان الاطفال ينزلون منها وهم يضجون فرحين، ثم يعودون راكضين نحو قريتهم.

ومهما تكن هذه الاستراحة بدائية، اذ كان من الصعب انذاك ان نفكر في شكل اخر للاستراحة، فانها قد تركت عندنا جميعا ذكريات طيبة جدا، وكنا نعود بعدها الى البيت نشطين وراضين.



ناديجدا كروبسكايا

من ذكرياتي
عن
فلاديمير ايليتش



طفولة ايليتش وحداثته

ساتناول من الحديث عن طفولة فلاديمير ايليتش، فى الدرجة الاولى، ما سمعته منه شخصيا خلال عهد حياتنا المشتركة. والحقيقة ان انغماسه فى النشاط الثورى لم يسمح له بالتحدث عن ذكرياته فى المناسبات الا قليلا. ومع ذلك فقد كنا (انا وهو) من جيل واحد (فانا كنت اكبر منه بعام)، وترعرعنا تقريبا فى ذات المحيط، محيط ما يدعى «بالمثقفين غير الاعيان». و لذلك فاني سمعت من الذكريات شيئا كثيرا جدا، وان كان بشكل نتف مجتزأة.

ولد فلاديمير ايليتش فى ٢٢ نيسان سنة ١٨٧٠ فى مدينة سيمبيرسك على الفولغا وعاش فيها حتى سن السابعة عشرة. وكانت المدينة مركز محافظة. ولكن اذا القيت الآن نظرة على مخطط شوارع سيمبيرسك فى ذلك العهد وعلى بيوتها وضواحيها، لتبينت اية مدينة خامدة كانت انذاك. اذ لم تكن فيها مصانع و لا معامل، ولم تصل اليها حتى السكة الحديدية، ناهيك، طبعا، بالهاتف والراديو.

وكان لقب ايليتش الحقيقى هو اوليانوف. وفيما بعد، اى بعد مدة طويلة، عندما اصبح ثوريا واخذ يكتب متسترا بالاسم المستعار لينين، اخذوا يدعونه بهذا الاسم. اما مدينة سيمبيرسك فقد اصبحت الآن تدعى اوليانوفسك تكريما لذكرى ايليتش. واوليانوفسك الآن هى مدينة المدارس، وفيها يتعلم عدد غفير من الشبيبة، وفيها يوجد فرع لمتحف لينين.

وكان والد فلاديمير ايليتش، ايليا نيقولاييفيتش من غير ذوى الرتب والالقاب، من الطبقة المتوسطة فى استراخان. وقد عاش فى ظروف شاقة، وكان ينتمى الى فئة دافعى الاتاوات التى كان طريق التحصيل موصدا فى وجهها. وقد تيتم وهو فى السابعة، ولم يستطع نيل التحصيل الا بفضل مساعدة اخيه الاكبر الذى بذل اخر فلس عنده من اجل تعليمه. ثم بفضل استعداد ايليا نيقولاييفيتش غير العادى وعمله الدائب استطاع ان «يصعد سلم الرقى»، وينهى المدرسة الثانوية ثم جامعة قازان سنة ١٨٥٤. واصبح معلما، وعلّم فى بادىء الامر الفيزياء والرياضيات فى الصفوف العليا من كلية بينزا لابناء الاعيان، وعلم بعدها فى المدارس الثانوية للذكور وللاناث فى نيجني نوفغورود، ثم اصبح مفتشا فى سيمبيرسك، وبعد ذلك مديرا للمدارس العامة. وعندما انهى ايليا نيقولاييفيتش جامعة قازان كانت حرب القرم فى معمعانها. وقد كشفت هذه الحرب الغطاء، بقوة خاصة، عن كل تفسخ نظام القنانة، واظهرت بوضوح كل وحشية نظام نيقولاى. وفى هذا العهد وجهت اشد الانتقادات

الى عهد القنانة، و الى نظام القنانة، الا ان الحركة الثورية لم تكن قد تبلورت بعد.

ولكى نفهم فهما تاما اى رجل كان ايليا نيقولاييفيتش، يلزمنا ان نقرأ مجلة «المعاصر» التى كان يحررها نكراسوف و باناييف، كما كان يكتب فيها بلينسكى و تشرنيشفسكى و دوبرولوبوف. و قد كانت اخت لينين الكبرى، حنة ايلينيشنا، و فلاديمير ايليتش نفسه يذكران كيف كان ايليا نقولاييفيتش شديد الشغف باشعار نكراسوف. وكان ايليا نيقولاييفيتش، بوصفه معلما، يقرأ بامعان خاص كتابات دوبرولوبوف. وكانت جبهة التعليم فى ذلك الحين هى جبهة النضال ضد القنانة. فمؤلف «قاموس اللغة الحية للروس الاصليين»، دال، طالب منذ سنة ١٨٥٦ بعدم تعليم الفلاحين القراءة و الكتابة. و كان يسود فى المدرسة اقسى نظام من القصاص البدنى، وكانت العصا تستعمل حتى فى المدارس الثانوية التى لم يكن يقبل فيها الا ابناء الاعيان والموظفين.

لقد ناضل دوبرولوبوف، كما هو معروف، نضالا حاميا ضد مدرسة القنانة. ومات سنة ١٨٦١ وهو فى الخامسة و العشرين. و فى سنة ١٨٥٧ نشرت مقالته «حول اهمية المكانة فى التربية» و قد خصصها لمسألة مكانة المعلم. و قد قارن دوبرولوبوف فى هذه المقالة بين المكانة فى مدارس نظام العبودية و القنانة، و بين المكانة التى يحرزها المعلم و المربى عندما يجد الاحترام عند التلاميذ. و كتب دوبرولوبوف فى هذه المقالة، مستشهدا ببيروغوف، عن دور العقائد قائلا: «... ان العقائد لا تعتنق

بسهولة: «وانما يمكن ان يعتنقها اولئك الذين عودوا منذ نعومة اظفارهم ان يتفحصوا انفسهم بفطانة، اولئك الذين عودوا منذ السنوات الاولى فى حياتهم ان يحبوا الحقيقة باخلاص ويذودوا عنها بقوة، وان يكونوا صريحين لا عن اضطرار، وذلك سواء مع الكبار او مع اترابهم»». وجاء ايضا: «ان الاطفال كثيرا ما يضحّى بهم من اجل مقاصد المعلم. فالمربى، جريا على عادته المفضلة، يعتبر الربيب حاجة شخصية يستطيع هو ان يصنع بها ما يروق له» وهو خلال ذلك «يعمى عن رؤية واقع هام للغاية، هو حقيقة حياة الاطفال وطبيعتهم، وبوجه عام حقيقة حياة الذين يربيهم وطبيعتهم...» وفى هذه المقالة نجد دوبرولوبوف ثائرا بقوة وجلادة على الخضوع الاعمى العبودى المطلق. فنراه يقول: «أمن اللازم ان نتحدث عن التأثير المهلك الذى تتركه العادة على الانقياد المطلق، فى نمو الارادة؟».

وكتب دوبرولوبوف ايضا فى هذه المقالة، قائلا انه مع انقياد الطفل المطلق تنشأ بالضرورة عصمة المربى المطلقة: «وحتى اذا فرضنا ان المربى بامكانه ان يتسامى دائما على شخصية التلميذ (وهو امر محتمل، وان لم يكن، طبعا، فى جميع الاحوال ومطلقا)، فانه لا يمكنه باى حال من الاحوال ان يتسامى على الجيل كله. ان الطفل يهيأ للعيش فى محيط جديد، وسوف لا تكون ظروف حياته هى نفسها التى كانت قبل عشرين او ثلاثين سنة، عندما كان المربى نفسه يتعلم. وقد قضت العادة ان لا يكون المربى عاجزا عن استشفاف حاجات الزمن الجديد فحسب، بل وفوق ذلك فهو لا يستطيع فهمها، ويخالها اباطيل».

وقد اشار دوبرولوبوف فى هذه المقالة الى الافكار الصحيحة التى كانت عند الاستاذ الجراح و المربى [illegible]غوف، ولكن عندما انتقل هذا الى جانب الرجعية واخذ ير[illegible]اض «تربية الروح القانونية»، نظام القصاص، بما فى ذلك اللجوء الى المقرعة و الطرد من المدرسة، اذ ذاك دمغه دوبرولوبوف بكل جرأة بوصمة العار.

نظم نكراسوف الذى كان ابو لينين، ايليا نيقولاييفيتش يمحضه خالص الحب، قصيدته «ذكرى دوبرولوبوف» التى يقول فيها :

«... لقد احببت وطنك، حبك للحبيبة،
وكرست اعمالك،
و امالك و افكارك لوطنك.
و جذبت اليه القلوب الطاهرة.
و دعوت لحياة جديدة، وفردوس نير،
و نضدت اللؤلؤ لاكاليل وطنك الحبيب.
لكن الاجل استعجلك،
و سقطت ريشتك،
و انطفأ ينبوع الضياء
و توقف ذلك القلب عن الخفقان».

لقد استحوذ حب دوبرولوبوف على قلب ايليا نيقولاييفيتش الطاهر، وهذا الحب كان هاديا لايليا نيقولاييفيتش، سواء فى عمله كمدير للمدارس العامة فى محافظة سيمبيرسك، او فى تنشئة ابنه لينين وسائر ولده الذين غدوا بجميعهم ثوريين.

كان الفلاحون فى محافظة سيمبيرسك قبل العهد الذى باشر فيه ايليا نيقولا[illegible]ش عمله فى هذه المحافظة كلهم تقريبا من الاميين. و بفض[illegible]هود التى بذلها ايليا نيقولاييفيتش ارتفع عدد المدارس فى المحافظة الى ٤٥٠ مدرسة، كما بذل نشاطا كبيرا من اجل تحضير المعلمين. فافتتاح المدارس لم يكن عملا يتم بمجرد اصدار الاوامر. كان ينبغى الذهاب الى القرى فى العربات، والمبيت فى الملاجئ الريفية، والجدال مع خفراء القرى، ودعوة الفلاحين الى الاجتماع. وكان ايليتش يصغى بحرص الى احاديث ابيه عن الريف. وسمع كذلك وهو صغير، احاديث كثيرة عن القرية من مربيته التى كان يحبها كثيرا، وكذلك من امه التى ترعرعت هى ايضا فى القرية.

وهذا ما جعل فلاديمير ايليتش منذ طفولته ينظر باهتمام فى حياة الريف، وهذا ما وضع طابعه على كل نشاطه كثورى، واعطاه امكانية الفهم، عند دراسته الماركسية، ان بوسع الاشتراكية ان تنتصر فى بلادنا، فى روسيا المتاخرة التى ينقسم فلاحوها الى فئات عديدة متباينة كل التباين، وهذا ايضا ما اعطاه الامكانية ليشير الى طريق النضال الصحيح المؤدية الى انتصار وطننا العظيم.

لقد ترعرع ايليا نيقولاييفيتش فى استراخان متصلا بالحياة غير مقيم بينه وبينها سدا. وكان ايليا نيقولاييفيتش اثناء نشاطه كمدير للمدارس العامة يعير اهتماما خاصا لنشر المعارف بين من كانوا يسمونهم عهدئذ بـ«الاجناس الاخرى» العديدة، ممن كانوا يقطنون انذاك فى محافظة سيمبيرسك.

فى سنة ١٩٣٧ تلقيت انا رسالة من ايفان ياكوفليفيتش زايتسيف المعلم التشوفاشى فى المدرسة المتوسطة فى بوليفو- سونديرسك، بمنطقة باتيريفسكى فى جمهورية تشوفاشيا ذات الاستقلال الذاتى. ولهذا المعلم من العمر ٧٧ سنة قضى ٥٥ عاما منها معلما فى المدارس التشوفاشية، وهو يحمل الآن لقب «بطل العمل» و«المهذب الممتاز»، كما انه من النشطاء فى الحقل الاجتماعى. فقد قام بنشاط للقضاء على الامية وشبه الامية، وكان رئيسا لاتحاد شغيلة التعليم، وعضوا فى مجلس القرية، واللجنة النقابية المحلية وغير ذلك. وعمل فى الاحصاءات الزراعية، وكان مرشدا فى جميع الاحصاءات العامة للنفوس، واشتغل فى محطة الارصاد الجوية الخ.

وايفان ياكوفليفيتش ابن اجير زراعى. وكان منذ الثامنة من عمره حتى الثالثة عشرة يرعى الاوز. وكان شديد الرغبة فى التعلم، فهرب سرا من بيت ابيه لكى يدخل المدرسة. وقضى يومين فى الطريق الى سيمبيرسك، ورغم انه بلغها متأخرا عن موعد بدء الدراسة، الا انه التحق، مع ذلك، بالمدرسة، بفضل مساعدة ايليا نيقولاييفيتش اوليانوف الذى رقّ للصبى. يتحدث ايفان ياكوفليفيتش زايتسيف كيف حدث ذات مرة، فى السنة الاولى من دخوله المدرسة، ان دخل الصف ايليا نيقولاييفيتش اوليانوف، وكان الدرس درس الحساب. فدعاه ايليا نيقولاييفيتش الى السبورة حيث حل زايتسيف المسألة المطروحة حلا صحيحا وشرحها، فقال له ايليا نيقولاييفيتش «احسنت، عد الى مكانك».

ويقول ايفان ياكوفليفيتش فى رسالته انه كلف بعد فرصة الغداء بواجب كتابى فى الانشاء يعده بصورة مستقلة. وكان الموضوع الذى اختاره المعلم هو «انطباعاتي فى هذا اليوم». واوضح المعلم اثناء ذلك اننا نستطيع ان نكتب عن اى حادث من حوادث حياتنا المدرسية، التى نرى نحن ان لها اهمية خاصة. وبكلمة، ان نكتب عما يروقنا.

واخذ جميع التلاميذ يفكرون عدة دقائق باحثين عن الموضوع المناسب. وتذكر بعضهم حوادث من الحياة المدرسية مضحكة تماما، وسعى البعض الاخر ليخترعوا شيئا من عندياتهم. اما انا فلم اقض وقتا طويلا فى تخير الموضوع، ذلك اني لم يفارق بعد مخيلتى، اثر الدرس الاخير الذى حضره المدير ايليا نيقولايبيفيتش فى الحساب، وشرحه كيفية حل المسألة. فصممت على الكتابة فى هذا الموضوع.

وكتبت ما يلى: «فى الساعة ٩ من صباح اليوم دخل الصف فى درس الحساب المدير السيد ايليا نيقولايبيفيتش. فدعاني الى سبورة الصف واعطاني معادلة حسابية تتكرر فيها عدة مرات كلمة «عشر كوبيكات». فكتبت المعادلة، ثم تلوتها واخذت اضع خطة حلها. لقد ساعدنى السيد المدير ايليا نيقولايبيفيتش على حل مسألة هامة، ولاحظت فى الحال ان ايليا نيقولايبيفيتش يلثغ قليلا، وكان يلفظ كلمة «عشر كوبيكات» بقوله «عشغ كوبيكات». فخطر فى بالي ما جعلني افكر بالامر التالى: «انا تلميذ ومع ذلك استطيع ان اتلفظ حرف «الراء»، اما هو فمدير، ورجل

كبير وعالم، ولكنه لا يستطيع ان يلفظ حرف «الراء» ويقول «غغ»».

ثم كتبت بعد ذلك بعض الامور الطفيفة وبذلك انهيت انشائي. وجمع مراقب الصف الدفاتر وسلمها الى المعلم كالاشنيكوف.

وبعد يومين وزعت الدفاتر علينا. واخذ الجميع ينظرون في الملاحظات. فمنهم من سر ومنهم من لم تنم تعابير وجهه لا عن السرور ولا عن الحزن.

واستبقى المعلم كالاشنيكوف دفتري عنده عن عمد. ثم لم يلبث ان رمى الدفتر في وجهي وقال بغضب «يا خنزير!»

فاخذت الدفتر وفتحته فرأيت ان انشائي قد نقش عليه صليب احمر، وفي اسفله وضعت علامة الصفر «٠»، وتحتها توقيع المعلم. وكدت لا اتمالك نفسي من البكاء، وجالت الدموع في عيني. لقد كنت بطبيعتي انسانا بسيطا ساذجا سريع التاثر صادقا. وهكذا بقيت طوال حياتي كلها.

وفي اثناء الدرس الكتابي دخل الصف ايليا نيقولاييفيتش. فحييناه وتابعنا درسنا. واخذ ايليا نيقولاييفيتش يسير بين صفوف الرحلات، وكان يتوقف في بعض الاماكن يراقب الدرس حتى وصل اليّ. فلما رأى انشائي السابق معلما بالصليب الاحمر وعلامة الصفر، وضع احدى يديه على كتفي، واخذ بالاخرى الدفتر وبدأ يقرأ. كان يقرأ ويبتسم، ثم ما عتم ان استدعى المعلم وسأله قائلا: «لماذا يا فاسيلي اندرييفيتش منحتم هذا الصبي وسام الصليب الاحمر وهذه الطماطم الضخمة؟ الانشاء مكتوب حسب

قواعد النحو الصحيحة، ثم انه لا يوجد هنا اى شيء ملفق او مصطنع. والامر الاهم انه مكتوب بصدق، ومتلائم تماما والموضوع الذى طلبتموه الى التلاميذ».

فتلعثم المعلم، ثم قال ان فى انشائي اماكن لا تليق تماما بمقام الرئاسة وانه... فلم يعطه المدير ايليا نيقولاييفيتش اوليانوف مجالا للكلام وقاطعه قائلا: «هذا الانشاء من احسن المقالات الانشائية. راجعوا الموضوع الذى اعطيتموه: «انطباعاتي فى هذا اليوم». وقد كتب التلميذ بالضبط ما شاهده واثر فيه اكثر اثناء الدرس المنصرم. والانشاء ممتاز». ثم تناول ريشتى، وكتب فى اسفل الانشاء كلمة «ممتاز»، ووقعه «اوليانوف».

انى ان انسى لن انسى ما حييت هذا الحادث، كما ان من المستحيل نسيانه. لقد برهن ايليا نيقولاييفيتش انه انسان طيب وبسيط ومنصف».

ولقد اقتفى فلاديمير ايليتش خطى ابيه، ففى الصفوف العليا من المدرسة الثانوية كان فلاديمير ايليتش ينصرف طوال العام كله الى رفيق تشوفاشى متاخر فى اللغة الروسية ويساعده على الاستعداد لدخول الجامعة.

وقد اظهر فلاديمير ايليتش خلال كل نشاطه الثورى ذات الموقف الذى كان يقفه ايليا نيقولاييفيتش من الامم الاخرى. ويعرف الجميع اى مجهود هائل بذله لينين فى ارساء اسس الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتى.

كتب دوبرولوبوف عن الارادة القوية. وكان ابو ايليتش يقتفى فى التربية اساليب دوبرولوبوف. وقد دخل فلاديمير ايليتش

المدرسة الاعدادية وعمره تسع سنوات ونصف، وكان على الدوام تلميذا ممتازا، وانهى المدرسة حائزا المدالية الذهبية. ولم يتسن ذلك بسهولة كما يظن الكثيرون. لقد كان فلاديمير ايليتش نشطا جدا، وكان يحب السير والتنزه مسافات بعيدة، وكان شغوفا بالفولغا وسفياغا، ومولعا بالسباحة والتعويم كما كان يهوى التزلج بالزلاجات. وقد حدثني فلاديمير ايليتش ذات مرة قائلا: «لقد اغرمت جدا بالتزلج، لكن وجدت ان ذلك يعيق دراستي فتركته». وكان مولها بالقراءة ولها عجيبا، وقد اسرته الكتب واجتذبته اليها، تلك الكتب التى تتحدث عن الحياة وعن الناس، وتوسع افاق الفكر، اما الدراسة فى المدرسة الثانوية فكانت مملة وجامدة، فكان يتوجب الانصراف اليها على مضض من اجل تعلم كل نفاية من سقط المتاع، ومع ذلك فقد وضع لنفسه القاعدة التالية: تعلم الدروس قبل كل شيء، وبعد ذلك قراءة ما يتيسر. وكان ضابطا لنفسه، مقتصدا فى الوقت. وكان يركز ذهنه تماما عند القراءة، فكان لذلك سريع القراءة جدا. وكان ينقل من الكتب فقرات فى الدفاتر ويسعى ليصرف على كتابتها اقل ما يمكن من الوقت. ويعرف الذين شاهدوا خط فلاديمير ايليتش انه كانت له طريقته الخاصة فى اختزال الكلمات. وبفضل ذلك ينقل ما هو بحاجة اليه بسرعة كبيرة.

لقد غرس هو فى نفسه الارادة القوية. فكان اذا قال، فعل. وكلمته كان يعول عليها. فقد جرب التدخين وهو لما يزل صبيا. ورأته امه ماريا الكسندروفنا مرة يدخن فتكدرت واخذت

تقول له: «يا فولوديا (١)، اترك التدخين» فوعدها فلاديمير ايليتش بتركه، ومنذ ذلك الحين لم يلمس السيجارة بيده قط.

وكان ايليا نيقولاييفيتش يهتم فى ان يدرس فلاديمير ايليتش بصورة حسنة وبدأب. وكان الى جانب ذلك يسعى ليربى فيه، بروح مبادىء دوبرولوبوف، النظرة الواعية ازاء من كانوا يدرسونه فى المدرسة وكيفية تدريسهم له. فالمعلمة كاشكاداموفا تتذكر بعطف ايليا نيقولاييفيتش وقد كانت تعمل تحت ارشاده. وقد تحدثت كيف كان ايليا نيقولاييفيتش يحب مماحكة فولوديا، فكان يسب المدرسة الثانوية مازحا وكذلك التعليم الثانوى، ويسخر بشدة من المعلمين. وكان فولوديا على الدوام يرد ردا موفقا وخزات ابيه، فيأخذ بدوره فى التحدث عن نقائص المدارس الابتدائية وكان يحرج ابيه احيانا.

ويتضح من حديث كاشكاداموفا كيف كان ايليا نيقولاييفيتش يعلم فلاديمير ايليتش ان يتبصّر فى الحياة، ومع ذلك كان فلاديمير ايليتش يجيز لنفسه احيانا ان يضحك فى الصف من المعلمين، منهم مثلا معلم اللغة الفرنسية بور، فكان ايليا نيقولاييفيتش يردعه، ويقول له ان الموقف الخشن ازاء المعلمين غير جائزحتى وان كانت عندهم معايب خطيرة فى التعليم. فارتدع فلاديمير ايليتش عن سلوكه هذا.

وهناك خصلة اخرى غرستها فى نفس فلاديمير ايليتش، التربية وفق مبادىء دوبرولوبوف، هى القدرة على معالجة

---

(١) فولوديا اسم تصغير لفلاديمير — المترجم.

الامور من وجهة نظر مصالح العمل. وهذا ما صان فلاديمير ايليتش من حب الذات وما يترتب عليه من صغائر.

وكان ايليا نيقولاييفيتش، عدا محاسبته نفسه بشدة، كما يبدو ذلك من ذكريات زايتسيف، يعير وزنا كبيرا لروح الاخلاص عند الاطفال، وكان يجهد لغرس هذه الروح فى اطفاله. وقد كتب دوبرولوبوف عن اهمية تربية الاطفال بروح الاخلاص. وهذه الروح كانت من ابرز صفات فلاديمير ايليتش.

عندما كان فلاديمير ايليتش فى سن ١٤–١٥، قرأ كتب تورجينيف كثيرا وبشغف. وقد حدثني مرة انه اعجب انذاك كل الاعجاب بقصة تورجينيف «اندري كولوسوف»، التى تدور حول مسألة الاخلاص فى الحب. وانا ايضا اعجبتني فى تلك السنوات قصة «اندري كولوسوف». وهذه المسألة لا تحل، طبعا، بالسهولة التى صورت فيها هناك، اذ ليست القضية فى الاخلاص وحده، وانما تنبغى كذلك العناية بالانسان والاهتمام به، اما نحن الراشدون الذين كان علينا ان نراقب الوسط البرجوازى الذى يحيط بنا، والذى عم فيه انذاك الزواج لاغراض خاصة، وطغت فيه روح عدم الاخلاص، فقد اعجبنا بـ «اندري كولوسوف». وبعد ذلك تملكنا اعجاب عظيم برواية تشرنيشيفسكى «ما العمل؟» وقد قرأ فلاديمير ايليتش هذه الرواية لاول مرة عندما كان فى المدرسة الاعدادية. واتذكر اني، عندما كنا فى سيبيريا واخذنا نتحدث حول هذه المواضيع، دهشت لسعة اطلاع فلاديمير ايليتش على تفاصيل رواية تشرنيشيفسكى هذه. وبهذه الرواية ابتدا تعلقه بتشرنيشيفسكى.

كان ايليا نيقولاييفيتش رجلا اجتماعيا كبيرا، وكان مناضلا متفانيا ضد الجهالة الفاشية وضد بقايا العبودية، ومع ذلك فقد كان ابن زمنه، فما كان يؤثر تأثيرا كبيرا فى ولديه الكسندر وفلاديمير، من اقوال تشرنيشيفسكى، كان قليل التأثير فيه هو، كان تشرنيشيفسكى يقول ان طابع اصلاحات سنة ١٨٦١ يتفق وما كان يرغب فيه كبار الملاكين الذين كانوا يريدون عن طريق العمل المأجور ان يقتطعوا من الفلاحين احسن اراضيهم. وكان الكسندر الثانى فى نظره القيصر المحرر. ويتحدث فلاديمير ايليتش كيف اضطرب ايليا نيقولاييفيتش عندما بلغه نبأ اغتيال الكسندر الثانى، ولبس البزة الرسمية وذهب الى الكاتدرائية للتابين، وقد كان لفلاديمير ايليتش انذاك من العمر احدى عشرة سنة فقط. ولكن من غير الممكن الا يؤثر فى الاحداث ايضا حادث كقتل الكسندر الثانى الذى كان يتردد ذكره على الالسن فى كل مكان، ويبحث فيه الجميع. وقد اخذ فلاديمير ايليتش بعد هذا الحادث يصغى باهتمام الى جميع الاحاديث السياسية.

قرأ فلاديمير ايليتش جميع صحف الاطفال وكتبهم التى كانت ترسل الى ابيه، ومنها «قراءة الاطفال». وقد كتب فى مجلات الاطفال فى ذلك العهد شىء كثير عن امريكا (فمن المعروف انه كان يجرى منذ سنة ١٨٦١ حتى سنة ١٨٦٥ صراع بين الولايات الشمالية والجنوبية من اجل الغاء عبودية الزنوج فى الولايات الجنوبية. وكان الصراع يجرى لاهداف تمهيد التربة لاضطراد نمو الرأسمالية، الا انه جرى تحت علم النضال من اجل الحرية)، كما كتب شىء كثير عن الحرب مع تركيا وعن

حروب البلقان. وكان فلاديمير ايليتش ياخذ الكتب كذلك من اخيه الاكبر. يذكر كوزنيتسوف ترب فلاديمير ايليتش فى الصف ان فلاديمير ايليتش كان دائما يكتب الانشاء الادبى جيدا جدا. وعندما كان فلاديمير ايليتش يدرس فى المدرسة الثانوية، كان مدير المدرسة هو كرنسكى (والد كرنسكى الاشتراكى-الثورى ورئيس وزراء الحكومة الموقتة سنة ١٩١٧)، وكان هو نفسه يدرّس الادب. وكان على الدوام يؤشر على انشاء فلاديمير ايليتش بعلامة ٥ وهى اعلى العلامات. ومع ذلك فقد تكلم مع فلاديمير ايليتش ذات مرة بلهجة التذمر قائلا «عن اية طبقات مضطهدة تكتب هنا، وماذا تعنى بذلك؟» واهتم التلامذة ليعرفوا اية علامة سيضعها كرنسكى على انشاء اوليانوف. وتبين ان العلامة مع كل ذلك هى خمسة ايضا.

كانت اسرة اوليانوف كبيرة، فقد كانت تضم ستة من الولد، ترعرعوا ازواجا متعاقبين، اكبرهم حنة والكسندر، ثم فلاديمير واولغا، واخيرا اصغرهم ديميتري وماريا. وكان فلاديمير ايليتش اقرب صديق لاولغا. فكانا فى زمن الطفولة يلعبان معا، وفيما بعد قرآ ماركس معا. وفى سنة ١٨٩٠ انتقلت اولغا الى بطرسبورغ ودخلت الصفوف النسائية العليا. وفى سنة ١٨٩١ توفّيت هناك بمرض التيفوس.

ونشأ الكسندر ثوريا، وكان له تأثير كبير فى فلاديمير ايليتش. وكان الكبار مشغوفين بشعراء «الايسكرا» (الشرارة) كما كان الشعراء اشياع تشرنيشيفسكى يدعون انفسهم (ومن هؤلاء، الاخوان كوروتشكين ومينايف وجوليوف واخرون) ممن كانوا يسخرون

بشدة من بقايا عهد القنانة، العالقة بالحياة والعادات، ويسعون لاظهار «كل تفاهة وحطة وسوءات» ـ البورقراطية والتزلف والفخفخة الكلامية. وكانت حنة ايليينيشنا تعرف الكثير جدا من اشعار شعراء «الايسكرا» المنشورة وغير المنشورة. وكانت هي نفسها تنظم القصائد، وكانت تحفظها طيلة حياتها. وفي الاشهر الاخيرة من حياتها، عندما كان الشلل قد هدّ قواها، كنت بعد العمل اجلس معها لشرب الشاي، فكنت على عادتي اوجه الحديث نحو شعراء «الايسكرا»، وكانت هي على الدوام تتحدث عن ذلك برغبة، وكنت انا اعجب دائما بقوة ذاكرتها. فقد كانت تحفظ سلسلة بكاملها من القصائد التي كانت تشغف بها انذاك الفئة الراقية من المثقفين. وعندما كنا مع ايليتش في المنفى بسيبيريا كنت اندهش من كثرة القصائد التي كان يحفظها عن شعراء «الايسكرا».

وكان فلاديمير ايليتش كاخيه الاكبر الكسندر لا يطيق الصبر على الاحاديث الجوفاء والثرثرة الفارغة التي كان شعراء «الايسكرا» يسخرون منها اشد السخرية. فعندما كان يأتيهما في غرفتهما احد اقربائهما الكثيرين كان احب مصراع عنده قوله: «يا لسعدى في غيابك». وكان الكسندر ايليتش شديد الشغف بقراءة بيساريف الذي استهواه بمقالاته في العلوم الطبيعية التي كانت تقوّض اسس الاراء الدينية. وكانت كتابات بيساريف عهدئذ ممنوعة. وكذلك طالع فلاديمير ايليتش بولع كبير مؤلفات بيساريف حين كان عمره يتراوح بين ١٤–١٥ سنة. وينبغي القول انه حتى دوبرولوبوف نفسه لم يكن حتى سنة ١٨٥٦ قد

صرم صلته نهائيا بالدين. اما ايليا نيقولايفيتش فقد بقى متدينا حتى اخر حياته، بالرغم من انه كان معلما فى الفيزياء وخبيرا بالارصاد الجوية. وكان قلقا مخافة ان يترك ابناؤه الدين. فتحت تأثير افكار بيساريف، قبل كل شئ، كف الكسندر ايليتش عن التردد على الكنيسة. فحنة ايلينيشنا تذكر ان ايليا نيقولايفيتش سأل ذات مرة الكسندر عدة مرات اثناء الطعام: «هل تذهب فى الامسيات الى الكنيسة؟» فاجاب الكسندر باقتضاب ولهجة جازمة: «كلا». ثم لم تتكرر نظائر هذا السؤال فيما بعد. اما فلاديمير ايليتش فقد حدثنا انه عندما كان فى الخامسة عشرة جلس عند ابيه، ذات مرة، احد المعلمين، وحدثه ايليا نيقولايفيتش ان ابناءه عديمو الاهتمام بزيارة الكنيسة. وكان فلاديمير ايليتش حاضرا فى بدء الحديث، ثم ارسله ابوه فى بعض الشؤون، فلما انجزه وعاد اليهما، القى الضيف نظرة على فلاديمير ايليتش وقال وهو يبتسم: «المقرعة، تلزم المقرعة». وغضب فلاديمير ايليتش وقرر ان يخرج على الدين نهائيا، فهرع الى فناء الدار وانتزع الصليب الذى كان لا يزال معلقا حول رقبته ورماه على الارض.

اصبح الكسندر ايليتش طبيعيا، وانتقل الى بطرسبورغ يدرس فى جامعتها. واندفع الى النشاط الثورى، كاتما ذاك حتى عن حنة ايلينيشنا، وفى اخر عطلة صيفية رجع الى البيت ولم يقل شيئا عن نشاطه لاحد. اما فلاديمير ايليتش فقد كان يريد بلهفة ان يتحدث مع اى انسان عن تلك الافكار التى اخذت تساوره. ففى المدرسة الثانوية لم يجد احدا يمكن ان يتحدث

معه عن هذه الخوالج. وقد حدثنا هو مرة انه تراءى له ان احد اترابه فى الصف ذو ميول ثورية، فقرر ان يفاتحه فى الامر، واتفقا على الذهاب الى سفياغا. الا انه لم يفاتحه. فقد بدأ طالب الثانوية كلامه عن اختيار المهنة، وقال انه ينبغى اختيار تلك المهنة التى تساعد على ايجاد عمل احسن وعلى الرقى فى مدارج الوظيفة. قال فلاديمير ايليتش: «ففكرت انا وقلت انه وصولى، لا ثورى». ولم يفاتحه بشىء.

وكان الاخ الكسندر فى العطلة الصيفية الاخيرة يتحاشى الحديث مع فلاديمير، ولما رآى هذا اخاه يستعد لتحضير اطروحة عن الديدان الزاحفة، ويستيقظ عند الفجر، وينصرف فى الصباح الباكر الى دراسة الديدان ومراقبتها، وينظر فى المجهر، ويجرى التجارب، قال فى نفسه: «كلا، لن يكون اخي ثوريا». لكنه سرعان ما ادرك مدى شططه. وكان لمصير اخيه تأثير هائل فيه.

لم يكن للاب والاخ وحدهما تأثير عميق فى فلاديمير بل كان لامه كذلك نفوذ قوى جدا عليه. كانت ام ماريا الكسندروفنا المانية، اما ابوها فمنحدر من اصل اوكراينى، وكان طبيبا جراحا كبيرا اشتغل فى حقل الطب عشرين عاما، ثم اشترى بيتا فى قرية كوكوشكينو على بعد ٤٠ كيلومترا من قازان، وكان يعالج الفلاحين. ولم يكن يريد ادخال ماريا الكسندروفنا فى اية مدرسة، ودرست فى البيت، وكانت موسيقارة بارعة، وقرأت كتبا كثيرة، وعرفت الحياة. وقد عوّدها ابوها على تنظيم البيت وكانت ربة بيت ممتازة، وعلمت فيما بعد بناتها ادارة البيت. وعندما تزوجت ونمت عائلتها كثرت مشاغلها. وكان راتب ايليا نيقولايفيتش

لا يكاد يسد نفقات العائلة، فكان يترتب عليها ان تعمل كثيرا لكى يستقر فى اسرة اوليانوف ذلك الترتيب والنظام اللذان كانا سائدين فيها، واللذان مكّنا جميع الابناء من ان يدرسوا باطمئنان وجد، وساعدا على اقتباس الاطفال كثيرا من العادات الحسنة والتهذيب.

ووجهت ماريا الكسندروفنا وكذلك ابو فلاديمير اهتماما كبيرا جدا لدراسة الاطفال، كما علمتهم اللغة الالمانية، حتى ان فلاديمير ايليتش كان يتحدث احيانا ويروى كيف كان المعلم الالمانى فى الصفوف الاولى يثنى عليه. وفيما بعد كان ميل فلاديمير ايليتش الى تعلم اللغات بما فيها اللاتينية قويا جدا. واحسب ان موهبة المنظم التى كانت من اخص ما امتاز به فلاديمير ايليتش جاءته فى معظمها من امه.

وعدا ذلك كانت الام تضرب بنفسها مثلا للكبار وكيف ينبغى ان يعنوا بالصغار. وقد نظمت منهم جوقة غناء كانوا شغوفين بها لدرجة الهيام، كما كانت تلعب معهم. وكان فلاديمير ايليتش منذ حداثته يأخذ بيد اخيه الاصغر واخته الصغرى. وفى هذا الصدد تحتفظ ماريا ايلينيشنا وكذلك ديميترى ايليتش فى خازنة فكرهما بذكريات كثيرة رائعة. وكان باستطاعة فلاديمير ايليتش اثناء اللعب ان يضفى عليه شيئا من التنظيم وقدرا من الطلاقة، وكان يوجه اهتمامه وقت اللعب نحو الاصغرين.

وهذا الحب على الصغار كان فيما بعد الطابع المميز لكامل موقف لينين من الاطفال. كان يحب اللعب والمزاح معهم، ولكنى لم ار ابدا انه انتهرهم مرة، كما كان لا يحب ان ينتهرهم

الاخرون، وكان لا يلقى عليهم الاوامر والتعليمات، كما تصوره بعض الصور بهذا الشكل.

وكان يرى ان الاطفال هم ورثة تلك القضية التى نذر لها كل حياته، وكان يمزح احيانا مع الاطفال، ويقول لهم، دون ان يطلب الجواب، وانما لمجرد الافصاح عن شعوره: «هل صحيح، انك عندما تكبر، ستصير شيوعيا؟» ويعرف الجميع كم كان حدبه على الاطفال عظيما، وكيف كان يعنى بتغذيتهم وتعليمهم لتكون حياتهم اكثر نورا وسعادة، وكيف كان يهتم بهم لينشأوا مسلحين بالمعارف الضرورية لهم لنيل الفوز، وقادرين على العمل بادمغتهم وايديهم كما يتطلب ذلك التكنيك المعاصر.

واما حب فلاديمير ايليتش لأمه فقد كان على الدوام شديدا، وقد عرف قدرها خاصة فى سنوات المحن الفادحة التى نكبت بها. ففى سنة ١٨٨٦ توفى ايليا نيقولايفيتش. وقد حدثني فلاديمير ايليتش كيف احتملت بجلد كبير موت زوجها الذى محضته كل ذلك الحب والاجلال. ولكن فلاديمير ايليتش اصبح ينظر الى امه نظرة الاكبار، واخذ يفهمها خاصة بعد اعدام اخيه. لقد رأى الكسندر ايليتش العبء الباهظ الذى يرزح تحته الفلاحون، والمناظر الكريهة التى تطالع المرء فى كل مكان، فقر رأيه على ضرورة النضال ضد الحكم القيصرى. ولما كان اكبر سنا من ايليتش باربع سنوات فقد تأثر عميقا بحوادث اول اذار سنة ١٨٨١، وكان ينظر الى هذه الحوادث نظرة اخرى.

انضم الكسندر ايليتش فى بطرسبورغ الى حزب «الارادة الشعبية» واسهم بنشاط فى التحضير لاغتيال القيصر الكسندر

الثالث. ولكن الاغتيال لم يتحقق. وفى الاول من اذار سنة ١٨٨٧ اعتقل هو ورفاق اخرون. وبلغ نبأ اعتقال الكسندر ايليتش المعلمة كاشكاداموفا فى سيمبيرسك، فنقلته الى فلاديمير ايليتش باعتباره الابن الاكبر فى عائلة اوليانوف (وكان انذاك فى سن السابعة عشرة)، واما حنة ايلينيشنا التى كانت تدرس كذلك فى بطرسبورغ، فى الصفوف النسائية العليا، فقد اعتقلت هى ايضا. وترتب على فلاديمير ايليتش ان ينقل هذا النبأ الفاجع الى امه، وان يرى امتقاع وجهها. واخذت الام تستعد للسفر الى بطرسبورغ فى ذلك اليوم نفسه. ولم تكن توجد انذاك سكة حديدية فى سيمبيرسك، فكان ينبغى السفر الى سيزران فى العربات، وكان ذلك كثير التكاليف، فكان المسافرون يبحثون عادة عن رفيق سفر كى يتقاسموا التكاليف. وهرع فلاديمير ايليتش ليبحث عن رفيق سفر، لكن نبأ اعتقال الكسندر ايليتش كان قد شاع فى سيمبيرسك، ولم يشأ احد ان يسافر مع والدة ايليتش، التى كان الجميع قبل ذلك يمتدحونها باعتبارها زوجة المدير وارملته. واعرض عن اسرة اوليانوف كل من كانوا قبلا يزورونها، وكل «المجتمع» الاحرارى. وحزّ ألم الام وذعر المثقفين الاحراريين فى نفس الشاب البالغ سبعة عشر عاما. ثم سافرت الام، بينما كان فلاديمير ايليتش ينتظر الانباء من بطرسبورغ بقلق، واخذ يعنى بالصغار عناية خاصة واكب على دروسه. واخذ بعد هذا الحادث يفكر كثيرا. وتعمق فى فهم تشرنيشيفسكى، واصبح يبحث عن الاجوبة عند ماركس. وكان عند اخيه كتاب «رأس المال»، لكنه كان يصعب على فلاديمير ايليتش فى السابق ان

يستوعب مضامينه، اما بعد اعدام اخيه، فقد انصرف لدراسته بروح جديدة. لقد شنق اخوه فى ٨ ايار. وعندما بلغ فلاديمير ايليتش هذا النبأ قال: «لا، نحن لن نسلك هذه الطريق. ولا ينبغى ان نسلك هذه الطريق». وقبل ذلك، كانت الام قد قدمت عرائض من اجل ابنها وابنتها، وعينوا لها موعدا للمواجهة مع ابنها، وهذه المواجهة قد هزتها بشدة. لقد اخذت تحدثه فى المواجهة وتقول له قدم طلبا بالصفح والمرحمة، ولكن ابنها قال لها: «اماه، انا لا استطيع ان افعل ذلك، لاني ان فعلته اكون قد كذبت». اذ ذاك كفّت امه عن هذا الحديث. وعندما ودّعته قالت له «كن رجلا»، ثم حضرت محاكمته واستمعت الى خطابه.

واطلق سراح حنة ايلينيشنا لتكون تحت رقابة الشرطة، ونفوها الى قرية كوكوشكينو بضواحى قازان. وطرأ تغير على ماريا الكسندروفنا، واصبحت تتفهم نشاط ابنائها الثورى، فازداد هؤلاء حبا لها.

وفى سنة ١٨٩٩، عندما ذهبت هى الى بطرسبورغ للالتماس من اجل ان يسمحوا لفلاديمير ايليتش بالسفر من محافظة الينيسى الى خارج البلاد، او ان ينقل الى اى مكان قريب من بطرسبورغ، خاطبها مدير الشرطة زفوليانسكى بخبث قائلا: «لك ان تعتزى بابنائك، فاحدهم شنق، واما الاخر فالحبل يبكى شوقا اليه». فنهضت ماريا الكسندروفنا من مكانها وخاطبته بمنتهى الشهامة، قائلة: «اجل، اني اعتز بابنائي» (كتب ذلك سميرنوف الذى كان حاضرا اثناء هذا الحديث، وسجله فى مذكراته التى نشرها فى جريدة «الجنوب السوفييتى»). وقد تحدث فلاديمير ايليتش

مرارا عن امه، وعن قوة الارادة العظيمة التى كانت عندها، وقال مرة: «حسنا ان مات الاب قبل اعتقال اخي، ولا ادرى ابدا كيف كان ينتهى الامر لو كان هو حيا، وماذا كان يحدث». وفيما بعد كان علي انا ان اهتم بماريا الكسندروفنا وان اقابلها اثناء مرض فلاديمير ايليتش سنة ١٨٩٥ فى الموقف، حيث كانت تذهب لمواجهة فلاديمير ايليتش. وادركت انا سبب حبه هذا الحب الشديد لامه. ففى مجموعة «رسائل الى ذويه» التى اصدرتها ماريا ايليينيشنا، نجد كل سطر من رسائله الى امه يفيض بالحب لها والبر بها.

كان لا بد ان تترك شخصية الام تاثيرها فى فلاديمير ايليتش. لقد كان الامر شاقا عليه، ولكنه مع ذلك انكب بجد على دروسه، وادّى الامتحانات بدرجة ممتاز، وانهى المدرسة الثانوية محرزا المدالية الذهبية.

وفى الصيف انتقلت اسرة اوليانوف الى قازان حيث دخل فلاديمير ايليتش جامعتها، التى كان والد فلاديمير ايليتش قد تعلم فيها فى حين ما.

«بولشفيك» العدد ١٢، تاريخ
١٥ حزيران سنة ١٩٣٨.

حديث مع ايليتش

منذ عهد قريب جاءني عامل شيخ اسمه روداكوف، قدم من بروكوبييفسك فى الكوزباس فى شؤون خاصة. كان هذا الرجل فى سنوات العقد العاشر يعمل فى بطرسبورغ فى حي نارفا، وكان قريبا من الرفيق بابوشكين، و واحدا من العمال النشطاء الواعين فى ذلك العهد. وكان تلميذي فى مدرسة يوم الاحد المسائية. لم نر بعضنا بعضا اربعين سنة. وعندما قدم الى موسكو زارني، وقد اثر فينا هذا اللقاء تاثيرا كبيرا. وحدثني على عجل عن حياته، وكيف زج فى السجن، وكيف نفى وبقى فى سيبيريا بعد ثورة سنة ١٩٠٥. وقال: «ابنى الآن مهندس، وابنتي على وشك ان تتخرج من الكلية، ونحن جميعا شيوعيون». ثم قال متحمسا: «ان كل ما كنا نقوله انذاك، يتحقق الآن». وقد تاثرنا كلانا لدرجة انه نسى ان يترك لى عنوانه.

اجل، اننا نحن المتقدمين فى السن نحرص بطبيعتنا حرصا اكبر على منجزاتنا. ان المرء لينتابه شعور خاص، اذ يرى ما

كان يحلم به ويناضل من اجله سنين طويلة، يتحقق عمليا فى الحياة. ان جيلنا، جيل اولئك الذين عرفوا لينين عن قرب، وعملوا معه، يخالجه اليوم شعور من البهجة يشوبه شيء من الاسف الممض لان لينين لم يعد يرى ما تحقق، ولان شعلة حياته ذوت قبل الاوان.

وكان لا بد لتلك الشعلة ان تذوى. فقد كانت افكاره تعمل الوقت كله مجهدة متوترة. اتذكر انه عندما اخذ مرضه يشتد فى المرة الاخيرة التى اودى فيها بحياته، اصر الاطباء على ضرورة تطبيق نظام صارم، واوعزوا بان يضطجع بعد الغداء ساعتين. واذعن لينين فى بادىء الامر للنظام، الا انه اخذ فيما بعد يشكّك فى طلب الطبيب، وقال ذات مرة «لن يستطيع الاطباء ان يجعلوني لا افكر». وفى الواقع فقد كان سواء اثناء اضطجاعه فى السرير، او عند التجول، او حين الحديث فى المواضيع اليومية البسيطة، يفكر فى تلك القضية التى وهبها كل حياته، وكل قواه، وكل لحظة من حياته.

كان لينين يحب اثناء النزهات ان يتحدث عما يشغله ويقلق باله فى تلك اللحظة. وكان يحدث عادة ان نخرج معه خاصة فى عيد ميلاده من كل سنة فنتوغل بعيدا فى الغابة للتنزه، فكان يحدثنا خاصة عما كان يشغل باله فى ذلك الاوان. وكان هواء الربيع العبق فى الغابة وتفتح الاغصان اللدنة، كان كل ذلك يؤثر تاثيرا طيبا فى مزاجه، فكان يذهب بافكاره الى الامام، ليستشف المستقبل. وقد بقى فى ذاكرتي حديث من الاحاديث التى جرت معه فى السنوات الاخيرة من حياته.

يعرف الجميع اية اهمية عظيمة كان لينين يعيرها للعلم. ويتذكر الجميع خطاب فلاديمير ايليتش فى مؤتمر مجالس السوفييت الثالث لعامة روسيا، حيث قال: «فيما مضى كان العقل البشرى كله، وكان نبوغه كله يعمل من اجل ان يعطى افرادا من الناس جميع خيرات التكنيك والثقافة، اما الاخرون فيحرمهم من التعليم والتطور. اما الآن فان جميع معجزات التكنيك وجميع مكتسبات الثقافة تغدو فى متناول الشعب كله، ومن الآن فصاعدا، فان العقل والنبوغ البشريين سوف لن يستخدما ابدا كوسيلة للقسر، او اداة للاستثمار». هذا ما يتعلق ببلادنا، بلاد السوفييتات. اما برجوازية البلدان الرأسمالية فكلما مر عليها الزمن كلما زادت فى وضعها منجزات العلم والتكنيك فى خدمة اغراضها الاستعمارية. فهى تسعى لتستخدم كل اختراع جديد من اجل ان تجعل حرب النهب الجديدة، التى تحلم هى بها بشكل مفزع، اكثر تخريبا من الحرب الاستعمارية العالمية الاخيرة، ومن اجل ان تحول هذه الحرب الى اعصار مدمر.

فمن اجل ان نحمى وطننا، بلاد السوفييتات، من الاعتداء، يتأتى علينا ان نشدد استعدادنا للدفاع. ويلزم ان نضع جميع مكتسبات العلم والتكنيك فى خدمة اغراض الدفاع. وهذا ما فعلته بلادنا منذ حياة لينين.

وها انى اتذكر حديثا مع فلاديمير ايليتش فى هذا الموضوع جرى اثناء نزهة قمنا بها فى يوم من ايام ميلاده. لقد تحدث فى البدء عن مختلف الشؤون الجارية، وعندما اوغلنا بعيدا فى الغابة، صمت مدة، ثم اخذ يتحدث، وكان الحديث عن

احدى الاختراعات، فقال ان الاختراعات الجديدة فى ميدان العلم والتكنيك تقوى دفاع بلادنا لدرجة تجعل كل هجوم عليها غير ممكن. وبعد ذلك دار الحديث عن موضوع اخر، وهو انه عندما يكون الحكم فى ايدى البرجوازية فانها توجهه لاضطهاد الكادحين، واما عندما يكون الحكم فى ايدى البروليتاريا المنظمة الواعية فانها توجهه لازالة كل استثمار، ولوضع حد لجميع المجازر. وكان فلاديمير ايليتش يتكلم بصوت خافت خفيض، اشبه بالهمس، كعادته عندما كان يتحدث عن احلامه وخوالجه. وكان هذا الحديث كله ينم تماما عن فحوى افكاره. ومع الاسف الشديد فاني لم استطع ان احتفظ فى ذاكرتي بتفاصيل هذا الحديث.

لقد اصبحت بلادنا فى السنوات التى مرت على هذا الحديث بلادا ذات تكنيك قوى، وذلك بفضل سياسة حزبنا.

ونعرف كيف نشأ خلال هذه السنوات الاختصاصيون، وكيف نمى الوعى وقويت الروح الكفاحية عند كادحى بلادنا.

اننا نعرف دور فلاديمير ايليتش فى كل هذا النشاط الحالى الجارى الآن فى بلادنا. ولقد اشار الى الطريق السّوىّ الذى يجب ان ننهجه سنوات طوالا.

«لينينغرادسكايا برافدا» العدد ٢٧.
المؤرخ ٢٢ نيسان ١٩٣٥.

ما كان يتذوقه لينين من كتب الادب

قال لي الرفيق الذى عرفني بفلاديمير ايليتش لاول مرة، ان ايليتش رجل عالم، يقرأ الكتب العلمية الصرف، ولم يقرأ فى حياته اية رواية، ولم يتل قصيدة ابدا. فتعجبت، لاني كنت انا نفسي قد قرأت فى حداثتي جميع الكتاب والشعراء الكلاسيكيين، وكنت احفظ تقريبا كل ما كتبه ليرمونتوف وانداده، وكان تشرنيشيفسكى وليون تولستوى واوسبنسكى وامثالهم من الكتاب قد اصبحوا جزءا من حياتي. ولذلك بدا لي مدهشا ان يكون هناك رجل لا يهتم بكل ذلك قدر ذرة.

وفيما بعد عرفت ايليتش عن كثب اثناء العمل، وعرفت كيف يزن الناس، ولاحظت نظراته الثاقبة فى الحياة وفى الافراد، اذ ذاك ازاح ايليتش الحى سيماء ذلك الرجل الذى لم يمسك قط فى يده كتبا تتحدث عن حياة الناس وعيشهم.

ولكن امور الحياة كانت تجرى انذاك بشكل لم نكن نجد معه متسعا من الوقت للتحدث فى هذا الموضوع. ولكني عرفت فيما بعد، فى سيبيريا، ان ايليتش لم يقرأ اقل مني كتب

الادباء الكلاسيكيين، وانه لم يقتصر على قراءتها مرة واحدة، فقد قرأ كتب تورجينيف مثلا اكثر من مرة. وكنت انا قد اخذت معي الى سيبيريا كتب بوشكين وليرمونتوف ونكراسوف. وكان فلاديمير ايليتش يضع هذه الكتب مع كتب هيجل جنب سريره، وكان يعيد قراءتها فى الامسيات مرة بعد اخرى. وكان مولعا بكتب بوشكين اكثر من الجميع. وكان لا يقدر الشكل وحده. فقد احب مثلا رواية تشرنيشيفسكى «ما العمل؟»، بالرغم من افتقارها الى الصياغة الفنية وسذاجة شكلها. وقد قرأ هو هذه الرواية بانتباه ادهشني، وكان يشير الى ادق التفاصيل والرتوش فى هذه الرواية. واقول عرضا انه كان معجبا بكامل شخصية تشرنيشيفسكى، وكانت مجموعة صوره فى سيبيريا تضم صورتين لهذا الكاتب، وكان ايليتش قد كتب على احداها بيده سنة ولادة الكاتب ووفاته. وكانت مجموعة صور ايليتش هذه تضم كذلك صورة الكاتب اميل زولا، ومن الكتاب الروس صورة غيرتسين وبيساريف. وكان فلاديمير ايليتش مولعا انذاك اشد الولع ببيساريف، وقرأ كتبه كثيرا. واتذكر انه كان يوجد عندنا فى سيبيريا كتاب «فاوست» لغوته باللغة الالمانية، ومجلد من اشعار هايني.

وعندما عاد فلاديمير ايليتش من سيبيريا الى موسكو ذهب الى المسرح مرة وشاهد مسرحية «سائق العربة هنشل». ثم تحدث عنها وقال انها اعجبته كثيرا.

وفى مونيخ اتذكر من الكتب التى اعجبت فلاديمير ايليتش رواية «Bei mama» («عند الام») لغيرهارد، و«Büttnerbauer» («الفلاح») لبولينتس.

وفيما بعد، اثناء الهجرة الثانية، فى باريس كان فلاديمير ايليتش يقرأ بشغف اشعار فيكتور هوغو «Châtiments» التى قالها عن ثورة سنة ١٨٤٨، وكان قد نظم هذه القصائد فى الهجرة وارسلها سرا الى فرنسا. وفى هذه القصائد الكثير من المبالغات الساذجة، الا ان القارئ يشعر مع ذلك فيها بانفاس الثورة. وكان يطيب لايليتش التردد على مختلف المقاهى ومسارح الضواحى وسماع المغنين الثوريين الذين يغنون فى احياء العمال عن كل شئ، عن الفلاحين الذين يقعون تحت تأثير الخمرة، فينتخبون الداعية القادم اليهم نائبا فى مجلس النواب، وعن تربية الاطفال، وعن البطالة، وما الى ذلك. وكان فلاديمير ايليتش معجبا جدا بمنتيغيوس. وقد كان مونتيغيوس، ابن احد ابطال الكومونة، محبوبا فى احياء العمال. الحق ان اغانيه المرتجلة، التى كانت تعكس دائما الوانا ساطعة من الحياة، لم تكن تتضمن اية فكرة مثالية، الا انها كانت تحتوى على الكثير من الصدق والجاذبية. وكان فلاديمير ايليتش غالبا ما ينشد تحيته الى الفوج السابع عشر، الذى ابى ان يطلق النار على المضربين «Salut, salut à vous, soldats du 17-me» («تحية وسلاما لكم يا جنود الفوج السابع عشر»). وذات مرة اقام الروس سهرة، وفيها تحدث ايليتش ومونتيغيوس عن احلامهما عن الثورة العالمية ولكن ظهر فيما بعد ان تباين هذين الرجلين كان شديدا، لدرجة يدعو للدهشة، فعندما اندلعت الحرب مرق مونتيغيوس الى معسكر الشوفينيين. يحدث احيانا ان يلتقى المرء فى عربة القطار

باناس لا يعرفهم، ثم يتحدث معهم على صوت طرق العجلات عن مكنونات صدره، عن اشياء لم يقلها ابدا فى وقت اخر، وبعد ذلك يفترق عنهم فلا يلتقى بهم بعدها طيلة العمر. وهذا ما حدث، وقد جرى هذا الحديث باللغة الفرنسية، والحديث بصوت عال بلغة اجنبية يكون اسهل من اللغة الاصلية. لقد جاءتنا ذات مرة امرأة فرنسية كناسة، وكان فلاديمير ايليتش قد سمعها مرة تنشد اغنية، وكانت تلك اغنية الزاسية. فطلب فلاديمير ايليتش الى الكناسة ان تعيد انشادها، وتقول كلماتها، وفيما بعد كان لينين ينشدها غالبا، وهذه الاغنية تنتهى بالكلمات التالية:

Vous avez pris l'Alsace et la Lorraine.
Mais malgré vous nous resterons français,
Vous avez pu germaniser nos plaines,
Mais notre coeur—vous ne l'aurez jamais!

(«انتم استوليتم على الالزاس واللورين، ولكننا بالرغم منكم سنبقى فرنسيين، ان بوسعكم ان تجرمنوا حقولنا، اما قلوبنا فانتم عاجزون عن جرمنتها!»).

كان ذلك فى سنة ١٩٠٩، عهد الرجعية، وكان الحزب قد حطم، الا ان روحه الثورية لم تحطم. وكانت هذه الاغنية تتجاوب ومزاج فلاديمير ايليتش، كان ينبغى ان يسمع المرء كيف ترن هذه الكلمات من الاغنية على لسانه رنين الظفر:

Mais notre coeur—vous ne l'aurez jamais!

فى اشد سنوات الهجرة هذه التى كان لينين يتحدث عنها بكدر (حتى انه عندما رجع الى روسيا، كان يكرر ما سبق ان

قاله: «لماذا ذهبنا فى ذلك الحين بالذات من جنيف الى باريس؟»)، فى تلك السنوات الشداد كان يفكر ويفكر باصرار اشد من الجميع، ويتحدث مع مونتيغيوس، وينشد بلهجة النصر الاغنية الالزاسية، وكان فى الليالى يسهر ويقرأ فيرهارن.

وفيما بعد، فى زمن الحرب، انجذب فلاديمير ايليتش الى كتاب باربوس «Le feu» («النار»)، واعاره اهمية عظيمة. وقد كان هذا الكتاب يتجاوب مع مزاج لينين انذاك.

وكنا نادرا ما نتردد على المسرح. وكنا اذا زرنا المسرح، وكانت التمثيلية سخيفة او التمثيل مصطنعا كان ذلك يؤثر تأثيرا سيئا جدا على اعصاب فلاديمير ايليتش. فكنا عادة نترك المسرح بعد المشهد الاول من التمثيلية. وكان الرفاق يضحكون منا لاتلاف الدراهم عبثا.

ومرة جلس فلاديمير ايليتش حتى خاتمة التمثيلية، وكان ذلك على ما اظن فى اواخر سنة ١٩١٥، فى برن حيث اخرجوا تمثيلية ليون تولستوى «الجثة الحية». ومع ان التمثيلية اخرجت باللغة الالمانية، الا ان الممثل الذى قام بدور الامير كان روسيا، واستطاع ان يعبر عن الفكرة التى ارادها ليون تولستوى، وكان فلاديمير ايليتش يتتبع التمثيل باعصاب متوترة وقلق.

واخيرا جئنا الى روسيا، وظهر ان الفن الجديد غريب عند فلاديمير ايليتش وغير مفهوم. فقد دعينا مرة لحضور حفلة فى الكريملين اقيمت لجنود الجيش الاحمر. واجلسوا لينين فى الصف الاول. واخذت الممثلة غزوفسكيا تتلو قصيدة ماياكوفسكى: «ربنا طرادنا، قلبنا طبلنا»، واتجهت مباشرة نحو

فلاديمير ايليتش، اما هو فقد كان جالسا، ومرتبكا قليلا من هذه المفاجأة ومحتارا، واخيرا تنفس الصعداء عندما استبدلت غزوفسكيا بممثل اخر اخذ يقرأ قصة «المجرم» لتشيخوف.

وذات مساء اراد فلاديمير ايليتش ان يرى كيف يعيش الشباب فى المشاعيات. فقررنا ان نزور مدرسة الرسامين العليا وكان ذلك على ما احسب فى يوم دفن كروبوتكين فى سنة ١٩٢١. وكانت سنة مجاعة، الا ان الحماسة كانت زاخرة عند الشبيبة. وكانوا ينامون على الواح خشبية تكاد تكون عارية، ولم يكن عندهم خبز. فقال احدهم بوجه مشرق، وكان عضو الخفارة فى مشاعية الاتحاد، «عندنا ذرة بدل الخبز». فطبخوا لفلاديمير ايليتش من هذه الذرة عصيدة جاءت بدون ملح. واخذ فلاديمير ايليتش يتفرس فى الشبان وفى وجوه الرسامين والرسامات الشباب المحيطين به، وما لبثت بهجتهم ان انعكست على قسمات وجهه. ثم اروه رسومهم البسيطة، وشرحوا له افكارهم، واخذوا يمطرونه بالاسئلة. اما هو فقد اخذ يبتسم متحاشيا الاجوبة، فكان يجيب على اسئلتهم بالاسئلة التالية: «ماذا تقرأون؟ هل تقرأون بوشكين؟»، فاجاب احدهم: «ايه، كلا، انه كان برجوازيا. نحن نقرأ ماياكوفسكى». فابتسم فلاديمير ايليتش وقال: «ولماذا، اعتقد ان بوشكين احسن». ثم تلطف قليلا فى الحديث عن ماياكوفسكى. وعندما كان يذكر اسم ماياكوفسكى كانت الذاكرة تعود به الى الشبيبة الزاخرة بالحياة والبهجة، والمستعدة للموت فى سبيل السلطة السوفييتية،

الشبيبة التى لم تكن تجد كلمات من اللغة المعاصرة للتعبير عما يجيش فى نفوسها، والتى تبحث عن هذه الكلمات فى اشعار ماياكوفسكى غير المفهومة بعض الشئ. وفيما بعد اثنى فلاديمير ايليتش على ماياكوفسكى لقصيدته التى يسخر فيها بالبورقراطية السوفييتية. واتذكر ان فلاديمير ايليتش اعجب من بين الكتابات الحديثة برواية لاهرنبرغ يصف فيها الحرب، وقال لى عنها: «أتعرفين هذا الرجل، ايليا لاخماتى، (لقب اهرنبرغ)، انه يتحدث بروعة. لقد وفق فى كتابه هذا».

وزرنا المسرح الفنى عدة مرات. وذات مرة ذهبنا لمشاهدة مسرحية «الطوفان». فشغف بها ايليتش شغفا عجيبا. بحيث اراد ان يذهب للمسرح لمشاهدتها مرة اخرى فى اليوم التالى. وعرضت كذلك مسرحية غوركى «فى الاعماق». وكان فلاديمير ايليتش يحب غوركى كرجل احس بالتقارب معه منذ مؤتمر لندن، وكان يحبه كفنان كانت تكفيه الاشارة ليستنبط منها الشئ الكثير، وكان يتحدث مع غوركى بمنتهى الصراحة. ولذلك كان فلاديمير ايليتش كثير التدقيق عندما تمثل مسرحيات غوركى. وكانت الزوائد والحشو فى التمثيل المسرحى تزعجه. وبعد مشاهدة مسرحية «فى الاعماق» كف فلاديمير ايليتش عن التردد على المسرح زمنا طويلا. وذهبنا معه ايضا لمشاهدة «العم فانيا» لتشيخوف. وقد اعجب بها. واخيرا فان اخر مرة زرنا بها المسرح كانت فى سنة ١٩٢٢، وشاهدنا «صرصار فوق الموقد» لديكنز. ولم يكد المشهد الاول من التمثيلية

ينتهى حتى سئم فلاديمير ايليتش وتهيجت اعصابه من افكار ديكنز العاطفية المبتذلة. وعندما بدأ صانع الدمى العجوز يتحدث مع ابنته العمياء، لم يطق فلاديمير ايليتش صبرا وخرج فى منتصف المشهد.

وفى الاشهر الاخيرة من حياة فلاديمير ايليتش اخذت حسب ايعازه اقرأ له فى الامسيات عادة بعض الاقاصيص. فقرأت له من قصص شدرين، و «جامعاتى» لغوركى. وكان عدا ذلك يحب الاستماع الى القصائد، خاصة قصائد دميان بيدنى، لكنه لم يعجب بقصائد دميان الهجائية بمقدار قصائده فى الفخر.

وكان يحدث ان اقرأ له القصائد، فى حين كان هو ينظر الى الشمس الغاربة مستغرقا فى افكاره. واتذكر من هذه القصائد قصيدة تنتهى بهذا الشطر «لن يصبح رجال الكومونة عبيدا، ابدا، ابدا».

وكنت اقرأ، كما لو كنت امام اسم لينين واردد القول: ابدا، ابدا، لن نتخلى عن اى مكسب من مكاسب الثورة...

و قبل مفارقته الحياة بيومين قرأت له مساء قصة «حب الحياة» لجاك لندن، وهذه القصة لا تزال حتى الان فوق المنضدة فى غرفته. وهذه هى قصة قوية جدا. فهناك فيما وراء صحراء من الثلج لم تطأها قدم الانسان، يوجد شخص مريض مشرف على الموت جوعا، يشق طريقه الى رصيف نهر كبير. ثم تخور قواه، فلا يعود يمشى، بل يزحف زحفا، والى جانبه يزحف كذلك ذئب يكاد يموت هو الاخر من الجوع، وينشب

بينهما صراع، تكون الغلبة فيه للانسان الذى يصل الى هدفه وهو مشرف على الموت و يكاد يفقد عقله. وقد اعجب فلاديمير ايليتش بهذه القصة اعجابا فائقا. وفى اليوم التالى طلب ان اواصل قراءة جاك لندن. غير ان هناك الى جانب الصور القوية فى قصص جاك لندن صوراً تافهة جدا. اما قصته الاخرى فكانت من نوع يختلف كل الاختلاف عن تلك، ففيها اشادة بالخلق البرجوازى، وخلاصتها ان ربانا وعد صاحب سفينة مشحونة بالحبوب ان يصرفها بصورة رابحة، فضحى بحياته من اجل الوفاء بكلمته. فابتسم فلاديمير ايليتش وهز يده. وبعد ذلك لم يتح لى ان اقرأ له شيئا...

كروبسكايا. ذكريات عن لينين.
دار النشر الحكومية. ١٩٣١.

مطالعات لينين فى المكتبات

قضى لينين شطرا كبيرا جدا من اوقاته فى المكتبات. وعندما كان يعيش فى سامارا استعار كتبا كثيرة جدا من المكتبة. ولما رحل الى بطرسبورغ حيث كان يقضى اياما بكاملها فى المكتبة العامة، كان يستعير الكتب من مكتبة الجمعية الاقتصادية الحرة و غيرها من المكتبات. وحتى عندما زج فى الموقف كانت شقيقته تحمل اليه الكتب من المكتبات. وكان هو ينقل منها المقتبسات. وقد جاء فى المجلد الثالث من الطبعة الثانية لمجموعة مؤلفات لينين انه قد تأتى على لينين، من اجل ان يضع كتابه «تطور الرأسمالية فى روسيا» ان يراجع ٥٨٣ كتابا. و يتضمن كتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» اسانيد من هذه الكتب. فهل كان باستطاعة لينين ان يقتنى كل هذه الكتب؟ هذا عدا ان الكثير من هذه الكتب لم يكن يعرض للبيع، منها مثلا مجموعات احصاءات المجالس المحلية التى كان لينين يعيرها وزنا كبيرا. وعدا ذلك، كان لينين انذاك يعيش كطالب فى غرفة غير كبيرة، وكان يقتر على نفسه. ولم يكن بوسعه ان ينفق

ما لا يقل عن الف روبل لشراء هذه الكتب، كما لم يكن عنده متسع من الوقت ليتردد على مخازن بيع الكتب ويبحث عن هذه الكتب، لانه ان فعل ذلك لما بقى عنده وقت للمطالعة، كما انه لم يكن ليعرف بوجود الكثير من هذه الكتب ان لم يراجع فهارس كتب المكتبات. واخيرا فانه لم يكن عنده مكان يمكن ان يحفظ فيه هذه الكتب. وقد استطاع لينين بعد مطالعة هذه الكتب ان يكتب سفره الهام الضخم «تطور الرأسمالية فى روسيا»، وفضلا عن ذلك استطاع فى الوقت نفسه ان يدرس بصورة شاملة حياة العمال والفلاحين فى ذلك العهد. ولو لا ذلك لما كان بالامكان ان تنبثق منه تلك الشخصية، شخصية لينين الذى نعرفه نحن جميعا خير معرفة. اما كتاب «تطور الرأسمالية فى روسيا» فقد صدر من الطبع سنة ١٨٩٩.

وعندما رحل فلاديمير ايليتش الى خارج البلاد عكف على المطالعة فى المكتبات بحرص اشد. وكان يعرف لغات اجنبية فقرأ بها جمهرة من الكتب، لم يكن باستطاعته فى اى وقت ان يبتاعها، اذ كان عليه فى المهجر ان يحسب حساب كل كوبيك، وان يقتصد فى الدراهم للترام وللطعام وغير ذلك. ولو لم يقرأ ايليتش الكتب والجرائد والمجلات باللغات الاخرى لما استطاع ان يضطلع بذلك العمل الذى اضطلع به، ولما حصل على تلك المعارف التى كان مسلحا بها على احسن صورة.

واذا القينا نظرة على «رسائله الى اهله»، لتبينا اية اهمية كان لينين يعيرها للمكتبات.

ففى سنة ١٨٩٥ سافر لينين لاول مرة الى خارج البلاد، حيث

قضى بضعة اسابيع فى برلين، ارتسمت عنده اثناءها انطباعات كثيرة، وكان يراقب حياة العمال، ويتردد فى الوقت نفسه على المكتبة الامبراطورية ببرلين. وعندما زج فى سنة ١٨٩٥ فى السجن نظّم خلال ثلاثة اسابيع كيفية الاستفادة من كتب المكتبات. ولم يقتصر هو على الاستفادة من كتب مكتبة السجن، بل اهتم كذلك، وهو فى السجن، بالاستفادة من المكتبات الاخرى. وقد كتب فلاديمير ايليتش من السجن بعد اعتقاله بثلاثة اسابيع يقول:

«... يسمح بالمطالعة للموقوفين، وقد تحققت من ذلك بنفسى عند المدعى العام، رغم انى كنت اعرف ذلك قبلا (وهم يسمحون بذلك حتى للسجناء فى السجن). وقد اكد لى هو انه لا يوجد تحديد فى عدد الكتب المرّخص بها. وعدا ذلك يسمح باعادة الكتب، وبالتالى، فان من الممكن ان يستفاد من المكتبات. ومعنى ذلك انه امر حسن من هذه الناحية.

وهناك عقبات فى سبيل الحصول على الكتب اخطر من هذه بكثير. اذ تلزمنى كتب كثيرة. وقد ادرجت ادناه قائمة باسماء تلك الكتب المسجلة عندى الان والتى يتطلب الحصول عليها سعيا مستمرا. ولا ادرى اذا كنا سنحصل عليها كلها. يظهر ان من الممكن ان نعتمد على مكتبة الجمعية الاقتصادية الحرة (التى سبق لى ان استعرت منها كتبا واودعت مكانها ١٦ روبلا) وهذه المكتبة تعير الكتب مدة شهرين للاشخاص فى بيوتهم وذلك لقاء وديعة نقدية، الا ان كتبها ليست كاملة. فاذا امكن ان نستفيد (بواسطة احد الكتاب او الاساتذة) من مكتبة

الجامعة او مكتبة لجنة العلماء فى وزارة المالية، لاستطعنا ان نقول ان مسئلة الحصول على الكتب قد حلت...

والقضية الاخيرة وهى اصعب القضايا، هى ايصال الكتب. فالمسئلة ليست فى جلب كتاب او كتابين وينتهى الامر. ان من الضرورى ان تؤخذ الكتب من المكتبات بانتظام وخلال مدة طويلة و تجلب و تعاد، (واعتقد ان عمل ذلك مرة فى كل اسبوعين او ربما فى كل شهر كاف تماما، اذا امكن الحصول دفعة واحدة على كتب كثيرة). ولا ادرى كيف يمكن ان ينظم ذلك. فهل يمكن عمله بهذا الشكل: و هو ان تبحثوا عن اى بواب او فراش او حمال او صبى يكون بامكانى ان ادفع له اجرة لقاء سعيه وراء الكتب. ان تبديل الكتب سواء من ناحية ظروف العمل او ظروف استلامها من المكتبات، يتطلب بالطبع الدقة والمواظبة بشكل تنبغى معه مراعاة كل ذلك.

وعلى كل فالاقوال سهلة هينة، وانا اشعر ان تنفيذ هذا المشروع ليس بالامر الهين، وان «خطتى» يمكن ان تصبح وهما...»

واخذت حنة ايلينيشنا على عاتقها امر استعارة الكتب من المكتبات وايصالها الى فلاديمير ايليتش فى السجن.

وعندما كان لينين فى طريقه الى المنفى عاش من يوم ٤ اذار حتى ٣٠ نيسان سنة ١٨٩٧ فى مدينة كراسنويارسك، وخلال هذه الفترة كان يتردد على مكتبة احدهم المدعو يودين. وهذا ما كتبه لينين الى امه بتاريخ ١٠ اذار من كراسنويارسك:

«... وجدت يوم امس مكتبة مشهورة هنا باسم مكتبة يودين الذي قابلنى بترحاب واطلعنى على خزانات كتبه، وسمح لى

كذلك ان اطالع فيها، واعتقد ان ذلك متيسرلى. الموانع اثنان: الاول ان مكتبته تقع خارج المدينة، الا انها غير بعيدة، فالمسافة الى هناك كيلومتران لا اكثر، ولذلك فانى اعتبرها نزهة طيبة. و الثانى ان المكتبة غير كاملة التنظيم، حيث اضطر ان ازعج صاحبها بكثرة طلبى الكتب، و سنرى كيف يكون ذلك فى العمل. واعتقد ان المانع الثانى سيزال. و قد اطلعت على مكتبته بصورة سطحية فوجدتها على كل حال مجموعة رائعة من الكتب. ففيها مثلا منتخبات كاملة من المجلات (الرئيسية) الصادرة منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى ايامنا هذه. امل انى ساستطيع الاستفادة منها للاسانيد التى احتاج اليها اشد الحاجة فى عملى...»

وكتب لينين عن هذه المكتبة ايضا رسالة اخرى بتاريخ ١٥ اذار جاء فيها:

«... انى اذهب الى المكتبة يوميا. و لما كانت المكتبة على بعد كيلومترين خارج المدينة فانه يتأتى على ان اقطع خمسة كيلومترات ذهابا وايابا، او ما يستغرق زهاء ساعة من الوقت. وانا مرتاح جدا من هذه النزهة الممتعة، بالرغم من كونها تجلب لى النعاس فى بعض الاحيان. و قد ظهر ان المكتبة تحوى من الكتب فى الموضوع الذى اعالجه، اقل بكثير مما كنت اتصور، و مع ذلك ففيها ما ينفعنى. و انى مبتهج جدا لان الوقت هنا لا امضيه كله هباء. كما انى اتردد على مكتبة المدينة، ففيها يمكن مطالعة المجلات و الجرائد التى تصل الى هنا متأخرة ١١ يوما، وانى لم استطع للان ان اتعود على مثل هذه «الانباء» المتأخرة...»

وعندما حل لينين فى المنفى بقرية شوشينسكويه حيث لم تكن الجرائد تصل الى هناك الا فى اليوم الثالث عشر بعد صدورها، اخذ يسعى من هذه الزاوية النائية فى سيبيريا للاستفادة من مكتبات موسكو.

ففى ٢٥ ايار سنة ١٨٩٧ كتب رسالة من شوشينسكويه الى شقيقته حنة ايليينيشنا ايليزاروفا بموسكو جاء فيها:

«...انى افكر طيلة الوقت بكيفية الاستفادة من مكتبة موسكو، فهل تدبّرتم انتم شيئا بهذا الخصوص، اعنى هل اتصلتم باحدى المكتبات العامة؟ فاذا امكن استعارة الكتب لمدة شهرين (كما كان الامر فى سن بطرسبورغ مع مكتبة الجمعية الاقتصادية الحرة، فان ارسال الرزمات لا يكلف كثيرا (١٦ كوبيكا للرطل و٧ كوبيكات للتسجيل) (ويمكن ارسال ٤ ارطال بمبلغ ٦٤ كوبيكا) كان ذلك، كما يبدو، اكثر توفيرا. اذ ان انفاق الدراهم على ارساليات الكتب لاحصل بذلك على كتب اكثر، يكون اصلح من انفاقى مبالغ اكبر من النقود لشراء كتب قليلة. يلوح لى ان هذا انسب لى بكثير. وليست المسئلة الا مسئلة امكان استعارة الكتب لمثل هذه المدة (مع الضمان طبعا) من اية مكتبة عامرة كمكتبة الجامعة (واعتقد ان باستطاعة ديمترى ان ينظم هذا الامر بسهولة، اما بواسطة احد طلاب الحقوق، او ان يذهب بنفسه الى استاذ الاقتصاد السياسى ويقول له انه يرغب فى الانصراف الى هذه المهنة، وياخذ الكتب من المكتبة الرئيسية. اما الان فيتأتى تاجيل الامر الى الخريف) او الاستفادة من مكتبة الجمعية الحقوقية بموسكو

(ويلزم ان تراجع هناك الادلة و فهارس المكتبات، و تلزم معرفة شروطع قبول الاعضاء الجدد الخ). او من اية مكتبة اخرى.

وبديهى ان فى موسكو عدة مكتبات حسنة. و يمكن ان نعول ايضا على المكتبات الخاصة. فاذا بقى احد منكم حتى الان فى موسكو، فانى ارجو ان يستفهم عن كل ذلك.

واذا ذهبت الى خارج البلاد فاخبرينى لاكتب اليك تفصيلا بشأن الكتب هناك. وارسلى لى بكثرة كل انواع فهارس الكتب عند باعة الكتب وغيرهم، (فهارس المكتبات ومخازن بيع الكتب). اخوك. فلاديمير اوليانوف.»

وكتب فلاديمير ايليتش رسالة بتاريخ ١٩ تموز سنة ١٨٩٧ الى امه و ماريا ايليينيشنا يجيب فيها على اقتراح ماريا ايليينيشنا الاستنساخ من الكتب ويقول: «لا ادرى اذا كان الاستنساخ ملائما ام لا، انى امل بتنظيم الاشتراك فى احدى مكتبات موسكو او فى مكتبة سن بطرسبورغ».

وفى شتاء سنة ١٨٩٧ كتب ايليتش رسالة الى اهله يظهر منها انه قد وفق الى عمل شئ ما، ولكنه يكتب عن الامكانيات الاخرى، وقد جاء فيها:

«ماريا

لقد استلمت بطاقتك البريدية المؤرخة فى (١٤) ١٢/٢ وكتابين لسيميونوف. شكرا لك على ذلك. وسانتهى منهما بسرعة، لا تتجاوز الاسبوع، ثم اعيدهما (يوم الاربعاء (١/٥) فى الرابع والعشرين منه. وانا اخشى الا يأتى الينا ساعى البريد بتاتا).

لقد ظهر انه لا يوجد خاصة فى المجلدين الاولين شئ ممتع. وهذا امر بديهى لا مفر منه عند تسجيل الكتب المجهولة، وهذا ما كنت اتوقعه.

امل الا ندفع غرامة، وان يمددوا اجل الكتاب لشهر اخر.

لم افهم عبارتك التى تقولين فيها: «سألت كابلوكوف فيما يخص النفوذ فى المكتبة الحقوقية، فعرفت انه يلزم ان يكون الشخص حقوقيا وان يوصى به اثنان من اعضاء الجمعية الحقوقية»؟ هل ذلك وحسب؟ افلا يقتضى ان يكون الشخص ذاته عضوا فى الجمعية؟ انى ساسعى للحصول على التوصية فى بطرسبورغ.

اما عضو الجمعية فيمكن ان يكون غير حقوقى. اصافحك. فلاديمير اوليانوف».

ومع ذلك ففى شوشينسكويه لم تكن الاستفادة تحصل بصورة واسعة من المكتبات ابدا، وذلك بسبب الصعوبات الناشئة عن حالة البريد.

وفى ايلول سنة ١٨٩٨ حصل فلاديمير ايليتش على اجازة للذهاب الى كراسنويارسك لمعالجة اسنانه. وقد كان فى غاية البهجة لهذه الرحلة، غير انه فى اثناء هذه الرحلة ايضا استعد للاستنساخ من كتب مكتبة كراسنويارسك.

وعندما عاد لينين من المنفى سكن فى بسكوف، حيث كتب الى امه رسالة بتاريخ ١٥ اذار سنة ١٩٠٠ قال فيها: «انى غالبا ما ازور المكتبة واتنزه».

وكان لينين فى الهجرة يتردد كثيرا جدا على المكتبات، ولكن ذلك لم ينعكس فى رسائله الى اهله الا قليلا جدا.

وعندما كنا نعيش فى لندن، سنتى ١٩٠٢ – ١٩٠٣ كان فلاديمير ايليتش يقضى نصف اوقاته فى المتحف البريطانى، حيث توجد مكتبة من اغنى المكتبات فى العالم مع نظام خدمات رائع. وفى لندن استفاد ايليتش كذلك كثيرا جدا من غرف المطالعة، كما يتضح ذلك من رسالته الى امه بتاريخ ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٠٢ .

هناك فى لندن غرف كثيرة للمطالعة مطلة على الشارع رأسا، ولا يوجد فيها اى مقعد، وليس فيها سوى اماكن كالرفوف للمطالعة وقوفا وجرائد ملصقة بعصا، و يتناول القارىء الجريدة المثبتة بالعصا ويبسطها على الرف للقراءة. وغرف المطالعة هذه ملائمة جدا، ويزورها عدد كبير جدا من القراء اثناء اليوم كله.

واثناء الهجرة الثانية، عندما حمى وطيس النزاع حول المسائل الفلسفية، وانصرف لينين الى وضع كتاب «المادية والنقد التجريبى»، سافر فى ايار سنة ١٩٠٨ من جنيف الى لندن حيث اعتكف اكثر من شهر فى مكتبة المتحف البريطانى خصيصا لهذا الكتاب.

وعندما ذهبنا الى جنيف فى سنة ١٩٠٣ كان لينين يقضى اياما بكاملها فى مكتبة «جمعية المحاضرات» (Societé de Lecture)، وهى مكتبة هائلة وفيها ظروف رائعة للمطالعة والكتابة، وتصل

اليها جرائد ومجلات كثيرة باللغات الفرنسية والالمانية والانجليزية. وكانت الظروف للمطالعة فى هذه المكتبة ملائمة جدا. وكان اعضاء الجمعية، ومعظمهم من الاساتذة الطاعنين فى السن، لا يترددون على المكتبة الا قليلا. وكانت تحت تصرف لينين غرفة بكاملها، فكان بامكانه ان يكتب فيها ويخطو فيها من زاوية الى اخرى، وان يفكر فى مقالاته وياخذ اى كتاب يشاء.

وفى جنيف استفاد ايليتش بحرص كذلك من مكتبة كوكلين الروسية الغنية التى كان يديرها الرفيق كاربينسكى. وفيما بعد عند ما كان لينين يعيش فى مدن اخرى كان يستعير من كتب هذه المكتبة.

وكان ايليتش فى باريس يتردد قبل كل شئ على المكتبة الوطنية، (Bibliothéque Nationale).

فى كانون الاول سنة ١٩٠٩ كتبت انا الى ام ايليتش عن مطالعاته فى المكتبة ما يلى: «ها هو الاسبوع الثانى الذى يستيقظ فيه فى الساعة ٨ صباحا ويذهب الى المكتبة حيث يخرج منها فى الساعة ٢ نهارا. كان شاقا عليه فى الايام الاولى ان يستيقظ مبكرا فى مثل هذا الوقت، اما الان فانه مرتاح جدا واخذ ينام مبكرا».

وفضلا عن المكتبة الوطنية كان لينين فى باريس يتردد على جملة اخرى من المكتبات، الا انها لم تطمن رغباته الا قليلا. وفى المكتبة الوطنية لم تكن توجد فهارس للسنوات الاخيرة، وعدا ذلك فقد كانت هناك اجراءات روتينية طويلة عند اعطاء الكتب. وكان نظام المكتبات فى فرنسا بوجه عام نظاما روتينيا بوروقراطيا. واما مكتبات احياء المدن فكانت تتالف تقريبا

من الكتب الادبية وحدها، ومع ذلك فالشخص ملزم للحصول على حق الاستفادة منها ان ياتى بشهادة من صاحب البيت الذى يسكنه، وعلى صاحب البيت ان ياخذ على عاتقه مسئولية اعادة الكتاب تماما فى الموعد المحدد. اما نحن فلم يعطنا صاحب البيت مثل هذه الشهادة مدة طويلة نظرا لسوء حالتنا المادية. و كان لينين يحكم على مستوى الثقافة بمقدار حسن تنظيم المكتبات، وكان يرى فى حالة المكتبات وحسن ادارتها مقياسا للثقافة العامة.

و هذا ما كتبه الى امه فى ٩ نيسان ١٩١٤ من كراكوف:

«العمل فى باريس غير ملائم، فالمكتبة الوطنية منظمة تنظيما سيئا. كثيرا ما اتذكر جنيف حيث كنت اعمل بشكل افضل والمكتبة ملائمة، والحياة اهدأ واقل اجهادا للاعصاب. من بين جميع الاماكن التى زرتها فى تجوالى اتمنى لو كنت اختار لندن او جنيف لولا انهما لم تكونا بعيدتين هذا البعد. اما جنيف فحسنة بوجه خاص من ناحية الثقافة العامة وتوفر مرافق الحياة لدرجة فائقة. اما هنا فلا يجوز الحديث عن الثقافة بطبيعة الحال، هنا اشبه تقريبا بروسيا، فالمكتبات رديئة بل فوق الرديئة، وانا لا اكاد اتردد عليها.»

وعند ما سافرنا من كراكوف الى برن كتب ايليتش الى ماريا ايليينيشنا فى ٩ كانون الاول سنة ١٩١٤ يقول:

«... هنا مكتبات جيدة، و امورى حسنة فيما يخص الاستفادة من الكتب. حتى انى يطيب لى ان اقرأ بعد قضاء العمل اليومى

فى الجريدة. و عند ناديجدا مكتبة اخرى لكتب التربية و التعليم، وهى تكتب كتابا تربويا...»

وفى ٧ شباط سنة ١٩١٦ كتب فلاديمير ايليتش الى ماريا ايليينيشنا كتابا جاء فيه: «انا وناديجدا مرتاحان للغاية فى زوريخ، هنا مكتبات حسنة»، وفى ٢٨ شباط سنة ١٩١٦ كتب الى امه يقول: «نحن نعيش الان فى زوريخ. وقد جئت الى هنا لاطلع على المكتبات. البحيرة هنا تروقنا جدا، واما المكتبات فاحسن بكثير من مكتبات برن، بحيث سنقضى هنا وقتا اكثر مما اردنا».

وفيما بعد، فى ٩ كانون الاول ايضا كتب رسالة الى ماريا ايليينيشنا كرر فيها قوله: «المكتبات فى زوريخ احسن وهى ملائمة جدا للمطالعة».

ان شؤون المكتبات فى سويسرا تدار بشكل رائع. و قد نظم تبادل الكتب بين المكتبات تنظيما حسنا للغاية. والمكتبات العلمية فى القسم الالمانى من سويسرا مرتبطة بمكتبات المانيا. وقد استطاع فلاديمير ايليتش حتى فى زمن الحرب ان يستلم بواسطة المكتبة من المانيا الكتب التى كان بحاجة اليها.

والناحية الثانية هى خدمة القراء بشكل بديع، وانعدام الروتين بالمرة، وتنظيم الفهارس تنظيما رائعا، وكذلك الرفوف المفتوحة، والاهتمام الفائق بالقارىء.

وفى صيف سنة ١٩١٥ عشنا فى الجبال عند سفح روتهورن فى قرية هادئة تماما، وهناك كنا نستلم من المكتبة الكتب مرسلة بالبريد مجانا. وكانت الكتب ترسل مرزومة رزما حسنا فى

اضبارة تلصق عليها بطاقة كتب على احدى صفحتيها عنوان المرسل اليه، وعلى الصفحة الاخرى عنوان المكتبة. ولا تستدعى اعادة الكتاب سوى قلب البطاقة على وجهها الاخر وتسليمه الى البريد.

كان فلاديمير ايليتش يثنى كل الثناء على الثقافة السويسرية، وكان يفكر كيف ستنظم شؤون المكتبات فى روسيا بعد الثورة.

كروبسكايا.
ما كتبه وتحدث به لينين
عن المكتبات.
دار النشر الحزبية ١٩٣٤.

رأى لينين فى دراسة اللغات الاجنبية

كان لينين يعرف لغات اجنبية عديدة، فكان يعرف الالمانية والفرنسية والانجليزية جيدا، وقد درسها وترجم عن هذه اللغات، كما كان يقرأ البولونية والايطالية. وكان بامكانه «اثناء الراحة» ان يطالع اى قاموس من القواميس عدة ساعات.

هناك كثيرون ممن يفصلون بين دراسة اللغات الاجنبية وبين دراسة لغتهم القومية، فى حين ان الامرين متصلان ببعضهما اتصالا وثيقا. فدراسة اللغات الاجنبية تزيد اللغة القومية غنى، وتجعلها اكثر وضوحا ومرونة واحسن تعبيرا. ان كل من درس لغة لينين يعرف اى لغة غنية زاخرة حسنة الاداء، هذه اللغة اللينينية. اية لغات درسها لينين فى سنوات المدرسة؟ لقد انهى لينين المدرسة الاعدادية، وفيها درس اللغات الروسية والسلافية واللاتينية واليونانية والفرنسية والالمانية، وهكذا درس ست لغات، منها ثلاث لغات حية وثلاث مندرسة.

كان لينين يذكر عن معلم اللغة الالمانية فى الصفوف الاولى من المدرسة الاعدادية انه كان يثنى على معرفة لينين

الحسنة بقواعد اللغة. وكانت ام لينين تتكلم جيدا بالالمانية، وهذا ما انعكس بطبيعة الحال على معرفة ايليتش للغة الالمانية. وكان فى سنى شبابه يعتقد انه يعرف اللغة الالمانية جيدا، فقد كان يعرفها احسن من سائر اترابه فى الصف. ولكنه عندما حل فى برلين فى صيف سنة ١٨٩٥ ظهر انه كان قد فهم لغة الكلام بصورة سيئة جدا. وقد كتب رسالة الى امه جاء فيها: «... الامر سيئ جدا فقط من ناحية اللغة، فاللغة الدارجة الالمانية افهمها اسوأ من الفرنسية بما لا يقاس. فالالمان يتلفظون بشكل غير عادي، بحيث انى لا اميز الكلمة حتى فى الحديث الخطابى، بينما انا افهم اللغة الفرنسية كلها تقريبا من اول وهلة فى الاحاديث الخطابية. قبل ثلاثة ايام كنت فى المسرح حيث عرضوا تمثيلية «Weber» لهاوبتمان. ومع انى كنت قد قرأت المسرحية كلها قبل عرضها، لكيما اتتبع التمثيل، فانى لم استطع التقاط جميع العبارات. واقول عرضا ان عزيمتى لم تثبط، وانما آسف فقط لان الوقت قليل جدا عندى من اجل دراسة اللغة دراسة وافية».

وفى كانون الثانى سنة ١٨٩٦ عندما زج فلاديمير ايليتش فى السجن طلب الى شقيقته حنة ايليينيشنا ان ترسل له قواميس وجاء فى رسالته: «انى الان اترجم من الالمانية، ولذلك ارجو ارسال قاموس بافلوفسكى» (اى الى السجن ـ ناديجدا كروبسكايا).

وفى المنفى اخذ لينين يترجم من اللغة الانجليزية كتابا لوب، وفى اذار سنة ١٨٩٨ كتب الى حنة ايليينيشنا يقول:

«اريد ان اطلب اليك الحصول على كتب باللغة الانجليزية لاجلى. فقد طلبت ان اترجم، واستلمت كتابا ضخما لوب (Webb) وانى اخشى جدا من الاغلاط.

يلزمنى:

١) قواعد اللغة الانجليزية، وخاصة النحو، وعلى الاخص الاصطلاحات اللغوية. فاذا لم يكن يوجد عند ناديجدا قسطنطينوفنا كتاب القواعد التطبيقية فى اللغة الانجليزية (واظن انه كان يوجد عندها هذا الكتاب، الا انى لا ادرى ان كان يعود لها) فارسليه فى الصيف انت (او ماريا) اذا لم تكن به حاجة. واذا امكن الحصول على كتب احسن فى اللغة الانجليزية، يكون ذلك جيدا جدا.

٢) قاموس الاسماء الجغرافية والخاصة. وهذه ترجمتها واستنساخها من اللغة الانجليزية صعبة جدا، وانا اخشى الاغلاط خشية شديدة. ولا ادرى هل توجد قواميس مناسبة؟ فاذا لم تكن هناك معلومات عنها فى «كتاب الكتب» او فى اى دليل للكتب او فى الفهارس، فهل يمكن الحصول عليها من اى مصدر اخر؟ وبالطبع اذا صادف ان عرفت او حصلت على ذلك (فانى لا اهتم من الناحية المالية لان الاجرة سوف لا تكون قليلة، وانما الاهم ان تكون التجربة موفقة)، ثم ان المسئلة لا تستدعى تقديم التماس خاص. هذا وساستلم ايضا ترجمة المانية لهذا الكتاب بحيث يمكننى دائما ان استعين بها».

وعندما ذهبت انا الى شوشينسكويه اخذت معى كتاب القواعد التطبيقية الذى كنت ادرسه فى السجن. وكان ايليتش يعرف

الانجليزية احسن منى. اما انا فلم تكن عندى اية صورة مهما صغرت، للتلفظ بالانجليزية، و كنت اتلفظها باللهجة الفرنسية. و كان فلاديمير ايليتش قد استمع الى معلمة اللغة الانجليزية عندما كانت تعلم اخته اولغا و سمعها كيف تقرأ بالانجليزية. و مع ذلك فقد كان تلفظ ايليتش فى الغالب غير مضبوط تماما. و انا تعلمت التلفظ حسب تعليماته، و اما فيما بعد، اى بعد اربع سنوات، عندما وصلنا الى لندن، لم يفهمنا احد، كما اننا لم نفهم احدا. و تاتى علينا ان نتعلم الانجليزية من جديد.

و عندما وصلنا الى لندن اخذنا نصلح قليلا من تلفظنا باللغة الانجليزية، فحضرنا الاجتماعات، و استمعنا الى الاحاديث تلقى بالانجليزية، و حضرنا الخطب التى يلقيها الانجليز فى هايد بارك، و كنا نتكلم مع صاحبة الشقة التى سكنا فيها. و قمنا كذلك بتبادل الدروس مع اثنين من الانجليز. فكنا نعلمهما اللغة الروسية، وكانا يعلماننا الانجليزية.

و فى تشرين الاول سنة ١٩٠٢ كتب فلاديمير ايليتش الى امه رسالة ذكر فيها انه اخذ يتقن اللغة عمليا، و فى كانون الاول من السنة ذاتها اشار على ماريا ايليينيشنا ان تتعلم اللغة الانجليزية على طريقة توسن، و قال «ان طريقة توسن ممتازة. انى لم اثق فى السابق بهذه الطريقة، اما الان فقد اقتنعت بانها الطريقة الصائبة العملية الوحيدة. واذا طالعت كتاب توسن واخذت بعض الدروس عند الانكليز انفسهم، عند ذاك يمكن دون شك ان تتعلمى جيدا. والان يوجد كذلك قاموس توسن مع كيفية التهجى، و انى انصح ماريا جدا ان تقتنيه، لان قاموس صاحبنا الكسندروف ملىء بالكذب».

ولكيما يتقن فلاديمير ايليتش دراسة اللغة الالمانية اتقانا اتم، فقد طلب وهو فى المنفى، فى كانون الاول سنة ١٨٩٨، أن ترسل اليه الى جانب قاموس بافلوفسكى، التراجم الالمانية لكتب تورجينيف، وكتب بهذا الصدد يقول: «ليست مجموعات تورجينيف بالذات هى التى تهمنا، بل تهمنا ترجمتها الحسنة. ونرغب فى كتاب قواعد اللغة الالمانية، وليكن كاملا مهما امكن، وخاصة النحو والاعراب. واذا كان باللغة الالمانية نفسها فذلك خير على خير».

وكانت تراجم تورجينيف لازمة لدراسة اللغة الالمانية عن طريق التراجم المعادة. ففى ايار سنة ١٩٠١ كتب ايليتش رسالة من مونيخ نصح فيها صهره مارك تيموفييفيتش ايليزاروف الذى كان فى السجن، ان يتبع «طريقة» هى احسن الطرق، وكتب يقول: «... فى بعض الاعمال الفكرية ينصحون على الاخص بالترجمة والترجمة المعادة، اى ان يترجم فى البدء من اللغة الاجنبية الى الروسية، وبعد ذلك تعاد الترجمة مرة اخرى من الروسية الى الاجنبية. لقد اختبرت بتجربتى ان هذه اصوب طريقة لدراسة اللغة».

وقد درس لينين كذلك البولونية والايطالية، وكان يفهم اللغتين التشيكية والسويدية، وذلك فضلا عن معرفته اللغات الفرنسية والالمانية والانجليزية.

وفى اثناء الهجرة الثانية فى صيف سنة ١٩٠٨، عندما حضرت فى جنيف دورات تعليمية لمدة ٦ اسابيع للمعلمين الاجانب، الذين يعلمون فى اوطانهم اللغة الفرنسية، تحدثت الى فلاديمير

ايليتش عن طرائق التعليم. ان محور التعليم يدور على الصوت، وتؤخذ اثناء ذلك بنظر الاعتبار خصائص لغة المعلم الاصلية، وينبغي ان تنظم احاديث مستمرة فى الصف واثناء الجولات القصيرة، وفى هذه الدورات كان يلجأ بصورة واسعة الى الاستماع الى التلفظ الفرنسي الصحيح، المسجل على اسطوانات الحاكي. وقد اهتم ايليتش كل الاهتمام بهذه الطريقة فى التعليم، واطلع على الكتب الدراسية التى كنا ندرس فيها، واستصوب هذه الطريقة، وتحدث عن ضرورة توسيع استعمال هذه الطريقة الى اقصى حد. واليوم نجد عندنا انعطافا عظيما نحو دراسة اللغات الاجنبية. ولذلك فان علينا ان نعير اهمية خاصة للطريقة التى كان يستعملها لينين فى درس اللغات الاجنبية .

«البرافدا» رقم ٢٤٥
٥ ايلول ١٩٣٧.

مهمة وضعها ايليتش

يجرى فى اكاديمية العلوم نشاط كبير لتحضير ملاكات الدعاة العلميين، وهذا العمل جار فيما يخص الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجغرافيا وعلم طبقات الارض والفلك وغيرها من العلوم. وفيما يخص العلوم الاجتماعية تجرى كذلك بعض الاعمال، الا انها قليلة. هذا فى حين ان الطلب على الكتب السياسية عظيم جدا. وهذا ما نعرفه من مكتباتنا الريفية ومن مدارس الراشدين. فقد كنت من امد قريب انقح احد الكتب التعليمية فقرأت فيه هذه العبارة: «ان الطلب عند ذوى المعارف القليلة هو قبل كل شئ على الكتب التكنيكية والسياسية. وينبغى ان نقنعهم بان من اللازم ان يقرأوا الكتب الادبية». والظاهر ان هذا الاقناع لا يجدي. ان تلامذة المدارس مستاون من كون الكتب المدرسية لتعليم الاميين لا تفى بالغرض المنشود.

تتحدث معلمة مدارس الراشدين «موجيريزا» (بمحطة

لوبلينو) عن التلامذة وكيف انهم ياسفون لعدم تخصيص ساعات للتثقيف السياسى فى مدارس ذوى المعارف القليلة.

فى سنة ١٩١٨ دعا فلاديمير ايليتش الى عقد اجتماع عندنا فى شقتنا للادباء الذين كان يرى هو ان باستطاعتهم ان يكتبوا اشياء مبسطة، وقد بحثت اثناء تناول الشاى المسئلة التالية، كيف تكتب الكتب المبسطة واى موضوع تتناوله. و منذ ايام عثرت فى اضباراتى التعليمية على ورقة من اوراق رئيس مجلس مفوضى الشعب، اصفر لونها و كانت بدون توقيع، و مطبوعة بالالة الطابعة ذات الاحرف القديمة، و تتحدث الورقة كيف ينبغى ان تكتب الكتب المبسطة. انها ايعاز من لينين.

وانا انقله:

«المهمة: ان يؤلف فى مدة اسبوعين كتاب ليقرأه الفلاحون والعمال.

يجب ان يتالف الكتاب من منشورات منفصلة مستقلة يتناول كل منها موضوعا بعينه، و يتكون من صحيفتين الى اربع صحائف.

ايجاز ابسط المواضيع لابسط الفلاحين. عدد المناشير من ٥٠ الى ٢٠٠. و الكتاب الاول يتالف من ٥٠ منشورا.

المواضيع: بناء السلطة السوفييتية، سياستها فى الخارج و الداخل. و مثلا: ما هى السلطة السوفييتية. كيف تدار البلاد. قانون الاراضى. مؤسسة الاقتصاد الوطنى السوفييتى. تاميم المصانع. نظام الطاعة فى العمل. الاستعمار. الحرب الاستعمارية. المعاهدات السرية. كيف اقترحنا نحن السلم. من اجل اى شئ نحارب الان. ما هى الشيوعية. فصل الكنيسة عن الدولة. و هلم جرا.

يمكن و يجب ان ناخذ المناشير القديمة الحسنة وننقح المقالات القديمة.

يجب ان يتضمن الكتاب الصادر للقراءة مواد للقراءة امام الجمهور وللمطالعة فى البيت، و لاعادة طبعها فى مناشير على حدة، وكذلك للترجمة الى اللغات الاخرى (مع بعض الاضافات)».

هذا ما كتب فى سنة ۱۹۱۸. وقد الف فى حينه مثل هذه المجموعة، لكنها انطمرت فى اقبية احدى دور النشر.

لقد مضت ۱۸ سنة على ذلك الحين، غير ان المهمة التى عرضها لينين لا تزال كالسابق مهمة عاجلة لاقصى حد. ولا يقتضى الامر الان الا ان ننتخب المواضيع بشكل اخر. وهذا عمل خطير جدا. ومن الضرورى ان نضطلع به.

«البرافدا» رقم ١٤٩،
١ تموز سنة ١٩٣٦.

محتويات

ديميترى اوليانوف وماريا اوليانوفا. مقتطعات من ذكريات عن لينين

ناديجدا كروبسكايا. من ذكرياتى عن فلاديمير ايليتش

ВОСПОМИНАНИЯ РОДНЫХ
о В. И. ЛЕНИНЕ